فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

462
تشرين الثاني 2026



مقالات
عادل كنيش مطلوب
أحمد فاتح محمد
صادق الطائي
هاشم نعمة
كاظم المقدادي

نصوص قديمة
وثائق عن الرفيق فهد

نصوص مترجمة
ألدو بيريتّا
نيكولا اوفنشتات

حوارات
حوار مع د. تحسين الشيخلي

أدب وفن
حسب الله يحيى
إسماعيل نوري الربيعي
طالب عبد الأمير
رعد فاضل
محمد قاسم حسين
جوتيار تمر
قحطان المعموري
علي ابراهيم الدليمي
محمد سيف
نواف يوسف
سلام حربه
إنتصار عباس
عبد جعفر
خالد الحلّي
رياض الغريب
احمد الحصناوي
نجاح الجبيلي

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل — جواد الزيدي

رضا الظاهر — علي إبراهيم

كاوة محمود — مظهر محمد صالح

هادي عزيز علي

هيئة التحرير

زهير الجزائري

هاشم نعمة

حسب الله يحيى

محرر «أدب وفن»

العدد 462

تشرين الثاني 2026

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: althakafaaljadeda@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
ايميلات باب أدب وفن : hassab1944@yahoo.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، عنوان الكتاب، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 - العلوم والتكنولوجيا وصناعة نهضة الأمم
من التاريخ إلى مستقبل العراق.....عادل كنيش مطلوب
15 - ميتافيزيقيا النص الدستوري.....أحمد فاتح محمد
22 - حين لا يصنع التجاورُ جيرةً:
بسماية وتحولات السكن والعلاقات الاجتماعية.....صادق الطائي
33 - الأوليغارشية (حكم القلة) تعزز الاستبداد وتُضعف الديمقراطية.....هاشم نعمة
45 - الصحة والبيئة والتغير المناخي والعدالة المناخية.....كاظم المقدادي

نصوص قديمة

58 - وثائق عن الرفيق فهد

نصوص مترجمة

73 - ثلاث لحظات لعملية التحول الى الفاشية..لـ ألدو بيريتّا.....ترجمة: رشيد غويلب
79 - موضوعات حول صعود اليمين المتطرف
وخصوصية شرق المانيا لـ نيكولا اوفنشتات.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

82 - حوار مع د. تحسين الشيخلي:
الذكاء الاصطناعي وعصر النهضة الجديد.....حاوره: زهير الجزائري

أدب وفن

95 - الى كتابنا الأعزاء.....حسب الله يحيى
96 - جمهورية المئة بالمئة
حين يصبح التفوق دليلاً على انهيار التعليم.....إسماعيل نوري الربيعي
102 - عن الناصري/ تموز واشياء أخرى.....طالب عبد الأمير
109 - بيتُ الكتابة.....رعد فاضل
112 - مظاهر الحداثة في شعر مقداد مسعود(زهرة الرمان أنموذجا).....محمد قاسم حسين
119 - سيمياء الأنوثة وانزياحات اللغة في ديوان (تلك السيدة) لحسن سليفاني.....جوتيار تمر
127 - فيلم الأوديسا ملحمة سينمائية تستعيد وهج الأسطورة.....ترجمة: قحطان المعموري
132 - لوحات بحجم المأساة العراقية...
صبري المالكي يرسم وجع الوطن بلغة اللون.....علي ابراهيم الدليمي
135 - بيراندلو: يبحث عن نفسه.....محمد سيف
140 - الرحيل.....نواف يوسف
145 - العباءة.....سلام حربه
150 - اخوة النار.....إنتصار عباس
154 - ضيوف النهر.....عبد جعفر
158 - دَرْبٌ يُهَاجِرُ اَلْخَرَائِط..... خالد الحلّي
159 - لست وحيدا بما يكفي.....رياض الغريب
160 - ما تبقىّ من الحبر.....احمد الحصناوي
164 - (الحياة ناي وكوبرا)، قراءة نقدية في قصة للقاص محمد سهيل أحمد.....نجاح الجبيلي

لوحتا غلافي العدد :للفنان فيصل السعدي

التدقيق اللغوي: مصطفـــى عبـــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـتابي

كلمة العدد

خلل اقتصادي بنيوي،
لا يمكن إصلاحه بالقرارات المرتجلة

تتّسع موجة الاحتجاجات والتظاهرات والوقفات والاعتصامات في عموم محافظات بلدنا؛ وتتعدد الأسباب الدافعة إلى ذلك، من ارتفاع معدلات البطالة خصوصا وسط الشباب والخريجين، إلى ارتفاع أسعار السلع والخدمات وتأجير المساكن والمحلات، وتفشي الفساد وتردي الخدمات التعليمية والصحية والبلدية وتدهور البيئة على نحو حاد، ما جعل أنهار العراق أكثر تلوثا، وتهدد صحة المواطنين وسلامة أغذيتهم. كلّ ذلك يحدث دون أن تلوح في الأفق أية حلول عملية، تعالج الأسباب الجذرية لهذه الأوضاع المتردية. علما أن هذه الاحتجاجات لا تجري في الغالب دون مضايقات القوات الأمنية، والتي تصل في بعض الأوقات حد الاعتداء على المحتجين، أو منعهم من ممارستهم حقا كفله الدستور. وقد جاء تخفيض قيمة الدينار العراقي أمام الدولار، ليعكس مدى تخبط الحكومة في معالجة الأزمات المالية والاقتصادية التي لم تكن وليدة اليوم، ولكنها ازدادت حدّة في الفترة الأخيرة خصوصا، نتيجة الحرب الأمريكية العدوانية على إيران، وقلة تصدير النفط العراقي. فيما لم تتأثر في هذا الوضع ـ بهذه الدرجة ـ دول المنطقة التي لديها احتياطيات نقدية واستثمارات راكمتها. فيما افتقر العراق طيلة عقود لسياسات بعيدة المدى وذات منظور استراتيجي للتعامل مع هكذا أوضاع. والآن نجد الحكومة تلجأ لحل أزمة السيولة النقدية، ليدفع ثمنها المواطنون الذين هم أصلا عانوا طويلا من السياسات الاقتصادية والاجتماعية الفاشلة للحكومات المتعاقبة، التي قامت على نهج المحاصصة الطائفية والإثنية، الذي كان سببا رئيسا في تفشي الفساد المالي والإداري والسياسي، واقتسام موارد البلد ونهبها، تحت ذريعة الحصص الانتخابية، التي لا تملك الشرعية القانونية الكافية؛ لأن الكثير منها أتى عن طريق الزبائنية والمال والسلاح والنفوذ واستخدام موارد الدولة، وشراء الأصوات والمناصب بطريقة تكاد تكون علنية. كما تتوجه الحكومة إلى اقتراض المزيد من الأموال داخليا وخارجيا، لسد عجز الميزانية الجديدة، وهذا يجعل الأجيال الحالية والقادمة تدفع ثمن هذه السياسات غير المدروسة. وعلى الرغم من هذه الظروف المالية والاقتصادية الصعبة، تلجأ الكتل السياسية المتنفذة إلى خلق مزيدٍ من المناصب التي لم تكن الدولة بحاجة إليها في واقع الأمر، والسبب معروف وهو ارضاء الأحزاب للتغلغل في مؤسسات الدولة وإحكام السيطرة على اتخاذ القرارات التي تؤمن ـ في النهاية ـ مصالحها السياسية

والاقتصادية دون أدنى إدراك لمآلات ذلك، على ترهل مؤسسات الدولة، وتعدد مراكز القرار، واستنزاف موارد البلد، ومدى ما يعكسه ذلك سلبا على مصلحة المواطنين وتراجع مستوى معيشتهم. يترافق كلّ ذلك مع اتساع الهوّة بين رواتب الدرجات الخاصة التي تعود خصوصا إلى منتسبي الأحزاب والكتل المتنفذة، ورواتب الموظفين والعمال دون أدنى تفكير في تقليل هذا الفارق على الأقل.

كما توقعنا في كلمة العدد السابق، جرى تمديد التاريخ النهائي لتسليم أسلحة الفصائل المسلحة من 30 أيلول 2026 إلى 30 حزيران 2027، والمشكلة لا تكمن هنا في الفترة الزمنية هل هي كافية أم غير كافية، بل في مدى اقتناع هذه الفصائل بمشروعية امتلاك الدولة لقرار الحرب والسلم، كما هو منصوص عليه في الدستور، والتخلي عن فكر التبعية لما وراء الحدود؛ لأن هذا الفكر يُضعف الدولة ومؤسساتها، ومع مرور الوقت يخلق كيانات عسكرية منفصلة يمكن أن تكون مشروعا لكانتونات تتبع أطرافاً خارجية.

ستبقى انتفاضة تشرين حيةً في ضمائر أبناء شعبنا

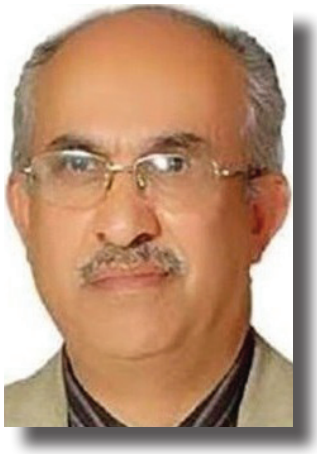
حلّتْ، أخيرا، الذكرى السابعة لانطلاق انتفاضة تشرين المجيدة في عام 2019 التي شكلت بحق منعطفا بارزا في مسيرة شعبنا النضالية، من أجل نيل حقوقه الأساسية، وفي مقدمتها بناء دولة مدنية ديمقراطية كاملة السيادة لكل العراقيين، مهما تنوعت مشاربهم القومية والدينية والمذهبية والفكرية والثقافية، دولة المواطنة لا دولة المكونات، دولة تؤمن بالعدالة الاجتماعية، وبالمؤسسات الدستورية وبحقوق الإنسان، دولة تُعلي مصلحة الشعب والوطن فوق أي اعتبار. وعلى الرغم من التضحيات الجسام التي سُفحت في مجرى الانتفاضة من آلاف الشهداء والجرحى خصوصا من الشباب، فلم تتعظ الطغمة الحاكمة ولم تقرأ التاريخ جيدا، بل نراها سائرة على ذات النهج الذي فجر الانتفاضة. كذلك يجري الاهمال المتعمد لكشف قتلة شهداء الانتفاضة وتقديمهم للعدالة لينالوا جزاءهم العادل على ما اقترفوه، ومعرفة الجهات التي أمرتهم وحرضتهم على تنفيذ فعلتهم الشنيعة هذه. فعلى الرغم من تشكيل لجنة بهذا الخصوص، لكنها لم تخرج بنتائج ولم توضح بشفافية طبيعة عملها، ولماذا تأخر إلى هذا الوقت. كذلك نرى بين الحين والآخر من يقوم بتوجيه الاتهامات الرخيصة للانتفاضة تحت ادعاءات جاهزة، معروفة الدوافع من أجل تشويه أهدافها النبيلة.

مجداً وخلوداً لشهداء انتفاضة تشرين الباسلة..

مقالات

العلوم والتكنولوجيا وصناعة نهضة الأمم
من التاريخ إلى مستقبل العراق

د. عادل كنيش مطلوب
مستشار علمي في وزارة العلوم والتكنولوجيا سابقا



يشهد العالم منذ العقود الأخيرة تحولات جذرية في بنية الاقتصاد والمجتمع والسياسة، قادتها ثورة علمية وتقنية غير مسبوقة نقلت البشرية من عصر الاقتصاد الصناعي إلى عصر اقتصاد المعرفة، الذي أصبحت فيه المعرفة العلمية والتكنولوجيا والابتكار أهم مصادر القوة والثروة والنفوذ. ولم تعد الموارد الطبيعية أو الموقع الجغرافي وحدهما كافيين لتحقيق التنمية المستدامة، بل أصبح رأس المال المعرفي والقدرة على إنتاج التكنولوجيا وتوظيفها يمثلان العامل الحاسم في تحديد مكانة الدول ضمن النظام الدولي.

لقد أثبت التاريخ الإنساني، عبر آلاف السنين، أن تقدم الحضارات لم يكن وليد الصدفة أو نتيجة لتوافر الموارد الطبيعية وحدها، بل كان ثمرة مباشرة لتراكم المعرفة العلمية، وتطور التقنيات، وقدرة المجتمعات على توظيفهما في بناء مؤسسات قوية وتنظيم شؤون الدولة وتحقيق التنمية الشاملة. فالعلم لم يكن في أي مرحلة من مراحل التاريخ مجرد نشاط فكري أو ثقافي معزول، بل كان دائمًا قوة دافعة لإحداث التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية التي غيرت مسار الحضارات، وأسهمت في انتقال البشرية من مرحلة إلى أخرى أكثر تقدمًا.

وتكشف دراسة التاريخ المقارن للحضارات أن الأمم التي استطاعت إنتاج المعرفة، وتطوير وسائل التعليم، وتشجيع البحث والتجريب، كانت الأكثر قدرة على إنشاء مؤسسات إدارية مستقرة، وتنظيم النشاط الاقتصادي، وتحقيق الأمن الغذائي، وتطوير قدراتها الدفاعية، وبناء نظم قانونية وإدارية أكثر كفاءة. وفي المقابل، فإن الحضارات التي توقفت عن إنتاج المعرفة، أو اكتفت باستهلاك ما ينتجه الآخرون، دخلت تدريجيًا في مراحل من الجمود والتراجع، مهما بلغت ثرواتها أو اتسعت أراضيها.

الحضارات القديمة

تُعد حضارات بلاد الرافدين من أقدم النماذج التاريخية التي تجسد العلاقة الوثيقة بين العلم وبناء الدولة. فقد أسهم السومريون والبابليون والآشوريون في تطوير الكتابة المسمارية، التي شكلت نقطة تحول في تاريخ الإنسانية، إذ أتاحت تسجيل المعارف، وإدارة شؤون الدولة، وتنظيم التجارة، وحفظ القوانين. كما حقق علماء بلاد الرافدين إنجازات مهمة في الرياضيات وعلم الفلك والهندسة، وابتكروا نظمًا متقدمة للري والزراعة، مما ساعد على استقرار المجتمعات وزيادة الإنتاج الزراعي وتعزيز قوة الدولة. ويعد قانون حمورابي مثالًا مبكرًا على توظيف المعرفة في بناء مؤسسات قانونية وإدارية تنظم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية.

وفي مصر القديمة، ارتبط ازدهار الدولة ارتباطًا وثيقًا بتطور علوم الهندسة والرياضيات والفلك والطب. فقد تطلب تشييد الأهرامات والمعابد مستوى متقدمًا من المعرفة الهندسية والتنظيم الإداري، كما أسهمت الخبرة في إدارة مياه نهر النيل في تطوير نظم الري والزراعة، وهو ما وفر فائضًا اقتصاديًا مكّن الدولة من بناء جهاز إداري مركزي قوي، ورعاية الفنون والعلوم، وتعزيز الاستقرار السياسي لقرون طويلة.

أما الحضارة الصينية، فقد قدمت نموذجًا آخر للعلاقة بين الابتكار العلمي والقوة الحضارية، حيث شهدت اختراعات غيرت مجرى التاريخ، مثل صناعة الورق، والطباعة، والبارود، والبوصلة. ولم تقتصر أهمية هذه الابتكارات على أثرها المحلي، بل امتدت إلى مختلف أنحاء العالم، وأسهمت في تطور التجارة والملاحة والاتصالات والقدرات العسكرية. كما تميزت الصين ببناء جهاز إداري يعتمد على الكفاءة العلمية من خلال نظام الامتحانات الإمبراطورية، الذي كان من أوائل النظم التي ربطت تقلد الوظائف العامة بالمؤهلات والمعرفة.

أما في الحضارة اليونانية، فتطور التفكير العلمي والفلسفي بصورة غير مسبوقة، حيث وضع فلاسفة وعلماء مثل طاليس، وفيثاغورس، وأبقراط، وأرسطو، وأرخميدس أسس المنهج العقلي الذي يقوم على الملاحظة والتحليل والاستنتاج. وقد شكل هذا الإرث الفكري الأساس الذي بنيت عليه العلوم الطبيعية والرياضية في العصور اللاحقة، وأصبح المرجعية الفكرية للحضارة الغربية خلال عصر النهضة والثورة العلمية.

لكن، مع ظهور حضارة الاسلام، شهد العالم مرحلة جديدة من التقدم العلمي، اتسمت ليس فقط بالحفاظ على التراث العلمي للحضارات السابقة، بل بإعادة إنتاجه وتطويره وإضافة إسهامات أصيلة في مختلف فروع المعرفة. فقد أصبحت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة مراكز عالمية للعلم والتعليم، وأنشئت المكتبات الكبرى وبيوت الحكمة والمراصد الفلكية والمستشفيات التعليمية، وترجمت المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية، ثم أضيفت إليها بحوث وابتكارات جديدة.

أسهم علماء هذه الحضارة في تطوير الرياضيات والجبر والبصريات والكيمياء والطب والفلك والهندسة والجغرافيا، وكان لأعمال علماء مثل الخوارزمي وابن الهيثم والرازي وابن سينا والبيروني وجابر بن حيان أثر بالغ في تطور العلوم العالمية. ولم تقتصر هذه الإنجازات على الجانب النظري، بل انعكست في تحسين الإدارة، وتطوير

الزراعة والصناعة والتجارة، وتعزيز القوة الاقتصادية للدولة، كما أصبحت الجامعات ومراكز البحث العلمي قبلة للطلاب والعلماء من مختلف أنحاء العالم.

فقد انتقلت هذه المعارف إلى أوروبا عبر الأندلس وصقلية وحركة الترجمة، لتصبح أحد الأسس الفكرية التي مهدت لعصر النهضة الأوروبية. ومن ثم بدأت أوروبا مرحلة جديدة من التحول العلمي مع الثورة العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، التي رسخت المنهج التجريبي القائم على الملاحظة والقياس والبرهان، وأسهمت في تحرير البحث العلمي من القيود التقليدية. وأسفرت اكتشافات علماء مثل كوبرنيكوس وغاليليو وكبلر ونيوتن عن تغيير جذري في فهم الإنسان للطبيعة، ووضعت الأسس العلمية التي قامت عليها التكنولوجيا الحديثة.

ثم جاءت الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر لتبرهن بصورة عملية أن المعرفة العلمية يمكن أن تتحول إلى قوة إنتاجية هائلة. فقد أدى توظيف الاكتشافات العلمية في الصناعة إلى زيادة الإنتاج، وتطوير وسائل النقل والاتصالات، وظهور المصانع الحديثة، وارتفاع مستويات الدخل، ونمو التجارة العالمية، وتحول ميزان القوة الاقتصادية لصالح الدول التي استثمرت في العلم والابتكار. وتتابعت بعد ذلك الثورات الصناعية الثانية والثالثة والرابعة، التي اتسمت بدخول الكهرباء، والإلكترونيات، والحاسبات، والإنترنت، والذكاء الاصطناعي، والتكنولوجيا الحيوية، مما أدى إلى تسارع غير مسبوق في وتيرة التقدم العلمي والتكنولوجي.

إن استقراء التاريخ يقود إلى حقيقة جوهرية مفادها أن العلم والتكنولوجيا ليسا قطاعين منفصلين عن عملية التنمية، وإنما يمثلان الأساس الذي تُبنى عليه قوة الدولة الحديثة. فكلما ارتفعت قدرة المجتمع على إنتاج المعرفة، وتوطين التكنولوجيا، وتحويل نتائج البحث العلمي إلى تطبيقات اقتصادية وصناعية، ازدادت قدرته على تحقيق النمو الاقتصادي، وتعزيز الأمن الوطني، وتحسين جودة الحياة، وترسيخ مكانته في النظام الدولي. وعلى العكس من ذلك، فإن الاعتماد المستمر على استيراد التكنولوجيا دون امتلاك القدرة على إنتاجها أو تطويرها يكرس التبعية ويحد من فرص التنمية المستدامة.

تشكل هذه الحقيقة المنطلق الفكري لهذا المقال، الذي ينطلق من أن بناء مستقبل العراق لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال إعادة الاعتبار للعلم والبحث العلمي والتكنولوجيا بوصفها أدوات استراتيجية لبناء الدولة الحديثة، وتعزيز تنافسية الاقتصاد الوطني، وتحقيق التنمية المستدامة، والانتقال من اقتصاد يعتمد على الموارد الطبيعية إلى اقتصاد يقوم على المعرفة والابتكار والإبداع.

أهمية العلوم والتكنولوجيا في العصر الحديث

تؤكد التجارب المعاصرة أن الدول التي استثمرت بصورة منهجية في التعليم والبحث العلمي والابتكار، مثل اليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وألمانيا والصين، استطاعت خلال عقود قليلة أن تنتقل من اقتصادات محدودة الموارد إلى قوى اقتصادية وتقنية عالمية. ولم يكن العامل الحاسم في هذه التجارب هو وفرة الثروات الطبيعية، بل بناء الإنسان، وإنشاء مؤسسات علمية رصينة، وربط الجامعات بالصناعة، واعتماد سياسات وطنية تجعل

من البحث العلمي والابتكار ركيزة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

في القرن الحادي والعشرين تسارعت وتيرة التقدم العلمي بصورة غير مسبوقة مع ظهور الذكاء الاصطناعي، والحوسبة الكمومية، والتكنولوجيا الحيوية، وإنترنت الأشياء، والروبوتات، وتقنيات النانو، والطباعة ثلاثية الأبعاد، والاقتصاد الرقمي.

لم تعد هذه التقنيات مجرد أدوات لتحسين الإنتاج، وإنما أصبحت تؤثر في جميع جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأمنية، بل وأصبحت تحدد مستقبل الدول وقدرتها على المنافسة في الأسواق العالمية.

أصبح الاستثمار في البحث العلمي والابتكار أحد أهم مؤشرات تقدم الدول، حيث تتنافس الحكومات على زيادة الإنفاق على البحث والتطوير، واستقطاب العلماء، ودعم الجامعات، وإنشاء المدن العلمية، وتحفيز الشركات الناشئة، وتطوير البيئة التشريعية الداعمة للإبداع. كما برزت مؤشرات دولية تقيس مستوى الابتكار، وجودة التعليم، وعدد براءات الاختراع، والنشر العلمي، لتصبح مرآة تعكس قدرة الدول على إنتاج المعرفة وليس فقط استهلاكها.

في المقابل، تواجه الدول النامية تحديات كبيرة تتمثل في ضعف الإنفاق على البحث العلمي، وهجرة الكفاءات، والاعتماد على التكنولوجيا المستوردة، وضعف الترابط بين الجامعات وقطاعات الإنتاج، الأمر الذي أدى إلى اتساع الفجوة العلمية والتكنولوجية بينها وبين الدول المتقدمة.

من هنا أصبحت العلوم والتكنولوجيا ليست قطاعًا منفصلًا عن التنمية، بل هي الإطار الذي ترتكز عليه التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية والأمنية، وأصبحت التنمية العلمية والتكنولوجية شرطًا أساسيًا لتحقيق أهداف التنمية المستدامة وبناء اقتصاد قادر على المنافسة عالميًا.

الإشكالية في العراق

يمثل العراق حالة جديرة بالدراسة عند بحث العلاقة بين العلم والتكنولوجيا والتنمية، فهو بلد يمتلك إرثًا حضاريًا وعلميًا استثنائيًا يعود إلى بدايات نشوء الكتابة والحساب والفلك والإدارة في حضارات وادي الرافدين، كما يمتلك قاعدة واسعة من الموارد البشرية والطبيعية، ومؤسسات جامعية وبحثية تمتد جذورها إلى عقود طويلة. وكان العراق، في مراحل مختلفة من تاريخه الحديث، يمتلك قدرات علمية وتقنية كان يمكن أن تشكل أساسًا لبناء اقتصاد حديث قائم على المعرفة والإنتاجية والابتكار.

إلا أن هذا الرصيد الحضاري والبشري لم يتحول، بالقدر المطلوب، إلى **منظومة وطنية مستدامة للعلوم والتكنولوجيا والابتكار** قادرة على إنتاج المعرفة وتوطين التكنولوجيا وتحويل نتائج البحث العلمي إلى منتجات وخدمات وقيمة اقتصادية واجتماعية. فقد تعرضت المنظومة العلمية العراقية خلال العقود الماضية إلى سلسلة متراكمة من الصدمات والتحديات، كان من أبرزها **سياسات المحاصصة التي أقصت التخصصات عن أخذ موقعها المطلوب، والحروب والصراعات المسلحة، وتدهور الأوضاع الأمنية، وعدم الاستقرار السياسي والمؤسسي، وتراجع الموارد المخصصة للبحث والتطوير، وتضرر البنية التحتية العلمية والجامعية، وهجرة أعداد كبيرة من الكفاءات العلمية والتقنية.**

لقد أدى تراكم هذه العوامل إلى إضعاف البيئة التي يحتاجها العلم لكي يتطور بصورة طبيعية؛ فالبحث العلمي لا يزدهر في ظل الانقطاع المستمر في التمويل أو ضعف المختبرات أو غياب الاستقرار المؤسسي، كما أن الجامعات ومراكز البحوث لا تستطيع أداء دورها التنموي إذا بقيت منفصلة عن احتياجات الاقتصاد والمجتمع والقطاع الإنتاجي.

وتزداد المشكلة تعقيدًا عندما لا تتوافر **سياسة وطنية مستقرة وطويلة الأجل للعلوم والتكنولوجيا والابتكار**، تتجاوز التغيرات الحكومية والإدارية الدورية، وتحدد بوضوح الأولويات العلمية والتكنولوجية للدولة، وحجم الموارد التي ينبغي تخصيصها لها، والجهات المسؤولة عن تنفيذها، وآليات قياس نتائجها. فالتقدم العلمي لا يتحقق من خلال قرارات متفرقة أو مبادرات مؤقتة، وإنما يحتاج إلى استراتيجية ممتدة لعقود، وإلى مؤسسات مستقرة تستطيع تنفيذها وتقييمها وتطويرها. (مثال صارخ على ذلك؛ دمج وزارة العلوم والتكنولوجيا مع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بقرار مجلس الوزراء -الأمر الديواني رقم (312) لسنة -2015 ثم ارتبطت إجراءات تنفيذ الدمج لاحقًا بقرار- مجلس الوزراء رقم (87) لسنة (2016).

من المشكلات المهمة كذلك **ضعف العلاقة بين المؤسسات الأكاديمية والقطاع الإنتاجي**. إذ ما تزال هناك فجوة بين جزء من النشاط البحثي في الجامعات ومراكز البحث وبين احتياجات الصناعة والزراعة والطاقة والصحة والمياه والخدمات. ويؤدي غياب هذه العلاقة إلى انخفاض قدرة الاقتصاد على الاستفادة من المعرفة المنتجة محليًا، بحيث تبقى نسبة من البحوث في إطارها الأكاديمي دون أن تتحول إلى براءات اختراع أو منتجات أو تقنيات أو شركات ناشئة أو حلول عملية للمشكلات الوطنية.

كما أن **هجرة الكفاءات العلمية والتقنية** تمثل خسارة مضاعفة؛ فالدولة لا تفقد العالم أو المهندس أو الطبيب بوصفه فردًا فحسب، وإنما تفقد معه سنوات من الاستثمار في التعليم والتدريب والخبرة، إضافة إلى الشبكات العلمية والعلاقات الدولية التي يمتلكها. ولذلك فإن معالجة مشكلة هجرة العقول لا ينبغي أن تقتصر على محاولة منع الهجرة، وإنما ينبغي أن تتضمن بناء بيئة تجعل العراق قادرًا على استقطاب الكفاءات والاحتفاظ بها وإعادة إشراك العلماء العراقيين في الخارج في مشاريع التنمية والبحث والابتكار داخل البلاد.

كما تبرز كذلك مشكلة ضعف البنية التحتية العلمية والتكنولوجية، بما في ذلك المختبرات ومراكز البحث وقواعد البيانات وشبكات الاتصالات والمنظومات الرقمية ومرافق الاختبار والتطوير. فالبحث العلمي الحديث أصبح يعتمد بصورة متزايدة على بنية تحتية متقدمة ومكلفة، ولا يمكن للباحث العراقي أن ينافس عالميًا إذا لم تتوافر له الأدوات والمختبرات وقواعد البيانات والبرمجيات والموارد اللازمة لإجراء البحوث الحديثة.

تتصل بهذه المشكلة قضية ضعف التمويل واستدامته. فالإنفاق على البحث والتطوير ينبغي ألا ينظر إليه بوصفه نفقات استهلاكية، بل باعتباره استثمارًا طويل الأجل في القدرة الإنتاجية للدولة. وتحتاج الدول التي تسعى إلى بناء اقتصاد قائم على المعرفة إلى موارد مستقرة للجامعات ومراكز البحوث، وإلى آليات تمويل تنافسية تشجع البحوث ذات الجودة والأولوية الوطنية، وإلى تمويل

يربط البحث العلمي بالتطبيقات الاقتصادية والاجتماعية.

من الجوانب التي تستحق الدراسة أيضًا أثر ضعف الحوكمة والإدارة العامة في أداء المنظومة العلمية والتكنولوجية. فالتكنولوجيا وحدها لا تستطيع إصلاح المؤسسات إذا لم تكن هناك إرادة مؤسسية لاستخدامها. وقد أدى التأخر في اعتماد وتطبيق بعض تطبيقات الحكومة الرقمية، وقواعد البيانات المترابطة، وأنظمة الإدارة الإلكترونية، وتحليل البيانات في صناعة القرار، إلى استمرار أنماط إدارية تقليدية تحد من الكفاءة والشفافية وسرعة اتخاذ القرار. ولذلك فإن التحول الرقمي ينبغي أن ينظر إليه باعتباره إصلاحًا مؤسسيًا وليس مجرد إدخال أجهزة وبرمجيات جديدة.

في هذا السياق، فإن ما يمكن وصفه بـ التأخر أو المقاومة المؤسسية في تبني التقنيات الحديثة ونظم الحوكمة الرقمية يمثل أحد عناصر الإشكالية، وينبغي تحليله بصورة علمية بعيدًا عن التعميم. فالمشكلة ليست بالضرورة في غياب التكنولوجيا، وإنما في ضعف القدرة المؤسسية على اختيار التكنولوجيا المناسبة، وتمويلها، وتطبيقها، وربطها بإصلاح الإجراءات، وقياس أثرها. وقد يؤدي إدخال التكنولوجيا دون إصلاح المؤسسة إلى تحويل الإجراءات القديمة إلى إجراءات إلكترونية دون تحقيق التحول الحقيقي في الأداء.

إن المحاصصة السياسية وضعف معايير الكفاءة والاستحقاق المؤسسي، متى ما أثرت في التعيين أو إدارة المؤسسات العلمية والبحثية وتوزيع الموارد، يمكن أن تضعف قدرة هذه المؤسسات على أداء وظائفها العلمية. ولذلك فإن بناء منظومة علمية فعالة يتطلب تعزيز مبادئ الكفاءة والاستقلالية الأكاديمية والشفافية والمساءلة والتنافس على أساس الجدارة، مع حماية المؤسسات العلمية من التقلبات السياسية والإدارية.

من هنا تتجاوز الإشكالية العراقية مسألة نقص التكنولوجيا إلى مشكلة أعمق تتمثل في ضعف القدرة على إدارة المعرفة وإنتاجها وتوطينها وتحويلها إلى قوة اقتصادية وتنموية. فالعراق يستطيع شراء أحدث المعدات والبرمجيات، ولكنه لن يتحول إلى اقتصاد معرفي بمجرد استيراد التكنولوجيا. إن التحدي الحقيقي يتمثل في بناء القدرة الوطنية على فهم التكنولوجيا وتكييفها وتطويرها وإنتاج جزء منها، وربطها بالجامعات والقطاع الخاص والمؤسسات الحكومية.

تظهر أهمية هذه الإشكالية بصورة أكبر في ظل التحولات العالمية المتسارعة، ولا سيما في مجالات الذكاء الاصطناعي، والاقتصاد الرقمي، والروبوتات، والتكنولوجيا الحيوية، والطاقة المتجددة، والأمن السيبراني، وتحليل البيانات. فالفجوة بين الدول لا تقاس اليوم فقط بامتلاك المصانع والموارد الطبيعية، وإنما بقدرتها على إنتاج المعرفة والاستفادة من التكنولوجيا بسرعة وكفاءة.

وعليه، فإن السؤال المركزي الذي تطرحه الحالة العراقية لا يتمثل في: هل يمتلك العراق الموارد اللازمة للتقدم العلمي والتكنولوجي؟ فالعراق يمتلك بالفعل عناصر مهمة من هذه الموارد؛ وإنما يتمثل السؤال في:

لماذا لم تتحول الموارد البشرية والطبيعية والإرث العلمي والحضاري للعراق إلى منظومة وطنية مستدامة للعلوم والتكنولوجيا والابتكار قادرة على دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وما الإصلاحات المؤسسية والتمويلية والتعليمية والتكنولوجية اللازمة

لتحويل العراق من مستهلك للتكنولوجيا إلى مشارك في إنتاجها وتطويرها؟

ويتفرع عن هذا السؤال عدد من الأسئلة الأساسية: كيف يمكن إعادة بناء المؤسسات العلمية والبحثية؟ وكيف يمكن وقف نزيف الكفاءات واستعادة جزء من الطاقات العلمية العراقية في الداخل والخارج؟ وكيف يمكن زيادة فاعلية الإنفاق على البحث والتطوير؟ وكيف يمكن ربط الجامعات بالصناعة والاقتصاد؟ وما السياسات اللازمة لتشجيع الابتكار والشركات التكنولوجية؟ وكيف يمكن توظيف التحول الرقمي والذكاء الاصطناعي في إصلاح الإدارة العامة؟ وما الدور الذي ينبغي أن تؤديه الدولة والقطاع الخاص والجامعات والمجتمع العلمي في بناء **نظام وطني عراقي للابتكار؟**

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تمثل جوهر الإشكالية التي يجب دراستها؛ إذ ينطلق من فرضية أساسية مفادها أن **التنمية المستدامة في العراق لن تتحقق بالاعتماد على الموارد الطبيعية وحدها، وإنما تتطلب بناء منظومة متكاملة تجعل العلم والتكنولوجيا والابتكار جزءًا من صميم السياسة الاقتصادية والإدارة العامة والتعليم والتنمية الوطنية.**

من هذا المنظور، فإن استعادة العراق لدوره العلمي لا ينبغي أن تكون مجرد محاولة لاستعادة ماضٍ حضاري مجيد، وإنما ينبغي أن تكون مشروعًا للمستقبل يقوم على **إنتاج المعرفة، وتوطين التكنولوجيا، وبناء رأس المال البشري، وإصلاح المؤسسات، وتعزيز الحوكمة، والتحول الرقمي، وتشجيع الابتكار، وربط البحث العلمي بحاجات الاقتصاد والمجتمع.** فالإرث الحضاري يمكن أن يكون مصدر إلهام، لكنه لا يتحول إلى قوة تنموية إلا عندما يتحول إلى مؤسسات حديثة وسياسات فعالة وقدرات علمية متجددة.

ميتافيزيقيا النص الدستوري: أزمة التناقض البنيوي بين ثوابت الدين وقيم الديمقراطية، العراق مثالاً

د. أحمد فاتح محمد
باحث قانوني ومحام
ومستشار قانونيً



مقدمة

يمثل النص الدستوري في تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي الحديث لحظة الوعي الكبرى التي تنتقل بها المجتمعات من طور الهويات الفرعية والعلاقات العشوائية البدائية إلى طور الدولة المدنية المنظمة. فهو ليس مجرد وثيقة تقنية جامدة لتوزيع الصلاحيات بين السلطات الثلاث، بل هو تجسيد مادي للعقد الاجتماعي وهندسة معمارية تصوغ علاقة الإنسان بالدولة والمجتمع على أسس العقلانية الحديثة. ومع ذلك فإن تجربة كتابة الدساتير في دول الشرق الأوسط، وتحديداً في فترات التحول السياسي الكبرى التي تلت الأزمات البنيوية العميقة، كشفت عن أزمة عميقة في فلسفة التشريع المعاصر. لقد تحول الدستور في كثير من الأحيان من كونه مرجعية قانونية حاسمة لحل النزاعات وحماية الحريات، إلى ساحة معركة فكرية وأيديولوجية تتقاطع فيها الرؤى المتعارضة حول شكل الدولة ومستقبلها وهويتها الثقافية. وتتجلى ذروة هذه الأزمة عندما تحاول النخب التشريعية فرض معادلة توفيقية قسرية تجمع بين مرجعيتين متنافرتين إبستمولوجياً: مرجعية الفقه الميتافيزيقي الذي يرتكز على فكرة الحق المطلق والشرائع الثابتة العابرة للزمن والظروف، ومرجعية الديمقراطية الحديثة التي تنبثق من نسبية الفكر البشري ومرونة الواقع الوضعي المتغير. إن هذا التلاقح القسري بين الماورائي والدنيوي داخل النص القانوني الأسمى لا ينتج استقراراً مجتمعياً، بل يؤسس لـ "شيزوفرينيا تشريعية" تعطل فاعلية القانون، وتترك الباب مواربا أمام صراعات هوياتية واجتماعية لا تنتهي. هنا يغدو ضرورياً تفكيك هذا التناقض البنيوي عبر قراءة سوسيولوجية وقانونية محايدة، تبحث في أنطولوجيا القاعدة القانونية، وتجليات هذا التعارض داخل

النصوص الدستورية والتطبيق القضائي العملي.

إن التأسيس الفلسفي للدولة الحديثة يفترض أن الدستور هو القانون الأسمى والوثيقة العليا التي تحدد هوية الدولة السياسية والقانونية. ولكن حين يقع هذا النص في شرك الهجانة التشريعية، فإنه يتحول من أداة لتحقيق الاستقرار القانوني إلى حلبة مفتوحة لتنازع الهويات وتصفية الحسابات السياسية تحت غطاء من النصوص المقدسة. هذه الإشكالية تستدعي تتبع الأثر السوسيولوجي والقانوني المترتب على دمج المطلق بالنسبي، وفحص المآلات العملية التي تفرضها هذه المزاوجة القسرية على البنية المؤسسية للدولة وعلى علاقة المواطن بمؤسساتها القضائية والتشريعية.

من الجانب التاريخي عانت المنظومات الدستورية في المنطقة العربية من محاولات مستمرة للدمج بين الفقه الموروث والقوانين المدنية المستوردة من الغرب. فمنذ مجلة الأحكام العدلية العثمانية وحتى الصياغات الدستورية الحديثة، بقي التوتر قائماً بين الرغبة في بناء دولة قانونية عقلانية حديثة، والخوف من التخلي عن المرجعية الدينية التقليدية التي تمنح السلطة السياسية شرعيتها الروحية أمام مجتمعات محافظة. هذا التردد التاريخي أفرز صياغات دستورية مهجنة تحاول إرضاء الجميع، لكنها في الواقع تؤسس لأزمات بنيوية طويلة الأجل، حيث يتم ترحيل الخلاف الفكري العميق من حيز النقاش العام إلى صلب البنية التشريعية والقضائية للدولة، مما يشل قدرة هذه المؤسسات على العمل بكفاءة واتساق منطقي.

أنطولوجيا القاعدة الدستورية العراقية: تنازع الكيان التشريعي بين إطلاق الأحكام الشرعية ونسبية النصوص الوضعية

ينهض السؤال الفلسفي الأبرز في فقه القانون المعاصر حول ماهية القاعدة القانونية بوصفها نظاماً عقلانياً خالصاً ونتاجاً لوعي تاريخي مادي فالقانون في جوهره ليس مجرد أداة قهرية لتنظيم سلوك الأفراد، بل هو بنية منطقية مغلقة تهدف إلى ضبط الوجود الاجتماعي وفق نسق متسق وخالٍ من التعارض المعرفي. وإذا كانت القاعدة الدستورية تمثل ذروة هذا النسق وقاعدته الكبرى، فإن تماسكها المنطقي الداخلي يعد شرطاً لازماً لسلامة المنظومة التشريعية برمتها. إلا أن صياغة الدساتير العربية المعاصرة واجهت مأزقاً بنيوياً حاداً حين أقحمت الميتافيزيقيا الغيبية في صلب الوثيقة المدنية، مما أسس لانفصام حاد بين مرجعيتين يستعصي دمجهما تحت سقف معرفي واحد: "ثوابت الدين" بمطلقيتها الماورائية، و"قيم الديمقراطية" بنسبيتها البشرية الوعرة. هذا الانفصام يمثل خللاً فادحاً في أنطولوجيا القانون فالقانون بطبيعته كائن وضعي، حركي، ونسبي، يستمد مشروعية وجوده من تطور الواقع المادي وحاجات المجتمع المتغيرة لا من قيم ثابتة خارج التاريخ. ويبدأ التنافر الإبستمولوجي من اختلاف المنطلقات الفلسفية، فبينما تتأسس "ثوابت الدين" على مفهوم الإطلاق والدوام والقداسة حيث يفترض أن القاعدة الدينية حقيقة موضوعية سابقة على الدولة وعلى فكرة العقد الاجتماعي ذاتها، تتأسس "قيم الديمقراطية" على النزعة الإنسانية التي تعيد مركزة الكون حول الذات البشرية بوصفها صانعة القوانين ومقررة المصير عبر الحوار والتوافق. يتأسس

هذا المفهوم على فرضية أن الحقوق والحريات ليست هبة من أي سلطة، بل هي جوهر الوجود الإنساني اللصيق بصفة المواطنة. في المقابل يرى الفكر التقليدي أن الحقوق هي منحة إلهية تتقيد بحدود الشريعة والتأويلات الفقهية. هذا الصدام المفهومي لا يقف عند حدود الترف الفكري، بل يفرغ مفهوم "السيادة الشعبية" من محتواه الفعلي ويجعلها سيادة مشروطة ومقيدة بحدود لاهوتية غير منضبطة التعريف. إن صياغة الدستور بأسلوب توفيقي يجمع المطلق والنسبي لا يؤدي إلى الاستقرار السياسي أو القانوني، بل يؤسس لمرحلة من الفوضى التأويلية التي تعطل فاعلية النص التشريعي وتجرده من صرامته المنطقية، لتتحول الوثيقة الدستورية من أداة لحسم الصراعات إلى ساحة مفتوحة لإعادة إنتاجها. عندما نبحث في "الأنطولوجيا الدستورية" للدولة فإننا نتساءل عن الكيانية الوجودية للقاعدة الحاكمة. هل تنبع قوة النص الإلزامية من إرادة جمعية وضعية خاضعة للتغيير والتعديل، أم من تفويض إلهي متعالٍ يفترض الثبات والسرمدية؟ إن التوفيق القسري بين هاتين الإجابتين ينتج نظاماً قانونياً هجيناً يعاني من تصدع في هويته الوجودية. إن القاعدة التشريعية الوضعية تتسم بالمرونة والقدرة على التكيف مع متطلبات التطور الاقتصادي والاجتماعي، بينما تتسم الأحكام الشرعية بالجمود والمقاومة للتغيير بداعي الحفاظ على نقاء العقيدة. هذا التنازع بين ديناميكية الوضعي وثبات الميتافيزيقي يخلق شروخاً غائرة في صلب الكيانية التشريعية للدولة، حيث تفقد الدولة قدرتها على صياغة قوانين موحدة تطبق بالتساوي على جميع مواطنيها دون تمييز على أساس العقيدة أو المذهب. الأنطولوجيا القانونية تبحث في جوهر الوجود القانوني في الدولة الحديثة، تولد القاعدة القانونية نتيجة عملية تشريعية واعية ومحددة زمنياً، وتستمد كيانيتها من اعتراف المجتمع والمؤسسات بها كأداة عادلة للتنظيم. أما الأحكام الشرعية فإن كيانيتها الوجودية ترتكز على الإيمان والتسليم المطلق بمصدرها الإلهي المتعالي. عندما يدمج الدستور هذين الكيانين المتباينين في بنية واحدة، فإنه يخلق ازدواجية في "مصدر السيادة". فهل السيادة للشعب ممثلاً ببرلمانه ومؤسساته الدستورية، أم للفقيه والمؤول الديني الذي يملك الكلمة الفصل في تفسير الأحكام الإلهية؟ إن هذا التنازع يقوض وحدة الكيان التشريعي للدولة، ويجعل من القاعدة القانونية نصاً قلقاً يبحث دائماً عن مشروعية مزدوجة لا يمكن تحقيقها دون التضحية بأحد الطرفين. هذا الانفصام الفلسفي والوجودي بين المرجعيات لا يبقى حبيس التنظير الفكري أو النقاشات اللاهوتية داخل ردهات الأكاديميات، بل ينتقل مباشرة من حيز الأفكار المجردة ليتجسد مادياً كخلل تشريعي بنيوي في صلب الوثيقة الدستورية، وهو ما يتجلى بوضوح عند فحص البناء الهيكلي للنصوص الدستورية المعاصرة التي حاولت قسر هاتين المرجعيتين في مادة قانونية واحدة، لتنتقل الأزمة من حيز الفلسفة إلى حيز الصياغة والمنطق القانوني الصرف.

من الميتافيزيقيا إلى النص:
التشريح القانوني للمادة الثانية ومأزق التدرج الهرمي للقواعد

يتجلى الانتقال المادي للانفصام الفلسفي من حيز النظرية إلى النص في المادة الثانية من الدستور العراقي لعام 2005، وهي المادة التي تمثل العقدة التشريعية الأبرز في النظام

القانوني الحالي. تنص هذه المادة في بندها الأول على أن الإسلام دين الدولة الرسمي، وهو مصدر أساس للتشريع، ثم تعود لتضع كوابح صياغية متناقضة منطقياً في فروعها الثلاثة المتساوية في القوة القانونية: إذ يمنع البند (أ) سن قانون يتعارض مع ''ثوابت أحكام الإسلام''، بينما يمنع البندان (ب) و(ج) تعارض القوانين مع ''مبادئ الديمقراطية'' ''الحقوق والحريات الأساسية.'' إن هذا البناء الدستوري المتناقض يمثل عيباً فادحاً في التنظيم التشريعي فهو يضع المشرع العادي أمام معادلة مستحيلة الحل. فلو سن البرلمان قانوناً مدنياً حديثاً يمنح المرأة حقوقاً متساوية تماماً في الإرث والولاية والشهادة استناداً إلى مبادئ الديمقراطية، فإن هذا القانون سيصطدم فوراً بالبند (أ) تحت ذريعة مخالفة ''الاصطلاح الفقهي للثوابت''. وبالعكس فإن محاولة تقنين بعض الأحكام الفقهية التقليدية ستصطدم حتماً بالحريات الأساسية ومبادئ الديمقراطية الحديثة التي تضمن المساواة الكاملة بين المواطنين دون تمييز على أساس الجنس أو المعتقد. هذا التناقض البنيوي يضرب في الصميم نظرية ''التدرج الهرمي للقواعد القانونية ''فالمنظومة القانونية تفترض أن كل قاعدة أدنى تستمد مشروعيتها وصحتها من قاعدة أعلى، وصولاً إلى ''القاعدة الأساسية الدستورية'' التي تقع في قمة الهرم. ولكي تعمل هذه المنظومة بكفاءة منطقية، يجب أن تكون القاعدة الدستورية محددة الصياغة، واضحة المعاني، وخالية من أي غموض معرفي قد يعطل انسيابية التشريع أو يسمح بوجود تعارض داخلي بين مواد الدستور ذاته. لكن إقحام مفهوم فضفاض وغير مقنن مثل ''ثوابت أحكام الإسلام'' دون وضع تعريف تشريعي حاسم له، يخلق ثغرة كبرى في البنية الهرمية للقوانين. فالفقه الديني ليس مدونة تشريعية موحدة بل هو تراث ضخم يمتد لقرون ويضم مذاهب واجتهادات متباينة تصل حد التعارض التام في المسألة الواحدة. وبدلاً من أن يكون الدستور الأداة الحاسمة لمنع التنازع التشريعي، يصبح هو نفسه مصدراً للنزاع. إن غياب التحديد الدقيق لـ''الثوابت'' يحول النص الدستوري من حيز ''المشروعية القانونية'' الصارمة إلى حيز ''الميتافيزيقيا السياسية'' الخاضعة للتأويل المزاجي، مما يفتح الباب أمام صياغة قوانين عادية مشوهة تلبي رغبات القوى المهيمنة بدلاً من حماية مصالح الفئات الاجتماعية الهشة. إن الهرم القانوني يتطلب تماسكاً عقلانياً لا مكان فيه للمفاهيم الهلامية فالتشريع الحديث يقوم على الدقة والوضوح لضمان العدالة وتكافؤ الفرص. عندما يعجز النص الدستوري عن تقديم معايير واضحة للتفريق بين ''الثابت'' و''المتغير''، فإنه يفقد صفة القاعدة الحاكمة ويتحول إلى غطاء للتبرير السياسي. هذا الخلل البنيوي يجعل القوانين العادية اللاحقة مشوبة دائماً بعيب عدم الدستورية، مما يهدد استقرار المراكز القانونية للأفراد والمؤسسات، ويعطل حركة التنمية والاستثمار والتشريع العقاري والتجاري التي تتطلب بيئة قانونية آمنة ومستقرة وواضحة المعالم وصريحة النصوص .

من وجهة نظر صياغية بحتة فإن القاعدة القانونية يجب أن تتصف بـ ''العمومية والتجريد''، ولكنها في نفس الوقت يجب أن تكون محددة المعالم وقابلة للتطبيق العملي

الموحد. إن إقحام المفاهيم الدينية المطلقة يحرم القاعدة الدستورية من تجريدها الفعلي ويجعلها رهينة للتفسير الفئوي الطائفي. عندما يفتقر الدستور إلى الاتساق المنطقي الداخلي، فإن مفهوم "سمو الدستور" يتراجع ليحل محله مفهوم "الهيمنة التأويلية". هذا التعارض البنيوي ينفي صفة "النظام المتكامل المغلق" عن القانون، ويفتحه على احتمالات لا حصر لها من التناقضات التشريعية التي تجعل من القوانين الفرعية (مثل قوانين الأحوال الشخصية، وقوانين العقوبات، وقوانين حرية النشر والتعبير) حقولاً ملغومة بالتعارض الدستوري المستمر الذي يصعب حسمه بأدوات القانون التقليدية وعندما يصاب النص الدستوري الأسمى بهذا العطب المنطقي البنيوي، فإن المنظومة القانونية برمتها تفقد توازنها الداخلي، وتصبح عاجزة عن حسم الخلافات التشريعية بصورة تلقائية وعقلانية، مما يفرض بالضرورة ترحيل هذا المأزق من مستوى الصياغة والنصوص إلى مستوى التطبيق العملي والصراع الاجتماعي اليومي، حيث تجد الدولة نفسها عاجزة عن إدارة التنوع والاختلاف بأدوات القانون الوضعي المحايد.

تجليات المأزق العملي:

سلب السياسة وعلمنة المقدس أمام سلطة التأويل القضائي

حين يعجز المشرع العادي في البرلمان عن فض هذا التناقض البنيوي القائم في صلب النص، ترحل الأزمة برمتها إلى ساحة التطبيق العملي والقضاء الدستوري المتمثل في المحكمة الاتحادية العليا، لتبدأ مرحلة تجلي المأزق الفعلي في حيز الواقع الاجتماعي والسياسي. تجد المحكمة نفسها مجبرة على التصدي لأسئلة وجودية تمس حريات الأفراد وحقوقهم الأساسية، مستعينة بمرجعيتين متناحرتين في النص، ومحاولة سد الثغرات المعرفية التي تركها المشرع الدستوري دون حلول حاسمة. في هذه الاثناء يتوقف القاضي الدستوري عن كونه حارساً للنص القانوني الوضعي، ويتحول إلى "مؤول لاهوتي" يستحضر أدوات الاجتهاد الفقهي ليفصل في قضايا معاصرة معقدة تتعلق بالحقوق المدنية والاقتصادية والأحوال الشخصية. هذا التحول يسلب القضاء صفته التقنية المحايدة ويقحمه في قلب الصراعات الأيديولوجية والسياسية. فمن يملك سلطة تحديد ما هو "ثابت ديني" وما هو "مبدأ ديمقراطي" يملك فعلياً سلطة التشريع الحقيقية والمهيمنة في الدولة. وتؤدي هذه الضبابية القانونية حتماً إلى تآكل مبدأ "الأمن القانوني" حيث تفقد القوانين استقرارها وتوقعها، وتصبح عائمة وتتغير أحكامها بتغير القناعات العقائدية أو السياسية لهيئة المحكمة، مما يزعزع ثقة الأفراد والمؤسسات بالمنظومة القضائية ككل ويخلق حالة من الفوضى التشريعية والاجتماعية المستدامة. إن الانعكاس السوسيولوجي لهذه الثنائية المأزومة يقود إلى عواقب وخيمة تتجلى في مسارين مترابطين يعيدان صياغة البنية الاجتماعية للبلاد:

أولاً ظاهرة "علمنة المقدس وسلبه":

فعوضاً عن إبقاء القواعد الدينية والقيم الروحية في حيزها الأخلاقي السامي والمستقل عن مطامع السلطة والجاه والمناصب، يتم إنزالها قسرياً إلى معترك المساومات البرلمانية والصفقات الحزبية اليومية. تتحول الأحكام

الشرعية والفقهية هنا إلى مجرد أرقام ومواد تشريعية تخضع للتصويت العددي والمقايضات السياسية بين الكتل المتنفذة في لجان مجلس النواب، وهو ما يجرد المقدس من تنزهه الأخلاقي وقيمته الروحية ويحيله إلى مجرد أداة بيروقراطية وقمعية تستخدمها السلطة لتثبيت دعائم حكمها وقمع معارضيها وسلب إرادة المواطنين تحت غطاء مستعار من القداسة.

ثانياً ظاهرة "تأميم السياسي وسلبه": وبالمقابل تسلب السياسة من طابعها الدنيوي والمدني القائم على مناقشة المصالح المادية الملموسة والعدالة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية وتوزيع الثروات بشكل عادل. تصبغ الخلافات التشريعية والسياسية بصبغة لاهوتية معقدة ومقدسة، حيث يتحول نقاش الموازنة العامة، أو قوانين الضرائب، أو قانون الضمان الاجتماعي، أو مدونة الأحوال الشخصية، من صراع برامج سياسية واقتصادية واضحة وقابلة للتفاوض والحلول الوسط، إلى "معارك عقائدية صفرية" تفتت السلم الأهلي وتكرس الانقسام الهوياتي، وتمنع التطور المدني الطبيعي للمجتمع. إن هذا التشويه المزدوج للسياسة والدين يحرم المجتمع من فرص التطور الديمقراطي والعدالة الاجتماعية فالقضايا المادية الملموسة التي تهم معيشة المواطنين يتم تهميشها لصالح السجالات الطائفية والدينية العقيمة. ويزداد هذا المأزق حدة في المجتمعات المتنوعة مذهبياً ودينياً، حيث يتحول القانون الدستوري من أداة حامية للتنوع إلى أداة لفرض هيمنة الأغلبية الدينية أو المذهبية الحاكمة على بقية مكونات المجتمع، مما يهدد الاستقرار السلمي والعيش المشترك بالانهيار الدائم. إن تسييس المقدس يؤدي بالضرورة إلى رداءة القوانين، وتراجع جودتها التقنية، وغياب معايير العدالة والمساواة الإنسانية.

صراحة الأمن القانوني لا يعني فقط وضوح النصوص، بل يعني أيضاً قدرة المواطن على حماية نفسه من تقلبات التأويل القضائي والسياسي. عندما يعجز الدستور عن تأمين هذه الحماية بسبب تناقضاته البنيوية، فإن ثقة المواطن بالدولة ومفهوم العدالة تتآكل بالكامل. هذا التآكل يفتح الباب أمام بدائل تقليدية للعدالة (كالتحكيم العشائري أو اللجوء إلى المرجعيات الدينية غير الرسمية لحل النزاعات)، مما يضعف هيبة الدولة ويفكك تماسكها المؤسسي والاجتماعي، ويعيد المجتمع إلى طور ما قبل الدولة الحديثة، حيث السيادة للقوة والتماسك الفرعي لا للقانون المدني الموحد. إن الخروج من مأزق التناقض البنيوي وميتافيزيقيا النص الدستوري لا يتطلب صداماً مع الدين أو نفياً لوجوده الثقافي والروحي والاجتماعي، بل يتطلب شجاعة معرفية للاعتراف بحدود التخصصات وعلمنة الأدوات القانونية بصورة كاملة وواضحة. يجب أن يبقى الدستور وثيقة دنيوية وضعية بامتياز، غايتها الوحيدة تنظيم شؤون البشر المتغيرة وحماية حرياتهم الأساسية وحرية اعتقادهم الفردية وحقهم في الاختيار والعيش المشترك دون إكراه أو تمييز . وبدون هذا التفكيك العلمي والمنهجي لثنائيات الدستور المأزومة، ستبقى الدساتير تعاني من شيزوفرينيا تشريعية تعيق بناء الدولة المدنية الحديثة،

ليبقى المجتمع رهيناً لصراعات هوياتية لا تنتهي، وقوانين مشوهة تعجز عن تحقيق الاستقرار المعرفي والاجتماعي اللازم لبناء غدٍ أفضل يقوم على احترام كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية بوصفها المرجع الأسمى والأبدي لكل تشريع.

المراجع

1- حميد حنون خالد، الأنظمة السياسية والقانون الدستوري، مكتبة السنوبري، بغداد، 2011.
2 - زهير شكر، الوسيط في القانون الدستوري (النظرية العامة والمؤسسات السياسية)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2004.
3- سليمان محمد الطماوي، النظم السياسية والقانون الدستوري، دار الفكر العربي، القاهرة، 1988.
4- طارق البشري، الدولة والقانون، دار الشروق، القاهرة، 1998.
5 - عبد الرزاق أحمد السنهوري، مصادر الحق في الفقه الإسلامي: دراسة مقارنة بالفقه الغربي، دار المعارف، القاهرة، 1998.
6 - علي هادي الشكراوي، تأثير العقيدة السياسية والدينية في بناء الدستور (دراسة مقارنة)، النجف، 2009.
7- ماجد راغب الحلو، القانون الدستوري والأنظمة السياسية، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، 2005.
8 - مصطفى كامل ياسين، مذكرات في فلسفة القانون، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1978.
9 - منذر الشاوي، فلسفة القانون، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2011.
10- منذر الشاوي، النظرية العامة في القانون الدستوري، منشورات جمعية الثقافة والقانون، بغداد، 2007.

حين لا يصنع التجاورُ جيرةً

بسماية وتحولات السكن والعلاقات الاجتماعية: دراسة سوسيولوجية

صادق الطائي



مقدمة

لم تعد التحولات التي يشهدها السكن الحضري مقتصرة على تغير أشكال المباني أو تقنيات الإنشاء وأنماط استثمار الأرض، بل امتدت إلى طبيعة العلاقة بين الإنسان والمكان وبين السكان بعضهم ببعض. فالبيئة السكنية ليست إطارًا ماديًا محايدًا تجري داخله الحياة الاجتماعية، وإنما هي فضاء تتشكل فيه فرص اللقاء والتعارف والتواصل، وتتحدد عبر تنظيمه درجات القرب والخصوصية والحركة واستخدام المجال المشترك. ومن هذا المنظور، يصبح الانتقال من الحي التقليدي إلى المجمعات السكنية المخططة، ولا سيما السكن العمودي، تحولًا مكانيًا واجتماعيًا في آن واحد. فالقرب المكاني وتوافر أماكن مناسبة للاتصال يمكن أن يزيدا احتمالات اللقاء المتكرر، لكنهما لا ينتجان العلاقات الاجتماعية بصورة آلية؛ إذ يتداخل أثر التصميم مع خصائص السكان وأنماط حياتهم وعلاقاتهم السابقة.[1]

وقد اكتسبت المجمعات السكنية أهمية متزايدة بوصفها نموذجًا يعيد تنظيم الحياة اليومية داخل وحدات مكانية مخططة تتوزع فيها الأبنية والخدمات وشبكات الحركة والفضاءات المفتوحة والمشتركة. ومن هنا تظهر مفارقة سوسيولوجية وعمرانية: فالكثافة السكانية والتجاور الفيزيائي اللذان يميزان كثيرًا من هذه المجمعات لا يؤديان بالضرورة إلى كثافة مماثلة في العلاقات الاجتماعية؛ إذ قد يعيش عدد كبير من السكان في حيز متقارب من دون أن يتحول ذلك تلقائيًا إلى شبكات جيرة متماسكة.

تكتسب هذه الإشكالية أهمية خاصة في الحالة العراقية مع ظهور مشروعات سكنية واسعة النطاق تعتمد المجمع المخطط والسكن العمودي. وتمثل مدينة بسماية الجديدة حالة مناسبة لدراسة هذا التحول، ليس بسبب طبيعة تكوينها العمراني فحسب، بل لأن دراسات عراقية تناولت بالفعل العلاقة

بين بيئتها السكنية والتفاعل الاجتماعي؛ إذ اتجهت إحداها إلى تقييم بسماية في ضوء مؤشرات تصميمية وتخطيطية يفترض أن تعزز التفاعل وتواجه الفصل الاجتماعي، فيما فحصت دراسة ميدانية أحدث التفاعل داخل مجمع A من خلال السكان أنفسهم[2] .

غير أن دراسة بسماية من هذه الزاوية تستوجب الحذر من افتراض علاقة سببية مباشرة بين الشكل العمراني والعزلة. فضعف التفاعل لا يساوي بالضرورة العزلة الاجتماعية، كما أن التجاور المكاني لا يعني وجود مجتمع محلي مترابط. وتزداد أهمية هذا التمييز لأن العزلة تشير إلى جانب موضوعي يتعلق بمدى توافر العلاقات والاتصالات والشبكات الاجتماعية، في حين تشير الوحدة إلى خبرة ذاتية تتصل بكيفية إدراك الفرد لعلاقاته ومدى إشباعها لحاجاته وتوقعاته.[3] ولذلك لا تفترض الورقة أن السكن في بسماية ينتج العزلة حتميًا، وإنما تسأل عن الكيفية التي يعيد بها التنظيم المكاني للمجمع تشكيل فرص اللقاء والتفاعل.

ويمتد هذا السؤال إلى علاقة المجمع بالمجال الحضري المحيط. فقد تجاوزت الأدبيات الحديثة حول المجتمعات المسوّرة التعريف الذي يحصر الظاهرة في السور والبوابة نحو مفهوم أوسع هو urban gating، وما يرتبط به من حدود مادية واجتماعية ودرجات متفاوتة من النفاذية والسيطرة والانفصال المكاني.[4] ويتيح هذا المنظور دراسة بسماية من دون افتراض مسبق أنها تمثل نموذجًا مكتملاً للمجتمع المسوّر، مع فحص درجة اتصالها بالنسيج الحضري والاجتماعي الأوسع.

وعليه، تتعامل الورقة مع بسماية بوصفها حالة كاشفة لتحول أوسع في أنماط السكن الحضري، وتقرأ العلاقة بين المكان والتفاعل والعزلة من خلال تقاطع الأدلة المحلية مع الأدبيات العمرانية والسوسيولوجية المقارنة. ولا تنظر إلى البيئة المبنية باعتبارها سببًا حتميًا للسلوك الاجتماعي، بل بوصفها بنية تتيح بعض أشكال اللقاء وتقيّد أخرى، بحيث يصبح السؤال متعلقًا بالشروط المكانية والاجتماعية التي تسمح بتحويل التجاور السكني إلى تفاعل فعلي.

مشكلة البحث وأسئلته

تتمثل مشكلة البحث في المفارقة بين التقارب المكاني والتقارب الاجتماعي داخل المجمعات السكنية؛ فالسكن العمودي يجمع أعدادًا كبيرة من السكان في حيز متقارب، من دون أن يعني ذلك بالضرورة نشوء علاقات جيرة وشبكات اجتماعية متماسكة. وتبرز الإشكالية في بسماية، حيث يقوم النمط السكني على الكثافة والتنظيم المسبق للكتل والفضاءات والخدمات، فيما جعلت دراسات أنجزت عن المدينة التفاعل الاجتماعي ومدى تحقق شروطه التخطيطية والتصميمية موضوعًا للفحص.[5]

ومن هنا تبحث الورقة في العلاقة بين التنظيم المكاني لبيئة بسماية وفرص التفاعل بين سكانها، من دون افتراض أن ضعفه يعني تلقائيًا وجود عزلة اجتماعية، وتمتد إلى علاقة المجمع بالمجال الحضري الأوسع، بما يسمح بالتمييز بين ضعف التفاعل، والعزلة الاجتماعية، والانفصال الاجتماعي-المكاني.

وينطلق البحث من السؤال الرئيس الآتي:

كيف يؤثر التنظيم المكاني والاجتماعي للمجمع السكني في بسماية في فرص التفاعل

وبناء العلاقات بين السكان، وإلى أي مدى يمكن أن يرتبط ضعف هذه الفرص بالعزلة الاجتماعية أو الانفصال الاجتماعي – المكاني؟

ويتفرع عنه ثلاثة أسئلة:

ما الخصائص المكانية والتصميمية التي تعزز التفاعل أو تحد منه؟ وهل يتحول التجاور الفيزيائي والكثافة السكنية إلى علاقات اجتماعية فعلية؟ وإلى أي مدى تسمح الأدلة المتاحة عن بسماية بالانتقال من الحديث عن ضعف التفاعل إلى العزلة أو الانفصال الاجتماعي–المكاني؟

الإطار المفاهيمي والنظري

تقوم الورقة على افتراض أن العلاقة بين البيئة المبنية والحياة الاجتماعية ليست حتمية مباشرة؛ فالتصميم العمراني لا ينتج بذاته مجتمعًا متماسكًا أو معزولًا، لكنه يستطيع توسيع أو تضييق فرص التفاعل التي تتشكل من خلالها العلاقات. ومن ثم يُنظر إلى المجمع السكني بوصفه تنظيمًا للمكان يحدد أنماط الحركة ودرجات القرب ومواقع العبور والتوقف والعلاقة بين المجالين الخاص والمشترك. وتفيد الأدبيات بأن القرب المكاني والفضاءات الملائمة للقاء يزيدان احتمالات الاتصال المتكرر، مع بقاء أثرهما متداخلًا مع الخصائص الاجتماعية والشخصية للسكان.[6]

ويمثل التفاعل الاجتماعي المفهوم الأول في هذا الإطار، ويقصد به أشكال الاتصال المتبادل التي تنشأ بين السكان من خلال اللقاء والتواصل والمشاركة في الحياة اليومية. وقد تبدأ هذه العملية بلقاءات عابرة ومتكررة في المداخل والممرات والمصاعد والحدائق وأماكن الجلوس والخدمات، تتطور منها المعرفة المتبادلة وعلاقات الجيرة. لذلك لا تصبح الفراغات المشتركة «اجتماعية» لمجرد وجودها في المخطط، بل بقدر قدرتها على جذب السكان وإتاحة الاستخدام المتكرر واللقاء بينهم. وتبين الدراسات أن إهمال المتطلبات الاجتماعية في تصميم الفراغات الخارجية قد يضعف فعاليتها، فيما تربط دراسة بسماية تحسين التفاعل بعناصر تصميمية وتخطيطية تزيد فرص اللقاء[7] .

أما العزلة الاجتماعية فلا تستخدم مرادفًا لقلة الاختلاط أو الشعور بالوحدة؛ فهي تتعلق بالبعد الموضوعي لضعف العلاقات والروابط، وتقاس بعناصر مثل حجم الشبكة الاجتماعية وقرب العلاقات وتواتر الاتصال بالأقارب والأصدقاء. وفي المقابل تمثل الوحدة خبرة ذاتية تتصل بإحساس الفرد بعدم كفاية علاقاته من حيث الكم أو النوع.[8]وتمنع هذه التفرقة استنتاج وجود العزلة في بسماية بمجرد العثور على ضعف في بعض صور التفاعل أو الاستخدام المحدود للفضاءات المشتركة.

ويرتبط بذلك السكن العمودي بوصفه تنظيمًا يعيد توزيع القرب والمسافة؛ فالتقارب لا يتحقق في الشارع والساحة فقط، بل رأسيًا بين الطوابق وعبر المصاعد والسلالم والردهات والممرات. ولذلك لا تكفي الكثافة وحدها لتفسير مستوى التفاعل، بل يتعلق الأمر أيضًا بقدرة مسارات الحركة والمساحات الانتقالية على توفير فرص اللقاء.

وأخيرًا، تستخدم الورقة مفهوم الانفصال الاجتماعي–المكاني لفحص العلاقة بين التجمع السكني والمدينة، وكيفية إنتاج الحدود والاتصال والانقطاع بين الداخل والخارج.

ويفيد مفهوم urban gating في تجاوز اختزال الفصل المكاني في السور والبوابة، والنظر إليه بوصفه درجات متفاوتة من ضبط المجال والنفاذ إليه. ولا يعني استخدام المفهوم تصنيف بسماية مسبقًا باعتبارها Gated Community، بل يوفر أداة لفحص مقدار اتصالها بالنسيج الحضري والاجتماعي الأوسع. وعلى هذا الأساس يقوم النموذج التحليلي على سلسلة مترابطة ولكن غير حتمية:

التنظيم المكاني ← فرص اللقاء ← أنماط التفاعل الاجتماعي ← تكوين العلاقات والشبكات ← احتمالات الاندماج أو العزلة.

مع مستوى آخر يتعلق بعلاقة المجمع بمحيطه، أي الاتصال أو الانفصال الاجتماعي– المكاني . وبذلك تصبح البيئة المبنية عاملًا وسيطًا في تشكيل الحياة الاجتماعية، لا سببًا منفردًا يحدد نتائجها مسبقًا.

بسماية بوصفها حالة سكنية حضرية

تمثل مدينة بسماية الجديدة تحولًا في نمط إنتاج السكن في العراق؛ فهي لا تقوم على توسع تدريجي لحي قائم، بل على إنشاء تجمع حضري مخطط يجمع السكن والخدمات والفضاءات المفتوحة والأنشطة التعليمية والتجارية ضمن بنية مكانية واحدة. ويقع المشروع جنوب شرقي بغداد على الطريق الرابط بين بغداد والكوت، وبدأ تنفيذه سنة 2013 بواسطة شركة هانوا الكورية للهندسة والإنشاءات، على مساحة تبلغ نحو 1830 هكتارًا موزعة على ثمانية قطاعات. وتتكون العمارات السكنية من عشرة طوابق، يضم كل منها اثنتي عشرة شقة. كما خُصص نحو 40% من مساحة المشروع للاستعمال السكني، مقابل 18.2% للمساحات المفتوحة من متنزهات وحدائق، إلى جانب المناطق التعليمية والتجارية ومراكز الأعمال والأماكن العامة والبنى التحتية.[9] وتمنح هذه الخصائص بسماية سمات مشروع يسعى إلى إنتاج بيئة حضرية متكاملة، لا مجرد مجموعة من العمارات السكنية.

غير أن أهمية بسماية لهذه الورقة لا تكمن في حجم المشروع وحده، بل في الطريقة التي يعيد بها هذا التخطيط تنظيم الحياة اليومية؛ فالسكن في المجمع يعني الانتقال إلى بيئة تحدد مسارات الحركة والوصول إلى الأسواق والمدارس والخدمات والحدائق والمواقف، وتعيد ترتيب العلاقة بالحي والجيران والمجال العام. وتشير الدراسات إلى أن اختيار البيئة السكنية لا يتحدد بالدخل والخصائص الديموغرافية فقط، بل يرتبط كذلك بأنماط الحياة وتفضيلات الأسر والحركة والخدمات والمشاركة في المجتمع المحلي.[10] ومن ثم يمثل الانتقال إلى بسماية انتقالًا إلى نمط معيشي مختلف، بما يجعل آثاره الاجتماعية جزءًا من تقييم التجربة السكنية.

وتوفر دراسة مجمع A صورة أكثر تحديدًا للبنية السكنية الداخلية؛ إذ يضم المجمع تسعة قطاعات فرعية تحتوي على 119 عمارة و14,280 شقة.[11] ويكشف هذا الحجم عن مفارقة أساسية: فالكثافة والتجاور يوفران نظريًا عددًا كبيرًا من فرص الالتقاء، لكنهما لا يحددان وحدهما نوعية العلاقات التي تنشأ بين السكان.

ومن هنا تتعامل الورقة مع بسماية بوصفها حالة حضرية كاشفة للتحول من الجوار التقليدي إلى التجاور المخطط والعمودي.

فوجود المدارس والأسواق والحدائق والفضاءات المفتوحة يوفر بنية ضرورية للحياة الحضرية، لكنه لا يضمن تحويل السكان المتجاورين إلى جماعة محلية مترابطة. وهذه المسافة بين التخطيط المادي للمكان والتكوين الاجتماعي للجيرة تمثل نقطة الانطلاق لتحليل أثر السكن العمودي في فرص التفاعل.

السكن العمودي وإعادة تشكيل فرص التفاعل الاجتماعي

لا تكمن الأهمية الاجتماعية للسكن العمودي في زيادة عدد الوحدات ضمن مساحة محدودة فحسب، بل في إعادة تنظيم شروط التقارب واللقاء. ففي الحي الأفقي تتوزع فرص الاتصال عبر الشارع والرصيف وواجهات المنازل والساحات والمرافق القريبة، بينما يعيد البناء العمودي توزيعها بين الطوابق والممرات والسلالم والمصاعد وردهات الدخول والفضاءات المحيطة بالعمارات. وبذلك لا تختفي فرص التفاعل، وإنما تتغير مواقعها وكيفيات حدوثها. وتلفت الأدبيات إلى أهمية المساحات الانتقالية داخل المبنى وإمكان تحويلها من أماكن للعبور إلى نقاط للاتصال بين السكان.[12]

وتظهر هذه المسألة في بسماية، حيث يضع البناء العمودي أعدادًا كبيرة من الأسر داخل بنية متقاربة. إلا أن تقييم المشروع يكشف تفاوتًا بين الكثافة السكنية وتهيئة مواقع التفاعل؛ فقد أظهرت دراسة كاظم والشوك أن ردهات المصاعد لم تؤثث بما يشجع على استخدامها اجتماعيًا، وأن مؤشر فتح الطابق الأرضي بوصفه ردهة عامة للبقاء لم يتحقق، كما لم يتحقق توزيع الأنشطة رأسيًا على طوابق المباني. وفي المقابل، سجلت الدراسة وجود أسواق صغيرة ومرافق تعليمية ومطاعم وحدائق ومناطق للجلوس وشوارع. وخلص التقييم إلى تحقق 41 % من مؤشرات الإطار النظري المعتمد لتحسين التفاعل الاجتماعي.[13] ويشير ذلك إلى أن القضية لا تتعلق بوجود عناصر النشاط والالتقاء فحسب، بل بكيفية توزيعها وربطها بالحركة اليومية للسكان.

وتعزز الدراسة الميدانية المنشورة سنة 2024 هذه الصورة من منظور السكان. فقد بلغ المتوسط العام لمؤشر التفاعل الاجتماعي 2.96 من خمس درجات في عينة مجمع A، أي أقل قليلًا من الوسط الفرضي البالغ 3. لكن المؤشرات الفرعية جاءت متفاوتة؛ فقد بلغ متوسط التعاون بين السكان 3.08، والانتماء والثقة 3.04، والقدرة على التفاعل والتواصل 3.24، في حين انخفض تكرار التواصل إلى 2.79، وسجل التواصل والزيارة بين سكان المجمع والمجمعات المجاورة 2.32.[14] ويكشف هذا التفاوت أن الإحساس بالتعاون والانتماء لا يتطابق بالضرورة مع الممارسة المتكررة للتواصل.

ومن ثم لا يلغي السكن العمودي في بسماية التفاعل الاجتماعي ولا ينتجه تلقائيًا؛ بل يعيد تشكيل فرصه، بحيث تصبح نوعية الاتصال أكثر اعتمادًا على تصميم نقاط العبور واللقاء وتوزيع الأنشطة والفضاءات المشتركة. ويعزز ذلك أن مؤشر قدرة السكن العمودي على تحقيق تواصل أكبر من السكن الأفقي سجل متوسطًا قدره 2.46، بينما سجلت الدعوة إلى زيادة كمية ونوعية الأماكن العامة الآمنة والمساحات الخضراء المخططة متوسطًا بلغ 3.68.[15] وهكذا ينتقل

التحليل من الكثافة السكنية ذاتها إلى نوعية الفضاءات التي يقع فيها اللقاء اليومي.

الفضاءات المشتركة واللقاء اليومي داخل المجمع

إذا كان السكن العمودي يعيد توزيع السكان رأسيًا، فإن الفضاءات المشتركة تمثل الحلقة التي يمكن أن تحول التقارب الفيزيائي إلى تفاعل اجتماعي. فالعلاقات لا تتشكل داخل الوحدات الخاصة وحدها، بل كذلك في المداخل والردهات والممرات والمصاعد والسلالم والحدائق والساحات ومناطق الجلوس ومسارات المشاة والخدمات اليومية. وتتيح هذه الأماكن اللقاء غير المخطط؛ أي التقاطع المتكرر بين السكان أثناء أنشطتهم الاعتيادية، الذي قد تنتقل عبره العلاقة من التعرف البصري إلى التحية والحديث ثم إلى علاقات جيرة أكثر استقرارًا. وتشير الأدبيات إلى أن الاتصال المتكرر يمكن أن يسهم في بناء المعرفة المتبادلة والثقة والشبكات الاجتماعية، مع تداخل أثر البيئة المبنية مع الخصائص الاجتماعية للسكان.[16]

ولا تتحدد الفعالية الاجتماعية للفضاء المشترك بمجرد وجوده الكمي في المخطط؛ فقد تكون المساحة واسعة لكنها قليلة الاستخدام أو غير ملائمة للبقاء واللقاء. وتشير دراسة قصاب والحسيني والفرا إلى أن وظيفة المسكن تمتد إلى الفراغات الخارجية اللازمة للتفاعل مع الجيران، وأن إهمال المتطلبات الاجتماعية في تصميمها قد يضعف فعاليتها.[17] ويتفق ذلك مع دراسة بسماية في إبراز قيمة المساحات الانتقالية داخل المبنى، ومنها ردهة المصعد التي يمكن تحويلها من نقطة عبور إلى مساحة تتيح البقاء والاتصال.[18]

ومن ثم تتحدد القيمة الاجتماعية للفضاء بموقعه ووظيفته وقابليته للاستخدام المتكرر. وتكشف بسماية أهمية التمييز بين الفضاء الموجود والفضاء المستخدم اجتماعيًا. فالمخطط العام يخصص 18.2% من مساحة المشروع للمتنزهات والحدائق، إلى جانب المناطق العامة والتجارية والتعليمية، وسجل تقييم المشروع وجود حدائق ومناطق جلوس وشوارع وأسواق ومطاعم ومرافق أخرى. وفي المقابل، لم تتحقق مؤشرات تتعلق بتأثيث ردهات المصاعد، والردهة العامة في الطابق الأرضي، وتوزيع الأنشطة رأسيًا داخل المباني.[19] وهذا يعني أن وجود فضاءات عامة على مستوى المشروع لا يعوض بالضرورة ضعف الفضاءات الاجتماعية المرتبطة مباشرة بالحياة اليومية للسكان.

وتدعم نتائج مجمع A هذا الاستنتاج بصورة غير مباشرة؛ فقد سجلت زيادة الأماكن العامة الآمنة والمساحات الخضراء المخططة متوسطًا بلغ 3.68، في حين جاءت بعض مؤشرات التواصل الفعلي، ولا سيما التواصل والزيارة بين سكان المجمع والمجمعات المجاورة، عند مستويات أدنى[20] ولا تثبت هذه الأرقام علاقة سببية بين التصميم وضعف التواصل، لكنها تكشف مسافة بين الإمكان المكاني للتفاعل وممارسته الاجتماعية الفعلية.

وعليه، لا ينبغي النظر إلى الفضاءات المشتركة باعتبارها مجرد نسب في مخطط استعمالات الأرض؛ فقيمتها الاجتماعية تتحدد باندماجها في إيقاع الحياة اليومية وإتاحتها إمكان التوقف والبقاء وتكرار اللقاء. أما حين يظل الفضاء مكانًا للعبور أو قليل الاستخدام، فإن الكثافة السكنية يمكن أن تنتج

تجاورًا من دون تواصل. وهنا يبرز السؤال الذي يقود إلى القسم التالي: متى يمكننا الحديث عن الانتقال من تشخيص ضعف التفاعل إلى الحديث عن العزلة الاجتماعية؟

من ضعف التفاعل إلى العزلة الاجتماعية: حدود العلاقة

تقتضي قراءة نتائج بسماية التمييز بين ضعف التفاعل الاجتماعي والعزلة الاجتماعية؛ فهما ظاهرتان متصلتان لكنهما غير متطابقتين. قد ينخفض تواتر اللقاء والزيارة بين الجيران من دون أن يصبح الفرد معزولًا اجتماعيًا، لأن شبكته قد تمتد إلى الأسرة والأقارب والأصدقاء وزملاء العمل خارج المجال السكني. وتعرّف الأدبيات العزلة الاجتماعية من خلال البعد الموضوعي لضعف العلاقات والروابط، ويمكن مقاربتها بحجم الشبكة الاجتماعية وقرب العلاقات وتواتر الاتصال. وهي تختلف عن الوحدة (Loneliness) التي تمثل خبرة ذاتية تتصل بإحساس الفرد بعدم كفاية علاقاته من حيث الكم أو النوع. [21]

ويكتسب هذا التمييز أهمية مباشرة عند تفسير الدراسة الميدانية لمجمع A. فقد حددت الدراسة مجتمع البحث بـ85,680 فردًا، فيما بلغ عدد المستجيبين للاستبانة 72 فردًا، واعتمدت مؤشرات لدراسة التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمع. [22] ومن ثم تسمح نتائجها بتشخيص بعض أشكال التواصل والتعاون والانتماء، لكنها لا تمثل قياسًا مباشرًا للعزلة الاجتماعية؛ إذ لا تتضمن، بحسب ما تعرضه الدراسة، مقياسًا متخصصًا لحجم الشبكات الاجتماعية وتنوعها وصلاتها بالأقارب والأصدقاء داخل المجال السكني وخارجه. وهذه الملاحظة ضرورية حتى لا تُحمّل النتائج دلالة تتجاوز ما تقيسه فعليًا.

ومع ذلك، تقدم النتائج مؤشرات تستحق القراءة من زاوية احتمال الانتقال من ضعف التفاعل إلى ضعف الروابط الاجتماعية . فقد بلغ المتوسط العام للتفاعل 2.96 من خمس درجات، مع تفاوت بين المؤشرات الفرعية؛ إذ كانت مؤشرات القدرة على التواصل والانتماء والثقة والتعاون أقرب إلى الوسط أو أعلى منه قليلًا، بينما كان تكرار التواصل والزيارة أضعف. ولا تكشف هذه الصورة عن مجتمع خالٍ من الروابط، بل عن تفاعل غير متجانس تتعايش فيه بعض مظاهر الانتماء والتعاون مع محدودية التواصل المتكرر. وتكتسب هذه المحدودية أهميتها لأن حجم الشبكة وقرب العلاقات وتواتر الاتصال تدخل ضمن العناصر المستخدمة في مقاربة العزلة الاجتماعية. [23]

ويضيف البعد المكاني مستوى آخر؛ فقد خلص تقييم بسماية سنة 2022 إلى أن النسبة الأكبر من مؤشرات إطار الدراسة النظري لتحسين التفاعل لم تتحقق، وأوصى بزيادة المساحات المفتوحة والأنشطة الترفيهية، وإنشاء قاعات للتجمع داخل الكتل السكنية، وتحسين ردهات المصاعد والفضاءات الخارجية. [24] ولا تثبت هذه النتيجة أن القصور التصميمي أنتج عزلة اجتماعية، لكنها تشير إلى أن ضعف البيئات الميسرة للقاء يمكن أن يقلل فرص نشوء العلاقات المحلية واستمرارها.

وعليه، تسمح الأدلة المتاحة بالحديث عن ضعف نسبي في بعض أنماط التفاعل وفرص اللقاء، لكنها لا تكفي لإثبات وجود عزلة اجتماعية عامة بين سكان بسماية. وتمثل

هذه الحدود نتيجة منهجية مهمة؛ لأنها تمنع تحويل الارتباط المحتمل بين البيئة المبنية والعلاقات الاجتماعية إلى سببية غير مثبتة، وتحدد ما ينبغي أن تقيسه الدراسات الميدانية اللاحقة لاختبار العزلة الاجتماعية مباشرة.

بسماية والانفصال الاجتماعي-المكاني عن المدينة

لا يكتمل تحليل الحياة الاجتماعية في بسماية بالنظر إلى العلاقات المتشكلة داخل المجمع وحده؛ فموقع المشروع وطبيعة اتصاله بالمجال الحضري الأوسع يمثلان بعدًا آخر من التجربة السكنية. وتعد الأدبيات المتعلقة بتنمية الأحياء الارتباطية عنصرًا مهمًا في تكوين البيئة السكنية، من خلال اتصال الحي بشبكات الحركة والنقل والبنية التحتية والمناطق المحيطة، فيما تسهم الاستعمالات المختلطة في تقليل مسافات التنقل وتلبية الاحتياجات اليومية.[25] ومن هذا المنظور يصبح اتصال بسماية ببغداد والمجال الحضري المحيط جزءًا من تقييمها الاجتماعي–المكاني.

وتقع بسماية جنوب شرقي بغداد، على بعد نحو عشرة كيلومترات من حدود العاصمة، وعلى الطريق الرابط بين بغداد والكوت. وتظهر بنيتها التخطيطية قدرًا من التكامل الوظيفي الداخلي؛ إذ تضم مناطق سكنية وتعليمية وتجارية ومراكز أعمال ومساحات مفتوحة وأماكن عامة وبنى تحتية.[26] ويتيح ذلك تلبية جانب من متطلبات الحياة اليومية داخل المشروع، لكنه يثير في الوقت نفسه سؤالًا عن مقدار اعتماد السكان على المجال الداخلي مقارنة باتصالهم بالمدينة الأوسع. ولا تسمح المصادر المتاحة بإثبات أن هذا التكامل قد تحول إلى عزلة مكانية عن بغداد، ولذلك ينبغي التعامل معه بوصفه متغيرًا للفحص لا دليلًا قائمًا بذاته على الانفصال.

ويمكن قراءة هذه المسألة في ضوء مفهوم urban gating الذي لا يحصر الانفصال الحضري في السور والبوابة، بل يشمل درجات النفاذية والحدود المادية والاجتماعية والسيطرة على المجال. كما تشير دراسات مقارنة إلى أن التقارب الجغرافي بين الجماعات السكنية لا يضمن اندماجها، وأن الحصرية المادية يمكن أن تقلل نفاذية النسيج الحضري وتدعم تكوين جيوب سكنية متمايزة.[27] إلا أن إسقاط هذا النموذج على بسماية مباشرة سيكون غير دقيق؛ فالمصادر المتاحة لا تثبت وجود آليات فرز طبقي واضحة، ولا توفر بيانات كافية عن التركيب الاجتماعي والاقتصادي للسكان مقارنة بالمناطق المجاورة، كما لا تثبت أن بسماية تعمل بوصفها مجتمعًا مسوّرًا بالمعنى الصارم.

ومع ذلك، تقدم دراسة مجمع A مؤشرًا يستحق الانتباه؛ فقد بلغ متوسط التواصل والزيارة بين سكان المجمع والمجمعات المجاورة 2.32 من خمس درجات، وبشدة إجابة بلغت 46%، وهو من أدنى المتوسطات بين عناصر مؤشر التفاعل.[28] ولا يكفي ذلك لإثبات انفصال اجتماعي–مكاني عن المدينة، ولا سيما أن السؤال يتعلق بالمجمعات المجاورة وليس ببغداد كلها، لكنه يشير إلى ضعف نسبي في التواصل العابر لحدود المجمع السكني.

وعليه، فإن التوصيف الأكثر اتساقًا مع الأدلة ليس اعتبار بسماية «غيتوًا سكنيًا» أو Gated Community مكتملة الخصائص، وإنما

تجمعًا حضريًا كبيرًا يتمتع بدرجة مرتفعة من التنظيم والتكامل الداخلي، وتستدعي درجة اتصاله الاجتماعي والمكاني بالمحيط الأوسع مزيدًا من البحث. ويتطلب حسم ذلك بيانات عن الحركة اليومية للسكان، وأماكن العمل والتسوق، واستخدام النقل، وشبكات العلاقات خارج المشروع.

الخاتمة والاستنتاجات

تكشف حالة بسماية أن التحول نحو المجمعات السكنية الكبيرة والسكن العمودي في العراق لا يمثل استجابة كمية للحاجة إلى السكن فحسب، بل يعيد تنظيم العلاقة بين السكان والمكان وطرق تشكل الجيرة والتواصل والانتماء. ويبين التحليل أن الكثافة السكنية والتجاور الفيزيائي لا ينتجان بالضرورة تقاربًا اجتماعيًا مماثلًا؛ إذ تتوسط العلاقة بين الشكل العمراني والحياة الاجتماعية طبيعة الفضاءات المشتركة، ومواقع اللقاء، ومسارات الحركة، وتوزيع الخدمات والأنشطة، وكيفية استخدامها في الحياة اليومية.

وتجسد بسماية هذه المفارقة؛ فالمشروع يوفر استعمالات سكنية وتعليمية وتجارية ومساحات مفتوحة وخدمات مختلفة، في حين أظهر تقييمه عدم تحقق عدد من المؤشرات التخطيطية والتصميمية المرتبطة بتعزيز التفاعل، ولا سيما في فضاءات اللقاء القريبة من الحياة اليومية داخل العمارات. كما بلغ المتوسط العام للتفاعل الاجتماعي في دراسة مجمع 2.96، A من خمس درجات، مع تفاوت بين مؤشرات التعاون والانتماء والتواصل والزيارة.[29] وتدل هذه النتائج على أن توفير البنية المادية للتجاور لا يكفي وحده لإنتاج علاقات اجتماعية متكررة ومستقرة.

ويتمثل أحد أهم استنتاجات البحث في ضرورة عدم الخلط بين ضعف التفاعل والعزلة الاجتماعية. فالدراسات المتاحة عن بسماية تقيس جوانب من التواصل والانتماء والتعاون واستخدام المجال، لكنها لا تقدم قياسًا مباشرًا وشاملًا للعزلة من حيث حجم الشبكات وقرب العلاقات وتواتر الاتصال داخل المجال السكني وخارجه. لذلك تدعم الأدلة استنتاجًا محددًا بوجود ضعف نسبي في بعض فرص وأنماط التفاعل، لكنها لا تسمح بالقول إن سكان بسماية يعانون عزلة اجتماعية عامة.[30]

كما يكشف التحليل أن قيمة الفضاء المشترك لا تتحدد بمساحته أو وجوده التخطيطي، بل باندماجه في مسارات الحياة اليومية وقدرته على إتاحة التوقف واللقاء المتكرر. ومن ثم يمكن تلخيص العلاقة التي كشفتها الدراسة في السلسلة الآتية:

التنظيم المكاني ← فرص اللقاء ← أنماط التفاعل الاجتماعي ← تكوين العلاقات والشبكات ← احتمالات الاندماج أو العزلة.

وهي علاقة احتمالية لا سببية حتمية.

وعلى مستوى علاقة بسماية بالمدينة، لا توفر المصادر أساسًا كافيًا لتصنيفها بوصفها Gated Community أو «غيتوًا» سكنيًا بالمعنى الصارم. إلا أن موقعها وحجمها وتنظيمها الداخلي وتعدد خدماتها، إلى جانب بعض مؤشرات ضعف التواصل خارج نطاق المجمع، تجعل الانفصال الاجتماعي–المكاني سؤالًا مشروعًا للبحث. ويتطلب حسمه دراسات تقيس حركة السكان اليومية وأماكن العمل

والتسوق واستخدام النقل وشبكات العلاقات خارج المشروع ودرجة اندماجه في النسيج الحضري لبغداد.

وبذلك تكشف بسماية أن بناء مدينة سكنية لا يساوي بالضرورة بناء مجتمع محلي؛ فنجاح البيئة السكنية اجتماعيًا لا يقاس بعدد الوحدات أو كثافة السكان فقط، وإنما بقدرتها على تحويل التجاور المكاني إلى تفاعل وعلاقات وانتماء، وربط المجال السكني الداخلي بالمدينة الأوسع.

الهوامش

1 - Jo Williams, “Designing Neighbourhoods for Social Interaction: The Case of Cohousing,” Journal of Urban Design 10, no. 2 (2005): 196–198.

2 -. Lubna A. Kadhim and Mufeed Ehsan Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” Iraqi Journal of Architecture and Planning 21, no. 1 (2022): 135–144;

وكنوز طالب حميدي وعامر شاكر الكناني، ”التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية: حالة دراسية مجمع A السكني في مدينة بسماية “ مجلة المخطط والتنمية 29، ع 2 .(2024)

3 - Lixia Ge, Chun Wei Yap, Reuben Ong, and Bee Hoon Heng, “Social Isolation, Loneliness and Their Relationships with Depressive Symptoms: A Population-Based Study,” PLOS ONE 12, no. 8 (2017): e0182145.

4 - Samer Bagaeen and Ola Uduku, eds., Beyond Gated Communities (Abingdon: Routledge, 2015), 1–21.

5 - Kadhim and Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” 135–144;

حميدي والكناني، ”التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية“.

6 - Williams, “Designing Neighbourhoods for Social Interaction,” 196–198.

7 - أحمد سعيد قصاب، عبد الحكيم الحسيني، وهادية موفق الفرا، ”نحو محيط سكني فعّال اجتماعيًا في العمارة السكنية المعاصرة“، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة العلوم الهندسية 35، ع 1 (2013): 251–255؛

Kadhim and Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” 136–139.

8 - Ge et al., “Social Isolation, Loneliness and Their Relationships with Depressive Symptoms,” 3–5.

9 - Kadhim and Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” 140–141.

10 - ياسمين بكير عبد الحميد، هشام عمرو بهجت، أحمد محمد أمين، ورويدة محمد رضا، ”أنماط حياة المجتمعات بالبيئة السكنية للتجمعات العمرانية الجديدة: دراسة ميدانية لمشروعات الإسكان الحكومي“، 54–52 :(2020) 38 Journal of Urban Research.

11 - حميدي والكناني، «التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية»، 57–58.

12 - Kadhim and Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” 136–139.

13 - Kadhim and Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” 142–143.

14 -حميدي والكناني، «التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية»، 60–62.

15- المصدر نفسه،61–62.

16 - Williams, “Designing Neighbourhoods for Social Interaction,” 197–198.

17- قصاب، الحسيني، والفرا، «نحو محيط سكني فعّال اجتماعيًا»، 251–255.

18 - Kadhim and Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” 136–137.

19 - Kadhim and Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” 140–142.

20 - حميدي والكناني، «التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية»، 61–62.

21- Ge et al., “Social Isolation, Loneliness and Their Relationships with Depressive Symptoms,” 3–5.

22 - حميدي والكناني، «التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية»، 58–59.

23 - Ge et al., “Social Isolation, Loneliness and Their Relationships with Depressive Symptoms,” 3–5

؛ حميدي والكناني، «التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية»، 60–62

24 - Kadhim and Shok, “Improving Social Interaction in Vertical Housing,” 142–143.

25 - سناء ساطع عباس ورياض فكرت نجات، «تنمية الأحياء السكنية: دراسة تحليلية للمشاريع السكنية في التوجهات المعاصرة»، المجلة العراقية لهندسة العمارة والتخطيط 15، ع 1 (2019): 81–83.

26 - Kadhim and Shok, "Improving Social Interaction in Vertical Housing," 140–141.

27- Bagaeen and Uduku, Beyond Gated Communities, 1–21; Sarah Blandy, "Gated Communities: A Response to, or Remedy for, Anti-social Behaviour?" in Housing, Urban Governance and Anti-social Behaviour: Perspectives, Policy and Practice, ed. John Flint (Bristol: The Policy Press, 2006), 248–250.

28 - حميدي والكناني، «التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية»، 62.

29 - Kadhim and Shok, "Improving Social Interaction in Vertical Housing," 142–143

؛ حميدي والكناني، «التفاعل الاجتماعي في البيئة الحضرية للمجمعات السكنية»، 60–62.

30 - Ge et al., "Social Isolation, Loneliness and Their Relationships with Depressive Symptoms," 3–5.

الأوليغارشية (حكم القلة)
تعزز الاستبداد وتضعف الديمقراطية

د. هاشم نعمة



تعريف الأوليغارشية

يرد مصطلح الأوليغارشية في الدراسات والأبحاث السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة التي تناقش أنظمة الحكم سواء في البلدان المتقدمة أو النامية، ولكن من زوايا رصد وتحليل قد تتباين بحسب الأنظمة السياسية إن كانت ديمقراطية أو مستبدة، لكنها تتفق على أن هذا المصطلح يرتبط بحكم القلة التي تشرك في منحدرها الطبقي أو الاجتماعي أو السياسي أو هذه الجوانب معا. ويمكن استخدام مفهوم الأوليغارشية عندما ينتقل الحديث من التعريف إلى الدور الذي تلعبه سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

الأوليغارشية مصطلح يوناني الأصل مشتق من كلمتين الأولى oligo وتعني قليل والثانية archy وتعني الحكم أو الحكومة ليصبح المعنى حكم القلة. ظهر هذا المصطلح لأول مرة في كتابات هيرودوت المؤرخ اليوناني، وأشار إليه أرسطو في كتابه السياسة: "عندما تكون السيطرة على الحكومة في أيدي أولئك الذين يملكون الثروات". ويرى أرسطو، أن هذا النظام فاسد، إذ يُفضي إلى حكم أفراد غير أكفاء وغير جديرين بالثقة. وكانت المواطنة في تلك الحقبة تعني المواطنين من الذكور البالغين ولا تشمل النساء والأطفال والأجانب والحرفيين وكل من يقوم بأعمال الخدمة العامة. فالأوليغارشية فئة من السكان أكثر ثراء حتى من الأثرياء العاديين، وتصل إلى مناصب الدولة العليا بطرق رسمية أو تقوم بشرائها بالأموال. واستمرت الأوليغارشية كمصطلح سياسي حتى عصرنا الحاضر وبرزت أكثر بعد تفكك الاتحاد السوفيتي عام 1991 وظهور الأغنياء الروس[1] الذين سيطروا على المفاصل الاقتصادية واكتسبوا عبرها نفوذا سياسيا مباشرا أو غير مباشر.

يشير مصطلح الأوليغارشية كذلك إلى شكل من أشكال الحكم تتركز فيه السلطة السياسية في أيدي مجموعة صغيرة من الأفراد أو العائلات، وغالبا ما يتميزون بثروتهم ونفوذهم. وعلى مر التاريخ، ظهرت

أنظمة أوليغارشية، لا سيما بعد فترات الاضطرابات، حيث يسيطر عدد قليل من الأفراد، مما يؤدي أحيانا إلى حكم استبدادي أو حكم الملكيات.

في الواقع، غالبا ما تكون أنظمة حكم القلة حكرا على عدد قليل من العائلات النافذة. وقد لا تُمارس هذه العائلات سلطتها علنا، بل تُمارسها سرا، من خلال التلاعب السياسي والضغط الاقتصادي على المؤسسات الحاكمة[2] عبر آليات قد تكون متباينة بحسب تباين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

هناك بعض التداخل بين الأوليغارشية، والحكم المطلق، وحكم الأثرياء، والأرستقراطية. فالحكم المطلق يُشير إلى حكم الفرد. أما حكم الأثرياء فيكون في مجتمعات يحكم فيها الأكثر ثراء دون عوائق. وفي الأرستقراطية، يكون الحكم عادة في أيدي النبلاء. مع ذلك، لا يُشترط بالضرورة أن يكون المرء من النبلاء ليُصبح عضوا حاكما في نظام حكم القلة[3]، فيمكن أن ينحدر من عائلات لها نفوذ اقتصادي وسياسي.

حاليا، يستخدم مصطلح الأوليغارشية على نطاق واسع لوصف الأنظمة السياسية الحديثة التي يمارس فيها الأثرياء نفوذا سياسيا غير متناسب. في ظل هذه الأنظمة، يمكن للأوليغارشية أن تتعايش مع المؤسسات الديمقراطية، ولا يشترط أن يشغل الأثرياء مناصب حكومية رسمية للوصول إلى السلطة، وإنما يمكن أن يكون تأثيرهم السياسي الاقتصادي غير مباشر. وكذلك يستخدم هذا المصطلح في البلدان النامية خصوصا في وصف الأنظمة المستبدة التي يكون اقتصادها الوطني ريعيا، حيث يستخدم هذا الريع لتعزيز مواقع الأوليغارشية الاقتصادية والسياسية الداعمة للحكم؛ أي يكون هناك تخادم في المصالح.

لمحة تاريخية

في إيطاليا قديما، كان يُقصد بالحكومة الشعبية حكومة ذات قاعدة شعبية واسعة تضم نسبة كبيرة من المواطنين الذكور البالغين من مختلف المجموعات الاجتماعية والتي يمكن أن تشارك في المجالس الحكومية، وسيكونون مؤهلين لشغل مناصب سياسية وإدارية منتخبة. كانت مثل هذه الحكومات شائعة أكثر في إيطاليا في القرن الخامس عشر أكثر مما في القرن السادس عشر، حيث انحصرت المشاركة في الحكومة في الأنظمة الأوليغارشية في مجموعة ضيقة من أصحاب الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية، غالباً ما تكون وراثية، وقد اعتُبرت هذه الطريقة هي القاعدة. عمليا، معظم الحكومات المدنية في عصر النهضة في إيطاليا كانت مزيجا من الحكومات الشعبية والأوليغارشية. وفي قلب العديد من الأنظمة ذات القاعدة الواسعة، توجد مجموعة أصغر من الرجال الذين يميلون إلى شغل مناصب سياسية مهمة على نحو متكرر أكثر من نظرائهم، والذين تحظى آراؤهم بوزن أكبر في المجالس. من ناحية أخرى، يمكن الحد من نفوذ الأوليغارشية من خلال المؤسسات أو الإجراءات أو التقاليد التي توفر فرصا لأولئك الذين خارج الدائرة المغلقة للتعبير عن آرائهم بقبول أو رفض السياسات والمقترحات أو المشاركة في العمليات الانتخابية للمناصب التي لم يكونوا يطمحون إلى شغلها بأنفسهم. في كلا النظامين، يجري استحضار مفهوم الشعب

في أوقات الأزمات والاضطرابات السياسية بوصفه تجسيدا للسلطة الدستورية والأخلاقية التي استند إليها النظام السياسي[4]. وهذا الاستحضار يكون في الغالب من أجل تجاوز تلك الأوقات الصعبة لا الإيمان بأن الشعب مصدر السلطة.

تؤكد وقائع التاريخ أن إنكلترا في عصر أسرة تيودور (1485 - 1603) لم تملك جيوشا ضخمة، ولا إدارات بيروقراطية متوغلة في المجتمع المدني، بل لم يكن باستطاعة ملوك الإنكليز أن يحكموا إلا من خلال التعاون مع الوجهاء المحليين الأقوياء وأعيان المقاطعات البرلمانية وأوليغارشية التجار في لندن[5].

ولا توجد في بريطانيا وزارة في الفترة 1722 - 1783، كان بإمكانها تجاهل آراء أكبر مجموعتين تجاريتين للضغط في مجلس العموم، والمتمثلة في مصالح شركة الهند الشرقية وشركة الهند الغربية. على الرغم من أن الوضعية تغيرت على نحو حاسم تحت حكم الملك جورج الثالث. وكانت مصالح شركة الهند الغربية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الثامن عشر، تتكون من مزارعي قصب السكر أو من مزارعين سابقين، والتجار الذين يتعاملون مع منطقة الكاريبي، ومن مالكي الأراضي الأثرياء الغائبين. وفي المجلس التشريعي، عادةً ما يكون هناك على الأقل ثلاثون من مدراء البنوك أو الشركات، وأعضاء المجلس البلدي، ويشغل تجار لندن الآخرون أو الحرفيون مقاعد المقاطعات الإقليمية، ويمكن لشركات المدينة، بالتعاون مع أعضاء البرلمان المتعاطفين، تنظيم وابل من الالتماسات والخطابات والتعليمات الداعمة[6] لمصالح القلة الاقتصادية والسياسية المسيطرة على الحكم.

في هولندا تاريخيا لم تكن الدولة قوية، نظرا إلى أن الحكومة الهولندية كانت مجرّد اتحاد فدرالي لأوليغارشيات التجار، على الرغم من دورها في نشوء الاقتصاد الرأسمالي العالمي[7]، والذي عزز هذا الدور هو أنها كانت من الدول الاستعمارية المهمة في وقته، قبل أن تتجاوزها بريطانيا وفرنسا في هذا الجانب.

خلفية نظرية

في العقد الأخير، تزايدت أهمية تطبيق مفهوم الأوليغارشية على كوميونات العصور الوسطى، بالتوازي مع ظهور انتقادات لنظرية النخبة، وأصبح ذلك أيضا موضع جدل. الأدلة لصالح وجود الأوليغارشية أو ضد وجودها في كوميونات أواخر القرون الوسطى ترافقت وترابطت على نحو وثيق مع تفسير الصراع بين النبلاء والشعب[8] والذي أدى إلى نهاية عصر الاقطاع وصعود البرجوازية ومن ثم الرأسمالية.

هيمن عمل روبرت ميشيلز المتمثّل في "القانون الحديدي للأوليغارشية" فعلياً على المنظرين وغالبية المؤرخين منذ أوائل القرن العشرين. وتطورت من أعمال ميشيلز وآخرين "نظرية نخبوية للديمقراطية"، ولم تُستخدم هذه النظرية فقط لوصف النموذج السياسي-السوسيولوجي، ولكن أيضاً لتبرير تفسير معين للديمقراطية الحديثة وحتمية النخبوية. في هذا النموذج، يقتصر صناع القرار على النخب، وينتج فقط عن الضغط السياسي العام والتغيير السياسي استبدال نخبة بنخبة أخرى. ويقتصر دور الجماهير على اختيار النخب في الانتخابات العامة. لكن هذا يعني أن حكومات النخب يجب

أن تحافظ بالتالي على موافقة المحكومين، وهو ما تفعله من خلال توسيع سلطة الدولة لتشمل المنظمات غير الحكومية (المجتمع المدني) وممارسة ما أسماه أنطونيو غرامشي بالهيمنة وما يسميه المنظرون المعاصرون بالتعددية[9] للتقليل من وصمة الهيمنة في المجتمعات الرأسمالية المتطورة.

دعم بعض علماء الاجتماع مثل ميشيلز، حكم الفرد بوصفه ردا ناجحا على نشوء أوليغارشيا البيروقراطية المحافظة والمعوقة للتغيير. وكانت حجته أن الجمهور يقوده فرد، بغرض التغيير الاجتماعي، وأن الكارزما ضرورية لصعود قائد استثنائي يعبئ الجماهير من أجل المشاريع العظمى، وهذه الحركة الجماهيرية المقودة من فرد هي فقط التي يمكنها الانتصار على المؤسسات الأوليغارشية المحافظة الكبرى التي نشأت في المجتمع المعاصر. وفي رأيه المتأثر بماكس فيبر، تتحول البيروقراطيات الحديثة بالضرورة إلى أوليغارشيا[10]. وهذه نقطة يدور أيضا حولها الجدل.

أسفر عقد الستينيات من القرن العشرين عن أزمة في نظرية التعددية polyarchical theory ، على الرغم من أن الأزمة نتجت في المقام الأول من طرح مبررات إضافية لحكم النخبة. ولقد تركت هذه الحالة إرثا من الانتقادات النظرية، تمثلت مثلا في ما كتبه كليفورد دوراند ووليام روبنسون. ودوراند في هجومه على نموذج الأوليغارشية-التعددية، وادعاؤه بأهمية "الموجات الشعبية" مثل تلك التي حدثت في عقد الستينيات، يقدم رسالة مختصرة جدا لكنها في الواقع مراجعة ثاقبة لفهم عمل ميشيلز المتمثّل في "القانون الحديدي للأوليغارشية"، موضحا أن ميشيلز كان في الواقع يصف نزعة أو ميلا، ولا يقدم قانونًا لا رجعة فيه. علاوة على ذلك وصف ميشيلز ما اطلق عليه دوراند "نزعة معادية للديمقراطية"، بأنها تتمثّل في موجات متجددة باستمرار من معارضي الهيمنة الأرستقراطية. في نظرية ميشيلز الصراع أمر لا مفر منه، ولكن الهيمنة المستمرة لا تكون لأي من الأرستقراطية أو الديمقراطية. هذا التفسير لنظرية الأوليغارشية يتناقض على نحو حاد مع "مدرسة الإجماع" التي هيمنت على التأريخ الأنكلو-أمريكي، في تأكيدها على حكومة تتشكل من نخبة ملتزمة بالصالح العام، والتي قللت من أهمية النزاع[11]، أي الصراع السياسي والطبقي والاجتماعي.

يشير جون نجمي إلى أن معارضي الأوليغارشية يرون أن السلطة تمارس من جانب نخبة من عائلات كبيرة، ومن خلال الروابط الشخصية والعائلية، المتمثلة بالدم والزواج والصداقة، ومن خلال روابط الرعاية والالتزام والتبعية، والحماية وفي شبكات الأحياء والفصائل التي نظمت هذه الروابط المختلفة في مجموعات يمكن التعرف عليها ولديها القدرة في التأثير على سلوك أعضائها وسلوك المجموعات الأخرى أو تعديله[12].

لم يكن صوت نجمي فقط الاحتجاج الحديث ضد سيطرة مدرسة الأوليغارشية. فقد كان رد فعل ماسيمو فاليراني أيضا ضد هيمنة الأرثوذكسية الأوليغارشية. وينصب تركيزه على البيئة الفكرية التي رعت مدرسة الأوليغارشية. وفي وضعها في سياق النظرية السياسية الإيطالية للقرن العشرين، وعلم الاجتماع، جرى تسليط الضوء على

التطور المفاهيمي الرئيس من قبل المنظرين، خصوصا فيلفريدو باريتو وغايتانو موسكا، المتعلق بالثنائية بين السلطة والمؤسسات السياسية والسياسة باعتبارها هيمنة دائمة من جانب النخب المتغيرة، مع فصل الصراع السياسي والتغيير عن الصراع الطبقي[13]. وهذا الفصل لا يمكن إثباته لا في الدول الرأسمالية المتطورة ولا حتى النامية منها.

الولايات المتحدة الأمريكية

يرى المفكر دوت. ب في كتابه "تداعي النظام الكولنيالي أو أزمة الحضارة الغربية" الذي صدر عام 1952، - من أهم الكتب العلمية التي نشرت بعد الحرب العالمية الثانية لتحليل الموقف السياسي العالمي - أن "أوليغارشيات (حكومة القلة) رؤوس الأموال المالية في أمريكا وأوروبا الغربية اليوم، تصدت لقيادة الرجعية العالمية في محاولاتها اسناد النظام القديم بالعنف والإكراه ضد الحركات الشعبية في كل العالم. ولم تتردد في اسناد جميع النظم الرجعية، بما فيها الأنظمة التي جرفتها الرأسمالية نفسها، كالأنظمة الإقطاعية، في كل انحاء المعمورة؛ وبهذا لم تعد العنصر التقدمي في الحضارة العالمية، بل العنصر المخرب، الهدام، البربري، في العالم المعاصر، العنصر الذي لا يتورع عن ابتذال الثقافة وتشويه العلم وتسخيرهما لأغراض التخريب الذري الماحق، بل لإبادة البشر بمجموعهم. وما هذه الأسطورة الجديدة، اسطورة (الحضارة الغربية) إلا هذا الستار المهلهل وهذا الشعار الإجرامي لتقديس هذا التفسخ العام للرأسمالية..."[14]. نقول على الرغم من تغير الظروف فإن جوهر ما ورد لم يتغير إلا في بعض جوانبه ومن الناحية الشكلية، فما زالت الرأسمالية متوحشة، وتبحث عن تراكم الأرباح بغض النظر عن النتائج التي تتعارض مع سيادة الدول واستقلالها والأهداف الإنسانية الكبرى وحقوق الإنسان وكرامته والحفاظ على البيئة. على الرغم من الدور المؤثر الذي تتمتع به الأوليغارشية اقتصاديا وسياسيا في الولايات المتحدة طيلة تاريخها الحديث، لكن اسطع مثال لذلك قد تمثّل في فترة حكم دونالد ترامب خصوصا الفترة الثانية التي بدأت منذ عام 2025؛ إذ بنت إدارته علاقات وثيقة مع رموز الأوليغارشية الأمريكية وامتداداتها الخارجية تبادلا للمصالح الاقتصادية والسياسية.

فقد ضمّ حفل تنصيب الرئيس دونالد ترامب لولاية ثانية، نخبةً من المسؤولين الحكوميين والمشرعين والمرشحين للوزارات. لكنّ ما كان غير مألوف هو حضور مجموعة من الملياردیرات الذين تصدّروا المشهد. فقد جلس مارك زوكربيرج، الرئيس التنفيذي لشركة ميتا، وجيف بيزوس، مؤسس أمازون، وسوندار بيتشاي، الرئيس التنفيذي لشركة غوغل، وإيلون ماسك، الرئيس التنفيذي لشركتي تسلا وسبيس إكس، في الصف الذي يلي عائلة ترامب وأمام العديد من مرشحيه للوزارات. ويرى كثيرون أن هذا الحضور البارز للملياردیرات، وما بدا من استعداداتهم لتنصيب ترامب، يُشير إلى اتفاق جديد بين النخب الاقتصادية الأمريكية والرئيس. ولا يقتصر خطر هذا الاتفاق على ديمقراطية البلاد فحسب، بل يمتدّ ليشمل النخب الاقتصادية التي تُبرمه. كما أنه يُقرّب الولايات المتحدة من دول أخرى تُعدّ فيها التحالفات بين قادة الحكومات وأقطاب الأعمال أكثر شيوعًا[15].

لكن مثل هذه التحالفات مع رموز الأوليغارشية قد تكون محفوفة بالمخاطر. فقد سقط ماسك من حظوة ترامب بعد خمسة أشهر فقط من توليه ولايته الثانية، إثر انتقاده مشروع قانون الإنفاق التاريخي الذي أصدره ترامب. وعلى الرغم من أنه خرج في نهاية المطاف سالما إلى حد كبير، إلا أن ترامب أبدى استعدادا واضحا لممارسة ضغوط مالية شديدة على رجل الأعمال، مهدداً بإلغاء العقود الحكومية الممنوحة لشركات ماسك، ما أدى إلى انخفاض أسهم تسلا بنسبة 14 في المئة. لا شك في أن ترامب يُقدّر مبادرات قادة الأعمال، بل وقد يكافئهم بطرق مُجزية. لكن هؤلاء القادة لا يتسامحون مع المشاريع الخاصة، إذا تعارضت مع جهودهم في تجميع سلطتهم السياسية والاقتصادية والحفاظ عليها[16]. وهذا المنحى يقود إلى ممارسة المزيد من الإجراءات التي تتسم بالتسلط والاستبداد في نظام ديمقراطي يُفترض أن لا تمارس فيه مثل هذه الإجراءات بهذا المستوى من التغول.

تُشكل الأوليغارشية حلقة مفرغة؛ إذ يمتلك الأثرياء نفوذا سياسيا، مما يُفضي بدوره إلى سياسات تُزيد من ثرواتهم. وبمرور الوقت، تتسرب موارد الدولة من المشاريع التي تخدم المصلحة العامة إلى جيوب الأوليغارشية المتضخمة. يُقدم ميشيل، الخبير في غسيل الأموال والتهرب الضريبي والجرائم المالية الأخرى، نقدا لاذعا لكيفية تشكل الأوليغارشية في الولايات المتحدة. ففي عام واحد، 2024، أضافت 19 أسرة أمريكية تريليون دولار إلى ثرواتها، أي أكثر من الناتج المحلي الإجمالي لسويسرا في ذلك العام. ويستغل الأوليغارشيون الأمريكيون، مثل جاريد كوشنر وإيلون ماسك وبيتر ثيل، القنوات المالية السرية والفساد للإضرار بالمصالح الوطنية للولايات المتحدة وإضعاف ديمقراطيتها على نحو مباشر. ويختتم ميشيل بمراجعة شاملة للسياسات اللازمة للتراجع عن هذا التطور الضار، بدءا من الخطوات البسيطة، مثل إحياء سجل الشركات الوهمية وإنفاذ القوانين الحالية، بما في ذلك قانون ممارسات الفساد من جانب الشركات الأجنبية، وصولا إلى أكثرها طموحا، مثل سن ضريبة على ثروة الأثرياء[17]، علما أن النقطة الأخيرة كثيرا ما تكون ميدانا للمزايدات الانتخابية الرئاسية، لكسب الشركات الكبرى بالوعد في تخفيض الضرائب عنها كي تدعم الحملات الانتخابية بملايين الدولارات، وتبني علاقة شراكة اقتصادية وسياسية مع الإدارة الجديدة.

روسيا

كان لينين في كتابه الدولة والثورة يطمح ببيروقراطية منتخبة ودولة تشكّل مرحلة انتقالية إلى الشيوعية، لكن واقع الدولة الاشتراكية الذي نشأ كان معاكسا تماما، فلا السلطة السياسية كانت منتخبة ولا البيروقراطية، وبدلا من أن تكون الاشتراكية مرحلة انتقالية نحو زوال الدولة، تضخم حجم البيروقراطية ودورها. وفي الدول الاشتراكية تحديدا، نشأت أهم أشكال تحوّل البيروقراطية إلى أوليغارشيا[18] حزبية - سياسية، وهي من أهم الأسباب التي قادت إلى فشل هذا النموذج على الرغم مما حققه من منجزات خصوصا على صعيد الضمان الاجتماعي والاقتصادي. شكل تفكك الاتحاد السوفيتي عام 1991 علامة فارقة في تسليط الضوء على الدور

الذي تلعبه الأوليغارشية اقتصاديا وسياسيا، وفي التأثير على توجهات الدولة وسياستها الداخلية والخارجية. فبعد خصخصة الأصول المملوكة للدولة، برزت طبقة من الأوليغارشية الروسية في عالم الأعمال. سيطرت على قطاعات كبيرة من الاقتصاد، لا سيما في قطاعات الطاقة والمعادن والموارد الطبيعية. وحافظ العديد من هؤلاء الأفراد على علاقات وثيقة مع المسؤولين الحكوميين، وخاصة الرئيس، ما دفع البعض إلى وصف روسيا الحديثة بأنها حكم أوليغارشي متشابك مع الدولة[19]، واستمر هذا الوصف إلى الوقت الحالي.

فقد قرر الرئيس بوريس يلتسين عام 1993 إرسال الدبابات لقصف البرلمان وحجز قادة المعارضة، مما مهد السبيل أمام الخصخصة الواسعة النطاق التي خلقت الأوليغارشيات سيئة الذكر التي تحكمت في البلاد[20]. ويشير الباحث الاقتصادي صالح ياسر الى انه: ''نشأت فئة من أصحاب المليارات تملك 70 - 80 في المئة من الدخل الوطني في حين لا تشكل سوى نصف من الواحد في المئة من مجموع السكان. إن هذه الشريحة الضيقة التي حصلت على امتيازاتها من يد السلطة بدأت تطمح الى دمج الثروة والنفوذ السياسي فقاد ذلك الى نشوء (طبقة اوليغارشية) شبيه بتلك التي عرفتها مصر أثناء (الانفتاح الساداتي) أو التي تكونت في إندونيسيا أو كوريا الجنوبية'' [21].

في عام 1996، خوفًا من احتمال فوز الحزب الشيوعي، موّلت الأوليغارشية، ولا سيما (المصرفيون السبعة)، حملة إعادة انتخاب بوريس يلتسين ودعموها على نحو كبير، واستمروا في التأثير عليه وممارسة نفوذهم على حكومته خلال السنوات التالية[22]، مما جعله ضعيفا أمامهم، وهذا قاد إلى ضعف النظام عموما، وتفشي الفساد المالي والإداري والسياسي في مفاصله.

تعمق الفساد على نحو كبير، بعد الانتخابات البرلمانية والرئاسية التي جرت في الفترة 1995 - 1996. فالرئيس بوريس يلتسين أحاط نفسه خلال تلك الفترة بمجموعة كبيرة ومؤثرة من رموز (الأوليغارشيا) المالية الجديدة. وتنامت تأثيرات ما سمي بـ (عائلة يلتسين) التي كان موضع اهتمامها الرئيس هو توسيع ثروتها الخاصة. وأدت النزاعات بين (الإصلاحيين الشباب) والأوليغارشية المالية المدعومة من يلتسين إلى تغيرات متلاحقة في الحكومة الإتحادية أفضت إلى إقالة الحكومة بمجملها دون أن يعلن يلتسين عن الأسباب الدافعة لذلك، والتي شكلت صدمة للجميع. وإضافة إلى ذلك استمر النزاع بين البرلمان الذي كان تسيطر عليه أغلبية شيوعية من جهة وبين الحكومة ويلتسين من جهة أخرى[23].

خلال تسعينيات القرن الماضي، اعتمد يلتسين على نحو متزايد على الأوليغارشية التابعة له في الحكم، ونتيجة لذلك، اكتسبت نفوذا أكبر على الاقتصاد الوطني والسياسة الاقتصادية ومراكز صنع القرار السياسي. وعندما تولى فلاديمير بوتين رئاسة روسيا عام 2000، شرع في مهمة كبح جماحها. وكما وصف عالم السياسة جوردان غانز-مورس، فقد أفسحت ''العصابات'' التي سادت في التسعينيات المجال أمام ''الرجل''. وخلال ولاية بوتين الرئاسية الأولى، واجه كل من بيريزوفسكي وفلاديمير غوسينسكي وفلاديمير بوتانين تحقيقات، وفي كثير من الحالات، صودرت أصولهم من قبل جهاز

الدولة الذي استعاد قوته. وفي عام 2003، سجن بوتين خودوركوفسكي - الذي كان قد استحوذ على شركة نفط وغاز من الحكومة، وكان من بين أغنى رجال العالم - بتهم الاحتيال والتهرب الضريبي. فسّر كثيرون هذه الخطوة بأنها (إعلان حرب) على الأوليغارشية. وبدأت الشركات التي كانت تُسيطر على الدولة في السابق تخشى ذلك. لكن بنزع أصول أوليغارشية ما بعد الحقبة السوفيتية، استطاع بوتين إعادة ملء خزائن الدولة وتوزيع الغنائم الإضافية على نخبته الحاكمة الجديدة[24]. وبحلول نهاية العقد الأول من الألفية الثانية، كان بوتين قد أنشأ طبقة جديدة من الأوليغارشيين تتألف غالبا من أصدقائه وزملائه الشخصيين، واستمر في قمع معارضيه. ووفقاً لإذاعة NPR، فقد "غيّر الشخص الجالس على الكرسي، لكنه لم يغيّر الكرسي"[25]، أي جرى استبدال الأفراد وليس الحد من نفوذ الأوليغارشية كطبقة اقتصادية - سياسية إذا جاز التعبير.

هنغاريا

في هنغاريا، عدّ استخدام القانون والمال مسألتين أساسيتين بالنسبة إلى الحكام المستبدين؛ إذ من ركائز نظام رئيس الوزراء السابق فكتور أوربان، والتي تميزه عن النظام البولندي الذي يتشابه معه في جوانب عديدة، إنشاء ما يُطلق عليه عالم الاجتماع الهنغاري بالينت ماغيار "دولة المافيا". لا تقوم هذه الدولة على الفساد العادي، كما في تبادل الأموال سرا، بل على الاستخدام السياسي لهياكل الدولة والتلاعب بما يبدو ظاهريا وسائل قانونية: لا سيما عمليات الشراء العامة التي ويا للعجب، لا يتقدم فيها سوى مُزايد واحد. وقد أدّى هذا إلى رعاية الحكومة المستمرة لمشاريع مُبالغ في تكلفتها - خاصة في قطاع البناء - لإثراء خزائن الأوليغارشية المُوالين للنظام؛ ويجري تقديم العديد من هذه المشاريع إلى الاتحاد الأوروبي للحصول على التمويل[26] الذي جرى تجميد أجزاء كبيرة منه من جانب الاتحاد الأوروبي نتيجة هذه السياسات، وتحاول الحكومة الجديدة إعادته، علماً أن هذا التمويل هو الأعلى في هنغاريا، نسبةً إلى الناتج المحلي الإجمالي.

من خلال هذه الآليات، يتم ضبط ما وصفه ماغيار بـ(العائلة السياسية) من الموالين لأوربان، وفي المقابل، يقدمون خدمات للنظام مثل الاستحواذ على شركات الإعلام في البلاد، والتي تبقى بذلك موالية لحزب فيدس الحاكم. حتى أبشع أشكال السرقة التي يرتكبها هؤلاء الأوليغارشيون لا تجري مقاضاتهم، لأن المدعي العام عضو مخلص في حزب فيدس[27]. وبهذا فإن استقلالية القضاء قد تلاشت عمليا. وهذه من سمات الأنظمة التي تحكمها أحزاب يمينية متطرفة ذات توجهات فاشية.

الدول النامية

في الدول النامية توصف البريتورية الأوليغارشية – مصطلح روماني يصف الحرس البريتوري في روما، الذي كان يتدخل في السياسة فيُنصّب القياصرة ويعزلهم- حين تحكم البلاد طغمة من أصحاب النفوذ، من الضباط أو غيرهم، ويأخذ الصراع على السلطة شكل انقلابات بلاط يُستبدل فيها حاكم من الطغمة نفسها بحاكم آخر. ويأتي التهديد الأكبر لهذه الطغمة من نشوء فئة الضباط المتعلمين، وتوسع الفئات الاجتماعية التي

ينحدرون منها، لتشمل فئات اجتماعية لم يصل أبناؤها إلى هذه المراتب في الماضي. الضباط في هذه الحالة هم أكثر الفئات حداثة، إضافة إلى المثقفين، ويتحالفون مع الإنتليجنسيا ضد الأوليغارشية. هنا يجري الانتقال من انقلابات البلاط إلى الانقلابات الراديكالية أو الإصلاحية. وهكذا يمكن، على سبيل المثال، صوغ الفرق بين الصراعات النخبوية في العراق قبل عام 1958 وبعده[28]، أي قبل ثورة 14 تموز وبعدها. وهذه الحالات أكثر ما نجدها في البلدان النامية التي لا تملك إرثا من التحولات الاجتماعية-الاقتصادية والثقافية التي تقود إلى بناء نظام ديمقراطي، والتي خرجت من الحكم الاستعماري ونالت استقلالها خصوصا في عقد الستينيات من القرن الماضي.

في الفلبين مثلا، يُجسّد هاميلتون-باترسون، وهو مغترب إنجليزي عاش عشرين عاما في الفلبين يأس عامة الفلبينيين خلال حكم فرديناند ماركوس. ويقول إن هذا العالم يحكمه بقسوة سياسيون أنانيون، يخضعون بدورهم لسيطرة أوليغارشية محلية وأمريكا المتعجرفة. ويُضيف أيضا أن أمريكا التي أعمتها معاداة الشيوعية لم تُسهم إلا في تشجيع هذا السلوك[29]. ولم يُسعف هذا الدعم ماركوس فقد سقط حكمه نتيجة انتفاضة شعبية عام 1986 وفر من البلاد إلى هاواي.

العراق

بعد تأسيس الدولة العراقية في عام 1921، نتيجة تفكك الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى 1914 - 1918، واحتلال بريطانيا للعراق، فإنها أرادت أن تؤسس لقاعدة اجتماعية - اقتصادية تخدم مصالحها بالمقام الأول. فعملت على دمج الأرستقراطية القديمة بالبناء الإداري الذي جرت إعادة بنائه مع ملاحظة تراجع نفوذ العنصر التركي. وفي الفقرة الآتية يشير حنا بطاطو إلى الآلية التي حكمت هذا التوجه: "في العقود المبكرة من العهد الملكي - في العشرينات والثلاثينات - كانت العناصر المختلفة لطبقة ملاك الأراضي المسيطرة اجتماعيا - المشايخ والأغوات العشائريون و(السادة) العشائريون والحضريون والمسؤولون (الأرستقراطيون) والضباط الشريفيون السابقون – تتنافس فيما بينها على السلطة والجاه والملكية. ولكن في العقدين الأخيرين من العهد الملكي – في الأربعينات والخمسينات – رصت هذه العناصر صفوفها مبينة مصالحها المشتركة في المواضيع الهامة، أي في أمور مثل اعفاء طبقتهم من الضرائب والاستبعاد الفعلي للطبقات عن المناصب المهمة في الدولة، ثم، وقبل أي شيء آخر، في الدفاع عن النظام الاجتماعي الذي كانوا يجنون الفائدة منه جميعا. وتمثلت الآليات التي كانت تنسّق عملهم بمجلس الوزراء والبرلمان، اللذين كانت لهم عليهما السيطرة المطلقة"[30]. ويمكن أن نطلق على هذه الطبقة التي تتكون من الملاك والسياسيين وعائلات محددة مصطلح الأوليغارشية، لأنها تشترك في سمات عديدة اشارت إليها الدراسات التي تناولت هذا الجانب، وخصوصا في البلدان النامية. وقد تقوضت القاعدة الاقتصادية والاجتماعية لهذه الطبقة بعد ثورة 14 تموز 1958، نتيجة الإجراءات التي اتخذتها حكومة الثورة بقيادة عبد الكريم قاسم، وخصوصا سن قانون الإصلاح الزراعي عام 1958 الذي قوض القاعدة

الاقتصادية للإقطاع في الريف العراقي. وفي عهد حكم حزب البعث نشأت شرائح طفيلية وبيروقراطية خصوصا في الثمانينيات والتسعينيات نتيجة السياسات الفاشلة التي تبناها النظام على الصعيد الاقتصادي والسياسي والحروب العبثية التي شنها.

بعد احتلال العراق عام 2003، مهدت قرارات الحاكم المدني للعراق بريمر خصوصا إقرار الخصخصة لخلق شريحة أوليغارشية جديدة؛ إذ يذكر صالح ياسر: جرى "التأثير في العلاقات الاجتماعية المحلية من خلال العمل على (خلق) فئات اجتماعية تستفيد من حزمة السياسات التي يتضمنها مشروع السيد بريمر. إن التطبيق (الناجح والمضمون) لهذا المشروع يستحث، من بين أمور عديدة، تفكيك التحالفات الاجتماعية (التقليدية) والعمل على خلق الشروط لنشوء وتطور تحالفات اجتماعية جديدة، تتضمن تلك القوى الاجتماعية التي تدافع عن تلك الحزمة من السياسات الجديدة، وتكون اساسا أو قاعدة متينة للسلطة الجديدة، ولها مصلحة فعلية في استمرار تنفيذ (استراتيجية الانتقال) بحسب وصفة السيد بريمر"[31]. وعلى الرغم من أن الخصخصة لم تطبق على نطاق واسع، لكنها ساهمت في نشوء فئات اجتماعية وطبقية وسياسية تستفيد منها.

في سياق إنشاء الولايات المتحدة نظاما قائما على المحاصصة الطائفية - الإثنية - كي تكون الخيوط في يدها - التقت مصالحها مع مصالح الأحزاب الدينية والقومية التي وظفت هذا النظام لتكريس سيطرتها السياسية والاقتصادية بحجة تمثيل المكونات. وخلقت حالة من الزبائنية وشراء الذمم من خلال الفساد المالي والإداري والسياسي وعبر امتلاك المال والسلاح والنفوذ عملت على تدوير نفسها في كل انتخابات وإعادة إنتاج ذات القلة الحاكمة وان تغيرت بعض وجوهها. وبات هناك ترابط ومصالح مشتركة بين الأحزاب السياسية وأذرعها الاقتصادية والمسلحة مع الشرائح الطفيلية والبيروقراطية، وبهذا نشأت أوليغارشية تترابط مصالحها محليا وإقليميا ودوليا، ومن مصلحتها استمرار النظام الحالي واضعاف الدولة ومؤسساتها الدستورية وجعل قرار الحرب والسلم خارج سيطرة الدولة، بيد الفصائل المسلحة وخصوصا في الحرب العدوانية الأخيرة التي شنتها الولايات المتحدة على إيران.

وفي ميدان السلطة القضائية، وبعد عام 2003، بدلا من الصراع من أجل حيادية القضاء واستقلاليته عن السلطة التنفيذية، سواء كانت استبدادا فئويا "أوليغارشية" أم فرديا "أوتوقراطية" مثل الرئيس أو الدكتاتور، سيتحول الصراع داخليا من أجل موضوعية القضاء وحياديته تجاه المصالح الشخصية للقضاة أنفسهم، أي الانتقال من الأوليغارشية السياسية أو الحزبية إلى أوليغارشية القضاة داخل مواقع السلطة القضائية. وبدلا من مقاومة رئيس السلطة التنفيذية عادة الذي يهيمن على الدولة كلها، سيكون على القضاء مقاومة القاضي الدكتاتور رئيس السلطة القضائية الذي يهمين على السلطة القضائية. يمكن القول إنه كان تسييس القضاء مقابل استقلاليته، وكلما تمتّع القضاء بدرجة أكبر من الاستقلالية، تكرّس بوصفه سلطة دستورية. خصوصا إذا كانت هذه الاستقلالية مفرطة على نحو تجعلها غير مسؤولة وغير خاضعة للرقابة أو المحاسبة من السلطات الأخرى[32]. وهذه

الحالة لا يمكن إصلاحها إلا من خلال تعديل الدستور لتكون السلطة القضائية أكثر شفافية وخاضعة للرقابة.

هذه الأوليغارشية كرسها الدستور عام 2005 رسميا عبر حصر ترشيحات الأعضاء البارزين في مجلس القضاء (تحديدا رئيس محكمة التمييز ونوابه ورئيس جهاز الادعاء العام ورئيس هيئة الإشراف القضائي) بمجلس القضاء نفسه، وهذا ما يجعلها تدور في حلقة بيروقراطية مقفلة على فئة محددة بعينها في نص يخرق مبادئ الديمقراطية في شفافية تداول المناصب والمساواة أو تكافؤ الفرص في الترشح للوظائف العامة[33]. وهذه تعد من أكبر مثالب السلطة القضائية والتي تُضعف الثقة بها، ولا تكون ملاذا لوقف خرق الدستور - جرى خرقه في العديد من المرات - سواء من السلطة التنفيذية أو التشريعية.

الهوامش

1 - توفيق عبد الحافظ توفيق، "الأوليغارشية القضائية في الولايات المتحدة"، مجلة الرافدين للحقوق، المجلد 26، العدد 93، 2025، ص 192-193.

2 - Oligarchy | Social Sciences and Humanities | Research Starters | EBSCO Research.

3 - Ibid.

4 - Christine Shaw, Popular Government and Oligarchy in Renaissance Italy (Leiden/ Boston: Brill, 2006), p. I.

5 - عزمي بشارة، مسألة الدولة: أطروحة في الفلسفة والنظرية والسياقات، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023، ص 206.

6 - Geoffrey Holmes and Daniel Szechi, The Age of Oligarchy Pre-industrial Britain 1722-1783, London / New York: Longman, 1993, pp. 49-50.

7 - بشارة، مسألة الدولة، ص 206.

8 - Sarah Rubin Blanshei, Politics an Justice in Late Medieval Bologna (Leiden/ Boston: Brill, 2010), p. 70.

9 - Ibid., , p. 69.

10 - بشارة، مسألة الدولة، ص 234-323.

11 - Blanshei, pp. 69-70.

12- Ibid., p. 71.

13 - Ibid., p. 72.

14 - دوت ب، "تداعي النظام الكولنيالي أو أزمة الحضارة الغربية"، تلخيص إبراهيم كبة، الثقافة الجديدة، العدد 2، كانون الأول 1953، ص 108.

15 - Christopher Hartwell and Tricia D. Olsen, ''The Disposable Oligarchs'', Foreign Affair, 28 April, 2026.

16- Ibid.

17- United States of Oligarchy: How America's Wealthiest Ally With Dictators, Weaken the U.S., and Destroy Democracy, Reviewed by Jessica T. Mathews, Foreign Affair, 18 August, 2026.

18 - بشارة، مسألة الدولة، ص 201.

19 - Oligarchy - Wikipedia

20 - صالح ياسر، بعض تجارب الخصخصة في أمريكا اللاتينية: المسيرة الصعبة للانتقال من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، موقع الطريق، yaser73.pdf.

21 - صالح ياسر، "عملية رفاهية العراق" بين الصخب الأيديولوجي وحقائق الواقع الصارمة: ملاحظات أولية حول المشروع الاقتصادي لسلطة الاحتلال"، طريق الشعب"، 26-20/ تموز 2003، الملحق الاقتصادي للعدد ذاته.

22 - Oligarchy - Wikipedia

23 - صالح ياسر حسن، الخصخصة و"الإصلاحات الاقتصادية" بين خيبات العقيدة ورهانات الواقع، بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2016، ص 326-325.

24- Christopher and Olsen.

25 - Oligarchy - Wikipedia

26 - Jan-Werner Müller, ''How Autocrats Endure: Viktor Orban and the Myth of the Self-Destructing Strongman'', Foreign Affairs, 19 April, 2022.

27 -Ibid.

28 - عزمي بشارة، الجيش والسياسة: إشكاليات نظرية ونماذج عربية، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017، ص 58-56.

29 - America's Boy: The Rise and Fall of Marcos and Other Misadventures of U.S. Colonialism in the Philippines Reviewed by Lucian W. Pye, Foreign Affairs, 1 November, 1999.

30 - حنا بطاطو، العراق، الكتاب الأول، ترجمة عفيف الرزّاز، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1990، ص 30-29.

31 - صالح ياسر، طرق الشعب، 20|26 تموز 2003.

32 - فراس مكية، "السلطة القضائية في العراق: إشكاليات الاستقلالية غير المقيدة"، حكامة، العدد 6، المجلد 3، (ربيع 2023)، ص 95.

33 - المصدر نفسه، ص 101.

الصحة والبيئة والتغير المناخي والعدالة المناخية

د. كاظم المقدادي



تمهيد

يشهد العالم أجمع تفاقم أزمة المناخ العالمي على نحو متسارع، مقرونة بإتساع وإشتداد المشاكل البيئية وتداعياتها الخطيرة. وتحولت التغيرات المناخية التي يعيشها العالم حالياً الى واحدة من أخطر المشكلات البيئية الساخنة، وواحدة من أبرز التحديات الرئيسية التي تواجه البشرية بتداعياتها الإقتصادية - الإجتماعية والصحية والنفسية والأمنية، المهددة لحاضر ومستقبل كوكبنا.

إدراكاً لخطورة المشكلة وتداعياتها عالمياً، حذرت الأمم المتحدة من ان العالم أمام لحظة حاسمة، نظراً لسعة الآثار العالمية لتغير المناخ من حيث تغير أنماطه وسخونة حرارة الجو، والجفاف، والتصحر، والعواصف الغبارية، المهددة للإنتاج الغذائي، وارتفاع منسوب مياه البحر، التي تزيد من خطر الفيضانات الكارثية، وحرائق الغابات الرهيبة، وإنتشار الأمراض والأوبئة وتزايد معدلات الوفيات.

وأعلنت (المنظمة العالمية للأرصاد الجوية) التابعة للأمم المتحدة، في تقرير حديث لها، صدر في 24 /3 /2026: "لا يوجد مجال كبير للتفاؤل بشأن حالة المناخ العالمي"، وحذرت من "أن المؤشرات الرئيسية مستمرة في التدهور".

من جهته، وصف الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش الوضع القاتم بأنه "حالة طوارئ"، وان "كوكب الأرض يتم دفعه إلى ما وراء حدوده"[1].

بالمقابل، ورغم كل الكوارث، ما يزال ثمة من لا يريد ان يدرك أن الاعتماد المفرط على الوقود الأحفوري وتزايد انبعاثات غازات الاحتباس الحراري، وعدم القدرة على التكيف بشكل كاف مع التغيرات المناخية، يكلّف البشرية حياتها وصحتها وسبل عيشها. وتتواصل المفارقة المزمنة والمُقلقة المتمثلة في أن الدول الأقل مسؤولية في أزمة المناخ وتفاقم التغيرات المناخية، التي لا تتحمل بمجموعها سوى نسبة ضئيلة (لا تتجاوز 5 %) من مسؤولية إنبعاثات غازات الإحتباس الحراري العالمي، هي الأكثر تأثراً بعواقبها، متحملة أقسى الآثار الصحية، حيث كان معدل الوفيات الناجمة عن الظواهر الجوية

المتطرفة في العقد الماضي أعلى 15 مرة من المناطق الأقل تعرضاً للخطر.
بينما ترتبط الانبعاثات الضارة المسببة للظاهرة بالنشاط الصناعي للدول الصناعية الكبرى. كما وان الظاهرة هي نتاج ممارسات للدول التي حققت تنمية بالفعل على مدار عقود من الزمن على حساب الآخرين، عبر صناعاتها وشركاتها الكبرى الملوثة للبيئة. وكل هذا يعني إنعدام العدالة في تحمل مسؤولية المشكلة.
ورقتنا هذه تسلط الضوء على العلاقة الوثيقة بين الصحة والبيئة وحقوق الإنسان وضرورة العدالة المناخية.

إشكاليتا البيئة والصحة

البيئة والصحة إشكاليتان هامتان وحيويتان في حياة البشر، وهما مترابطتان عضوياً. وقد أولتهما وتوليهما الدول المتحضرة، المعتمدة لحقوق الإنسان والملتزمة بها، أهمية خاصة وكبيرة، إدراكاً منها لأهميتهما الحيوية للمجتمع وللأسرة و للمواطن الفرد.
تنبع أهمية وحيوية البيئة من كونها الطبيعة، بما فيها من أحياء وغير أحياء. وهي الوسط الذي يحيى به الإنسان مع غيره من الكائنات الحية، ويحصل منه على مقومات حياته من مأكل وملبس ومسكن، ويمارس فيه مختلف علاقاته مع بني جنسه. والبيئة التي تشمل: الهواء والماء والتربة والمعادن والمناخ والكائنات نفسها، ليست مجرد موارد يتجه إليها الإنسان ليستمد منها مقومات حياته، وإنما تتضمن أيضاً علاقة الإنسان بالإنسان التي تنظمها المؤسسات الاجتماعية، والعادات، والتقاليد، والقيم الوطنية.
وتبرز أهمية وحيوية الصحة من كونها حالة من المعافاة الكاملة بدنياً ونفسياً واجتماعياً وروحياً. وقد تبنت الأمم المتحدة الحق في الصحة في المادة الثانية عشرة من العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لعام 1966، والذي نص على: "تقر الدول الأطراف في هذا العهد بحق كل إنسان في التمتع بأعلى مستوى من الصحة البدنية والعقلية يمكن بلوغه".
وأدركت الدول المتحضرة ان بلوغ الصحة المطلوبة لمواطنيها لا يتم إلا في ظل بيئة نظيفة وصحية. ولن يتحقق توفير الرعاية الصحية الحديثة المطلوبة والعيش في بيئة صحية محمية، من دون مراعاة حقوق الإنسان واحترامها حقاً وفعلاً، بوصفها حقوقاً أصلية في طبيعتها لا يستطيع البشر ان يعيشوا بدونها، ولن يكون لوجودهم كبشر قيمة ومعنى بدونها، وهي حقوق مستحقة لكل شخص بوصفه إنسانا.
ووفقاً لما تتطلبه الاستجابة لتحديات التنمية في المجال الصحي يُفترضُ تقديم خدمات الوقاية، وتحسين صحة الأسرة، ومكافحة الأمراض، مع اعتبار هذه الأمور مُكوّناً رئيساً في رسم السياسة الصحية بطريقة تجعلها منسجمة مع الاستراتيجيات الوطنية في التخفيف من وطأة الفقر.
لقد أكدت الحياة يومياً وباضطراد الإرتباط الوثيق بين حق الإنسان في الحياة والصحة وحقه في الحصول على بيئة نظيفة، سليمة، ومتوازنة. وإلا فان هذا الحق ينتهك، وتتعرض حياة الإنسان للخطر.
وفي هذا الشأن، فان أي استراتيجيات بيئية لا تأخذ منظور الصحة بعين الاعتبار تعتبر استراتيجيات مبتورة. وهكذا الأمر بالنسبة للاستراتيجيات الصحية التي يجب أن تأخذ

المنظور البيئي بعين الاعتبار، وإلا تصبح هي الأخرى مبتورة.

حق الإنسان ببيئة صحية

بعد نضال طويل، تبنى (مجلس حقوق الإنسان) التابع للأمم المتحدة في قراره المرقم 10/19، الذي اعتمده في 22 /3 /2012، تعيين خبير مستقل يُعنى بمسألة التزامات حقوق الإنسان المتعلقة بالتمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة، تكون من ضمن واجباته إجراء دراسة بشأن إلتزامات حقوق الإنسان، بما في ذلك الإلتزامات بعدم التمييز فيما يتعلق بضمان التمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة.

وتطويراً لهذه الخطوة المهمة، أعلن المجلس في 8/10/ 2021 أن التمتع ببيئة نظيفة وصحية ومستدامة يعتبر حقا من حقوق الإنسان. ودعا في قراره رقم 13/ 48 الدول في جميع أنحاء العالم، إلى العمل معا ومع شركاء آخرين لتنفيذ هذا الحق المعترف به حديثا.

ودعت المفوضة السامية لحقوق الإنسان، ميشيل باشليت، الدول الأعضاء إلى اتخاذ إجراءات جريئة "لضمان أن يكون هذا القرار بمثابة نقطة انطلاق للضغط من أجل سياسات اقتصادية واجتماعية وبيئية تحويلية من شأنها حماية الناس والطبيعة". ونوهت بان القرار "يعترف بوضوح بالتدهور البيئي وتغير المناخ كأزمتين مترابطتين مع حقوق الإنسان"[2].

من جهته، أعلن المقرر الخاص المعني بحقوق الإنسان والبيئة ديفيد بويد: "نحن بحاجة لأن تتحرك الحكومات والجميع بإحساس يعكس إلحاح المسألة. أعني، نحن نعيش في خضم أزمة مناخ وتنوع بيولوجي وأزمة تلوث، وأيضا أزمة من هذه الأمراض الناشئة مثل كوفيد19-، التي لها أسباب بيئية جذرية. ولهذا فإن هذا القرار مهم للغاية، لأنه يقول لكل حكومة في العالم "يجب وضع حقوق الإنسان في صلب العمل المناخي، والحفاظ على الطبيعة، والتصدي للتلوث، ومنع الأوبئة في المستقبل"[3]. وأكد بويد: "ثمة مليار شخص لا يمكنهم مجرد فتح الصنبور والحصول على مياه آمنة ونظيفة"[4].

وأكدت مديرة قسم الصحة العامة والبيئة في منظمة الصحة العالمية ان للقرار "تداعيات مهمة وتأثيرا على عملية التعبئة. وستكون الخطوة التالية هي كيفية ترجمة ذلك فيما يتعلق بالحق في الهواء النظيف، وما إذا كان بإمكاننا الدفع، على سبيل المثال، من أجل الاعتراف بإرشادات جودة الهواء العالمية لمنظمة الصحة العالمية ومستويات التعرض لبعض الملوثات على مستوى الدولة. كما أنه سيساعدنا على نقل تشريعات ومعايير معينة على المستوى الوطني ."ونبهت الى ان "تلوث الهواء، الناتج في المقام الأول عن حرق الوقود الأحفوري، يتسبب في تغير المناخ، وفي 13 حالة وفاة في الدقيقة في جميع أنحاء العالم. ودعت إلى إنهاء هذه "المعركة العبثية" ضد البيئة والنظم البيئية، ويجب أن تكون جميع الاستثمارات قادرة على ضمان الوصول إلى المياه المأمونة، والصرف الصحي، والتأكد من توفير الكهرباء باستخدام الطاقة المتجددة، وأن تكون نظمنا الغذائية مستدامة"[5].

قرار تاريخي

أثمرت جهود العلماء والأكاديميين والباحثين

ومسؤولين إداريين معنيين، عن تبني الجمعية العامة للأمم المتحدة، في 28 /7/ 2022، قرارها التاريخي، الذي اعتبر الوصول إلى بيئة نظيفة وصحية ومستدامة حقاً عالميا من حقوق الإنسان. ودعا القرار، الذي استند إلى قرار مجلس حقوق الإنسان 13 /48 السالف، كافة الدول والمنظمات الدولية والشركات التجارية إلى تكثيف الجهود لضمان بيئة صحية للجميع.

وأكد خبراء الأمم المتحدة، ومنهم المقرر الخاص المعني بحقوق الإنسان والبيئة، أن اعتراف الجمعية العامة للأمم المتحدة بالحق في بيئة نظيفة وصحية ومستدامة (قرار 76 /300 في تموز 2022) يعد تحولاً تاريخياً يغير طبيعة القانون الدولي، من خلال دمج البعد البيئي كركيزة أساسية لا غنى عنها للتمتع بكافة حقوق الإنسان الأساسية. وقال المقرر الخاص: ''إن الحكومات قطعت وعودا بتنظيف البيئة والتصدي لحالة الطوارئ المناخية لعقود من الزمن، لكن امتلاك الحق في بيئة صحية يغير منظور الناس من ''استجداء'' الحكومات إلى مطالبتها بالتصرف''[6].

وأكد برنامج الأمم المتحدة للبيئة أن الاعتراف بالحق في بيئة صحية على المستوى العالمي سيدعم الجهود المبذولة لمعالجة الأزمات البيئية بطريقة أكثر تنسيقا وفعالية وغير تمييزية، ويساعد في تحقيق أهداف التنمية المستدامة، وتوفير حماية أقوى للحقوق والأشخاص الذين يدافعون عن البيئة، ويساعد في إنشاء عالم يمكن للناس فيه العيش في انسجام مع الطبيعة[7].

ورحب الأمين العام للأمم المتحدة غوتيريش بالقرار التاريخي، وقال: ''إن القرار سيساعد في الحد من المظالم البيئية، وسد فجوات الحماية، وتمكين الناس والأشخاص المعرضين للخطر في الأوضاع الهشة على وجه الخصوص بما في ذلك المدافعون عن حقوق الإنسان البيئية، الأطفال، الشباب، النساء، والشعوب الأصلية. وسيساعد الدول أيضا على تسريع تنفيذ التزاماتها وتعهداتها المتعلقة بالبيئة وحقوق الإنسان''. وشدد على أن ''اعتماد القرار ليس سوى بداية''، وحث الدول على جعل هذا الحق المعترف به حديثا ''حقيقة للجميع في كل مكان''[8].

وأوصى ''مؤتمر ستوكهولم 50+'' في حزيران 2022، بأن ''تعترف الدول بالحق في بيئة نظيفة وصحية ومستدامة، وتنفيذه''.

من تداعيات التغيرات المناخية على صحة الإنسان

أدرك علماء الصحة والبيئة والمناخ مبكراً تأثيرات تغير المناخ على صحة الإنسان والبيئة والعديد من القطاعات الاجتماعية والاقتصادية. وقد برز خبراء المنظمة العالمية للأرصاد الجوية في طليعة تقييم الآثار وتطوير المنتجات لتوجيه سياسات التأهب والتكيف والتخفيف[9]. كما كان لخبراء منظمة الصحة العالمية دورهم الكبير في التصدي لمشكلة التغيرات المناخية وتداعياتها الوخيمة، وهم الذين توقعوا موت ألوف الأشخاص سنوياً في كبرى مدن العالم بفعل أمراض القلب والرئة الناتجة عن الحر الشديد. وان العواصف والفيضانات ستمحو قرى ومدناً كاملة، وتلوثُ مياه الشرب، وتوقعُ الهلع في الناس. وفي ظل وطأة الفيضانات والجفاف والتمزق الاجتماعي والاقتصادي، تضعف قدرة الدول على توفير العيش الكريم

لمواطنيها، وتتضاعف أعداد المصابين بالأمراض وبسوء التغذية[10].

في القطاع الصحي بيّنَ العلماء ان التغيرات المناخية تشكل أكبر تهديدٍ لصحة الإنسانٍ يواجه البشرية، حيث تضر تأثيراتها بالصحة، بالفعل، وتسهم بشكل مباشر في حدوث حالات الطوارئ الإنسانية، وانتشار الأمراض والأوبئة، وزيادة معدلات الوفيات، من خلال أضرارها البيولوجية والفسلجية على جسم الإنسان، وتأثيرها على البيئة المادية، وعلى جميع جوانب النظم الطبيعية والبشرية - بما في ذلك الظروف الاجتماعية والاقتصادية، مسببة التهجير القسري، والضغوط على الصحة العقلية، وزيادة الجوع وسوء التغذية في الأماكن التي هي أكثر هشاشة وتعاني من صعوبات في زراعة المحاصيل أو العثور على غذاءٍ كافٍ. كما تؤثر على أداء النظم الصحية[11].

علمياً، تتبين تأثيرات التغيرات المناخية على صحة الإنسان من خلال العلاقة القائمة بين المناخ والصحة البشرية، فإن تغير المناخ يؤثر بالفعل على الصحة بطرق عديدة، مباشرة وغير مباشرة، ومنها التسبب في الوفاة والمرض نتيجة الظواهر الجوية المتطرفة التي تزداد تواترا، مثل موجات الحر الشديد والعواصف والفيضانات وتعطل النظم الغذائية، وزيادة الأمراض الحيوانية المنشأ والأمراض المنقولة بالأغذية والمياه والنواقل، ومشاكل الصحة النفسية. وعدا هذا، يقوض تغير المناخ العديد من المحددات الاجتماعية للصحة الجيدة، مثل سبل العيش والمساواة وإتاحة الرعاية الصحية وهياكل الدعم الاجتماعي.

أمراض ووفيات

تبين الأبحاث أن 3.6 مليار شخص يعيشون بالفعل في مناطق شديدة التعرض لتغير المناخ، ويموت في كل عام الملايين من البشر دون داعٍ بسبب الاعتماد على الوقود الأحفوري. وأدى الفشل في كبح آثار الاحتباس الحراري إلى ارتفاع معدل الوفيات المرتبطة بالحرارة منذ التسعينيات، ليصل إلى 546 ألف حالة وفاة سنويا.

قبل 7 أعوام أصدر برنامج الأمم المتحدة للبيئة تقريره السادس GEO - الشامل لتوقعات البيئة العالمية، والذي أقرته جمعية الأمم المتحدة للبيئة في نيروبي .في آذار 2019، وتصمن تقييماً أكثر شمولية ودقة. وحذر من أن الأضرار التي تلحق بالكوكب بالغة الخطورة، والتي تعرض صحة الناس للخطر بشكل متزايد ما لم يتم اتخاذ إجراء عاجل.

وأشار التقرير، الذي ألّفه 250 عالما من أكثر من 70 دولة الى "إننا إما أن نزيد من حماية البيئة، أو أن المدن والمناطق في آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا قد تشهد ملايين الوفيات المبكرة بحلول منتصف القرن". كما حذر من أن الملوثات في نظم المياه العذبة ستشهد مقاومة مضادة للميكروبات تصبح السبب الرئيسي للوفاة بحلول عام 2050، ويؤثر اضطراب الغدد الصماء على خصوبة الذكور والإناث، وكذلك النمو العصبي للأطفال[12].

وقبل 4 أعوام حذرت الوكالة الأوروبية للبيئة من ان 20% من وفيات القلب في أوروبا تنجم عن المخاطر البيئية. وتشكل أمراض القلب والأوعية الدموية السبب الرئيس للوفاة في الاتحاد الأوروبي، حيث أودت بحياة

أكثر من 1.7 مليون شخص في عام 2022، فيما تُسجّل سنويًا أكثر من 6 ملايين حالة جديدة بتكلفة نحو 282 مليار يورو. وتُشير التقديرات إلى أن العوامل البيئية مسؤولة عن 18% من الوفيات المذكورة.

وأكدت الوكالة إمكانية تفادي نحو 20% من وفيات أمراض القلب والأوعية الدموية في أوروبا من خلال الحد من المخاطر البيئية. وأشارت الى دراسات علمية أثبتت أن عدة عوامل بيئية تسهم بشكل كبير في زيادة خطر الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية في أوروبا[13].

وشهد عام 2024 وحده 154 ألف حالة وفاة، نتيجة لتلوث الهواء الناجم عن دخان حرائق الغابات، وارتفعت قدرة انتشار حمى الضنك عالميا بنسبة تصل إلى 49% منذ خمسينيات القرن الماضي. ومن المتوقع ان يسبب تغير المناخ في الفترة 2030 - 2050 نحو 250 ألف حالة وفاة إضافية كل عام، بسبب الإجهاد الحراري ونقص التغذية وإنتشار أمراض الملاريا والإسهال[14].

وحذرت منظمة الصحة العالمية من جديد من حصول ملايين الوفيات المبكرة سنوياً، إرتباطاً بتلوث الهواء المسؤول غالباً عن معظم وفيات أمراض القلب والسكتات الدماغية وسرطان الرئة وذات الرئة، إضافة لإلتهابات الجهاز التنفسي الحادة الأخرى. وكانت دراسات للمنظمة أكدت منذ فترة طويلة ان صحة الانسان مرتبطة، بقوة، بصحة النظام البيئي الذي يلبي الكثير من احتياجاتنا الاساسية، فتؤدي زيادة عدد السكان، والتطور الاقتصادي، الى حدوث تغييرات سريعة في النظام البيئي العالمي، ويؤثر هذا على صحة البشر. ونبهت المنظمة الى إمكانية التغلب على المشكلات البيئية، التي تتسبب بحوالي ربع الامراض والوفيات العالمية التي تحدث في عمر مبكر، من خلال الوقاية منها، وتجنبها عبر تحسين حالة البيئة. وفي دراسة لها بعنوان "تفادي الامراض من خلال الحرص على بيئة صحية" نبهت الى انه يمكن سنويا تفادي أكثر من 100 مرض وإصابة مرضية ترتبط بشكل مباشر بالمخاطر البيئية، وانقاذ حياة 4 ملايين إنسان، اذا ما تم تفادي المشكلات الصحية المرتبطة بالمكونات البيئية كالهواء والماء والتربة والاشعاعات والضجيج والحقول الكهرومغنطيسية والانشاءات والزراعة والسلوكيات غير الصحية. وأوضحت بان عوامل الخطر البيئية تشهد تحولا كبيرا مع التنمية[15].

وحذرت مراراً من ان الضغط على البيئة يمكن أن يكون له نتائج غير متوقعة وربما خطيرة على الصحة في المستقبل[16]. ودعت ماريا نيرا مديرة قسم الصحة العامة والبيئة في منظمة الصحة العالمية الى ان تتخذ على الفور سلسلة من الاجراءات لتخفيف العبء الذي تفرضه الامراض الناجمة عن البيئة.

وبينت دراسة تحليلية جديدة ان تغير المناخ يُخلفُ آثارًا بالغة على صحة الإنسان، إذ يشهد موجات حرّ متكررة وظواهر جوية مت طرفة، وتغيرًا في أنماط انتقال الأمراض المعدية، وتدهورًا في موارد الغذاء والماء، وتأثيرات على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وتفاقمًا للتحديات الصحية القائمة في جميع أنحاء العالم. الدراسة نشرتها دورية The Lancet Countdown on Health and Climate Change في تشرين الثاني 2025، وهي ثمرة جهود

128 خبيراً من 71 مؤسسة، يرصدون التقدم المحرز عبر 57 مؤشراً - بدءًا من الوفيات المرتبطة بالحرارة، مروراً بالإقراض المصرفي، وصولاً إلى الوقود الأحفوري - ليقدم بذلك التقييم الأكثر شمولاً حتى الآن للروابط بين تغير المناخ والصحة.

وبينت الدراسة أنه في الوقت الذي تتراجع فيه بعض الدول والشركات عن التزاماتها المناخية، تبذل القيادات المحلية والشعبية جهوداً حثيثة لبناء مستقبل صحي أفضل.

وكشفت عن أن الاعتماد المفرط على الوقود الأحفوري وتزايد انبعاثات غازات الاحتباس الحراري، وعدم القدرة على التكيف بشكل كاف مع التغيرات المناخية، يكلّف البشرية حياتها وصحتها وسبل عيشها، مع تسجيل 12 من أصل 20 مؤشرا لمخاطر صحية مستويات غير مسبوقة .وحذرت من تفاقم الآثار الصحية لتغير المناخ، حيث يموت الملايين سنوياً دون داعٍ بسبب الاعتماد على الوقود الأحفوري.

وقد أدى الفشل في كبح آثار الاحتباس الحراري إلى ارتفاع معدل الوفيات المرتبطة بالحرارة بنسبة 23% منذ التسعينيات، ليصل إلى 546 ألف حالة وفاة سنويا .وحسب الدراسة، يُعزى 2.5 مليون وفاة سنويا الى تلوث الهواء الناتج عن استمرار حرق الوقود الأحفوري، مما يضغط أيضا على الميزانيات الوطنية، فقد أنفقت الحكومات مجتمعة 956 مليار دولار على دعم الوقود الأحفوري في 2023.

وفي الوقت نفسه، تستمر شركات النفط والغاز الكبرى في توسيع خطط إنتاج الوقود الأحفوري بمعدل يفوق قدرة كوكب الأرض على التحمل. وأفادت الدراسة بأن أكبر 100 شركة للوقود الأحفوري في العالم زادت إنتاجها المتوقع لغاية آذار 2024، مما أدى إلى انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بما يعادل 3 أضعاف، وهو ما يتعارض مع هدف اتفاقية باريس للمناخ.

وكشفت الدراسة أن التحول بعيدا عن الفحم، بالإعتماد على الطاقة المتجددة، أنقذ سنويا نحو 160 ألف نسمة من موت محقق.

وأشارت إلى أن التراجع السياسي عن الالتزامات المناخية سيزيد المخاطر على الصحة، في حين تعزز الشركات الكبرى للوقود الأحفوري إنتاجها، ما قد يؤدي إلى زيادة انبعاثات الغازات الدفيئة بمقدار 3 أضعاف عن هدف 1.5 درجة مئوية بحلول 2040، وسيُعقِدُ جهود التكيف الصحية.

وتدعم البنوك التجارية هذا التوسع أيضاً، مستثمرة أكبر 40 جهة مقرضة لقطاع الوقود الأحفوري، مجتمعة، 611 مليار دولار في عام 2024، وهو أعلى مستوى لها في 5 سنوات، بينما انخفضت قروضها للقطاع الأخضر إلى 532 مليار دولار[17].

تهديدات متواصلة

وفقا لتقرير "The Lancet Count-down" الصادر في تشرين الثاني 2023، ارتفع عدد الأشخاص الذين تزيد أعمارهم على 65 عاما، ولقوا حتفهم بسبب الحرارة الشديدة، بنسبة 85% في الفترة من 2013 إلى 2022، مقارنة بالفترة من 1991 إلى 2000[18].

ونظرًا للارتفاع السريع في درجات الحرارة، تعرضت الفئات السكانية الأكثر عرضة للخطر (البالغين فوق 65 عامًا والأطفال الرضع) لـ 3.7 مليار يوم إضافي من موجات

الحر في عام 2021، مقارنةً بالفترة بين عامي 1986 - 2005. كما ارتفعت الوفيات المرتبطة بالحرارة بنسبة 68% بين الفترتين 2000 - 2004 و2017 - 2021. وقد تفاقم عدد الوفيات بشكل كبير بسبب تزامن ذلك مع جائحة كوفيد - 19 [19].

في الوقت نفسه، يؤثر تغير المناخ على انتشار الأمراض المعدية، ما يعرض السكان لخطر أكبر للإصابة بأمراض جديدة وأوبئة متزامنة. فأصبحت المياه الساحلية أكثر ملاءمة لانتقال البكتيريا المُمَرِضة. فقد ازداد عدد الأشهر المناسبة لانتقال الملاريا بنسبة 31.3% في المناطق الجبلية في الأمريكتين، و13.8% في المناطق الجبلية في أفريقيا خلال الفترة 1951-1960 إلى 2012-2021، وارتفعت احتمالية انتقال حمى الضنك بنسبة 12% خلال الفترة نفسها. وقد أدى تزامن تفشي حمى الضنك مع جائحة كوفيد19- إلى تفاقم الضغط على النظم الصحية، وسوء التشخيص، وصعوبات في إدارة كلا المرضين في العديد من مناطق أمريكا الجنوبية وآسيا وأفريقيا .[20]

ويمتد تأثير ارتفاع متوسط درجات الحرارة على الصحة لما هو أبعد من ذلك، وكانت دراسة قد صدرت في دورية (Risk Analysis) جمعت بيانات درجة الحرارة القصوى في ولاية مينيسوتا الأميركية وقارنتها بالوفيات في الولاية نفسها بين عامي 1998 و2014، وحالات قسم الطوارئ من عام 2005 إلى عام 2014، لتجد علاقة بين العاملين. وبينت ثمة ارتباط بين التغير المناخي وخطر الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية وأمراض الجهاز التنفسي، والتي يمكن أن تتطور للوفاة.

وهذا ليس بجديد، فقد تم تسجيل أكثر من 70 ألف حالة وفاة إضافية أثناء موجة الحر في أوروبا، إذ بحسب دراسة أجراها معهد برشلونة للصحة العالمية "BIGH" تجاوز عدد الوفيات المرتبطة بالحرارة خلال صيف 2022، بعد موجة الحر القاتلة، 70 ألف حالة. وقسم من هذه الحالات كان على علاقة بأمراض القلب والأوعية الدموية[21].

وشهد الجميع ان صيفي عامي 2025 و2026 سجلا موجات حر شديدة، سببت وفاة آلاف من المرضى وكبار السن في أوروبا. وأعلنت الوكالة الوطنية للصحة في فرنسا حصيلة مرعبة لموجة الحر: وفاة 5700 شخص في أسبوعين خلال شهر تموز 2026[22].

من مقررات " كوب 30"

رغم كل السلبيات، شهد مؤتمر الأمم المتحدة لتغير المناخ "كوب 30"، الذي انعقد في مدينة بيليم البرازيلية في الفترة 10 - 21 تشرين الثاني| نوفمبر 2025، التوصل إلى زيادة التمويل المخصص للبلدان النامية لصون سكانها من تفاقم آثار أزمة المناخ، حيث تم الاتفاق على:

*هدف جماعي جديد لتوفير 300 مليار دولار سنويًا بحلول عام 2035 لصالح الدول النامية، مع السعي للوصول إلى 1.3 تريليون دولار سنويًا للعمل المناخي.

* دعم التكيف مع تغير المناخ: مضاعفة تمويل التكيف ثلاث مرات بحلول عام 2035.

* إطلاق آلية تمويل جديدة للدول الاستوائية، سميت-Tropical Forests Forever Fa cility (TFFF) بتعهدات تقارب 6.7 مليار دولار أميركي، مع تخصيص ما لا يقل عن

20 في المئة من التمويل للسكان الأصليين والمجتمعات المحلية. ولتعبئة 125 مليار دولار لتمويل العمل المناخي في الدول النامية.
* التأكيد على ضرورة إشراك المجتمعات الأصلية في صنع السياسات المناخية وضمان حصولها على تمويل عادل.
* إطلاق خطة عمل لأنظمة الصحة العالمية للتكيف مع ارتفاع درجات الحرارة والطقس المتطرف، حملت اسم "خطة عمل بيليم للصحة"، تبنتها وكالات الأمم المتحدة والشركاء والحكومات، والتي تركز على معالجة أوجه عدم المساواة في الرعاية الصحية.
* حشد التمويل والتكنولوجيا لدعم التكيف وخفض الانبعاثات في مجال الرعاية الصحية.
* ضمان المساواة والمشاركة، وأن يكون للمجتمعات المحلية صوت مسموع، وتعزيز مشاركتها في الحوكمة.
وأكد القرار النهائي على التضامن والاستثمار، ووضع أهداف مالية طموحة.
لكن القرار لم يشمل التخلص من الوقود الأحفوري الذي يُصدرُ حرقه غازات دفيئة، تُعد، بلا شك، أكبر مساهم في الاحتباس الحراري، ما يجعل هذا الإغفال مصدر قلق للعديد من الدول، بما في ذلك المفاوضين من أمريكا الجنوبية والاتحاد الأوروبي، بالإضافة إلى منظمات المجتمع المدني.

مخاطر التراجع عن الالتزامات المناخية الدولية

ان التراجع السياسي عن الالتزامات المناخية سيزيد المخاطر على الصحة، في حين تعزز الشركات الكبرى للوقود الأحفوري إنتاجها، ما قد يؤدي إلى زيادة انبعاثات الغازات الدفيئة بمقدار 3 أضعاف عن هدف 1.5 درجة مئوية بحلول 2040، وسيعقد جهود التكيف الصحية ويهدد صحة وحياة البشرية.
وكان المنتدى العربي للبيئة والتنمية قد نبه في عام 2020 إلى ان قضايا الصحة العامة مفقودة عموماً ضمن الاستراتيجيات الوطنية للتكيُّف مع تغيُّر المناخ. وتفتقر المنطقة العربية إلى حدٍ كبير إلى خطط التكيُّف الوطنية التي تتناول الاستجابات التشريعية والعملية، بناءً على المخاطر الصحية المتوقعة، لموجات الحر والظواهر الجوية الشديدة، وتلوث الهواء، وانتشار الأمراض المعدية. وتحتاج البلدان العربية لأن تكتسب فهماً أفضل للعوامل المختلفة التي تؤثر على نتائج تغيُّر المناخ على الصحة، من أجل تصميم استراتيجيات فعالة للتخفيف والتكيُّف، تلبّي الحالة الخاصة بكل بلد، مع تأثيرات مباشرة وواضحة على صحة السكان[23].
وهذا ينطبق على بقية الدول النامية؛ إذ تشير الإحصائيات إلى أن 47% من مجمل الوفيات حول العالم قد تم تسجيلها في آسيا - حوالي مليون وفاة تقريباً - وشكلت الأعاصير الاستوائية السبب الرئيس لها. وكانت حصيلة الوفيات في بنغلادش الأعلى في آسيا مع 530 ألفا و758 وفاة نتجت من 281 كارثة.
وحذرت الدكتورة مارينا رومانييلو، المديرة التنفيذية لـ The Lancet Countdown on Health and Climate Change من أن "التأثيرات الصحية المدمرة تمتد لكل بقاع العالم، مع تهديدات قياسية من الحرائق والحر الشديد، مما سيستمر في التصاعد، ما لم ينته الاعتماد على الوقود الأحفوري وتعزيز قدرات التكيف". وأضافت أن "الحلول متاحة

بالفعل لتجنب كارثة مناخية، وان التقدم ممكن كما تظهره المدن والمجتمعات حول العالم. ان الانتقال للطاقة النظيفة والتحول إلى نظم غذائية أكثر استدامة، يمكن أن يوفر أكثر من 10 ملايين حياة سنويا"[24].

العدالة المناخية مطلب آني وملح

حيال الواقع الراهن لا بد من تنفيذ العدالة المناخية (Climate justice) بإنصاف الدول الضعيفة والفقيرة التي ليس لها دور كبير في تلويث البيئة العالمية، لاسيما وقد أصبح التكيف مع تأثيرات التغيرات المناخية المتفاقمة أكثر صعوبة.

من هذا المنطلق، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتّحدة، في آذار 2023، بالإجماع، قراراً تاريخياً يطلب من محكمة العدل الدولية إبداء رأيها بشأن مسؤوليات الدول في مجال مكافحة احترار المناخ[25] وبعد عامين أصدرت هذه المحكمة في تموز 2025 رأيا استشاريا تاريخيا بشأن تغير المناخ، مؤلفاً من 133 صفحة، أكدت فيه: أن "بيئة نظيفة وصحية ومستدامة هي حق من حقوق الإنسان، مثل الحصول على المياه والغذاء والسكن". وقضت بموجبه بأن الدول ملزمة بحماية البيئة من انبعاثات غازات الاحتباس الحراري، والعمل بالعناية الواجبة والتعاون للوفاء بهذا الالتزام. كما قضت المحكمة بأنه في حال إخلال الدول بهذه الالتزامات، فإنها تتحمل المسؤولية القانونية، وقد يُطلب منها قانونيا وقف السلوك المخالف، وتقديم ضمانات بعدم تكراره، وتقديم تعويضات كاملة، وذلك حسب الظروف المحيطة بكل حال[26].

استندت المحكمة في قرارها إلى التزامات الدول الأعضاء بكل من معاهدات البيئة وحقوق الإنسان. وأوضحت أن الدول الأعضاء أطراف في مجموعة متنوعة من المعاهدات البيئية - بما فيها معاهدات طبقة الأوزون، واتفاقية التنوع البيولوجي، وبروتوكول كيوتو، واتفاق باريس، وغيرها الكثير- والتي تُلزم الدول بحماية البيئة من أجل الناس في جميع أنحاء العالم والأجيال القادمة. كذلك أن "البيئة النظيفة والصحية والمستدامة هي شرط أساسي للتمتع بالعديد من حقوق الإنسان".

ورغم أن القرار غير ملزم قانوناً، لكنه يسهم في إرساء الأسس القانونية لمحاسبة كبار الملوّثين وتمكين المجتمعات الأكثر تضرراً من تغيّر المناخ. من هذا المنطلق، حظي القرار، حينها، بإشادة دولية واسعة النطاق واعتُبر محطة تاريخية فارقة. ووصفه الأمين العام للأمم المتحدة بأنه "انتصار لكوكبنا، وللعدالة المناخية، ولقوة الشباب في إحداث التغيير". وأشار إلى أن شباب جزر المحيط الهادئ بادروا بهذه الدعوة الإنسانية للعالم، مشددا على أنه يجب على العالم أن يستجيب.

وقال أن فتاوى محكمة العدل الدولية، وهي الجهاز القضائي الرئيسي للأمم المتحدة، لها أهمية هائلة ويمكن أن ينجم عنها أثر طويل الأمد على النظام القانوني الدولي. وأضاف أن تلك الفتاوى يمكن أن تقدم الإيضاحات التي تمس إليها الحاجة حول الالتزامات القانونية الدولية القائمة .وقال إن فتوى المحكمة، في حال صدورها، ستساعد الجمعية العامة والأمم المتحدة والدول الأعضاء على القيام بعمل مناخي أقوى وأكثر جرأة يحتاجه العالم بشدة. وذكر أن العدالة المناخية تعد حتمية أخلاقية وشرطا أساسيا للعمل المناخي الفعال[27].

وفي 20 أيار 2026، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا يدعم الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية بشأن تغير المناخ، في خطوة وصفها الأمين العام أنطونيو غوتيريش بأنها "تأكيد قوي على سيادة القانون الدولي، والعدالة المناخية، والعلم، ومسؤولية الدول عن حماية الشعوب من أزمة المناخ المتصاعدة".

وأشار قرارها إلى توافق الآراء العلمية على أن انبعاثات غازات الاحتباس الحراري بشرية المنشأ هي السبب الرئيس للاحترار العالمي الذي لوحظ منذ منتصف القرن العشرين، وبأن تغير المناخ الناجم عن فعل الإنسان قد أحدث أضرارا واسعة النطاق للطبيعة والناس تتجاوز التقلبات الطبيعية للمناخ مع تأثر الأشخاص والنظم الأكثر ضعفا بشكل غير متناسب.

وشددت الجمعية العامة على الحاجة الملحة لتوسيع نطاق العمل والدعم، بما يشمل التمويل وبناء القدرات ونقل التكنولوجيا. وأعربت عن القلق البالغ لعدم تحقيق الهدف الذي يقضي بمشاركة البلدان المتقدمة في تعبئة 100 مليار دولار أمريكي سنويا بحلول عام 2020، لدعم الدول النامية في مجال المناخ.

ويبعث القرار الذي تبنته الجمعية العامة بأغلبية 141 صوتا مؤيدا، مقابل 8 أصوات معارضة، وامتناع 28 دولة عن التصويت، برسالة قوية مفادها أن التصدي لأزمة المناخ يُعد واجبا قانونيا بموجب القانون الدولي، وليس مجرد خيار سياسي. وفي بيان صدر عقب تصويت الجمعية العامة، قال الأمين العام:" لقد نطقت أعلى محكمة في العالم بكلمتها، واليوم، جاء رد الجمعية العامة".

ويدعو القرار جميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة إلى اتخاذ كافة الخطوات الممكنة لتجنب إحداث أضرار جسيمة بالمناخ والبيئة – بما في ذلك الانبعاثات الناجمة داخل حدودها – وإلى الوفاء بالتعهدات المناخية القائمة التي قطعتها على نفسها بموجب اتفاق باريس 2015.

كما يحث القرار الحكومات على التعاون بحسن نية وتنسيق جهودها بشكل مستمر للتصدي لتغير المناخ على الصعيد العالمي، وضمان أن تكفل السياسات المناخية حماية الحقوق في الحياة والصحة ومستوى معيشي لائق.

الهوامش

1 - وكالة الأنباء الألمانية (د ب أ)،24/3/2026

2- UN,UNHR,Bachelet calls for urgent action to realize human right to healthy environment following recognition by UN General Assembly, Office of the High Commissioner for Human Rights , Press releases, 28 July 2022.

3- UN, UNHR , David R. Boyd (2018 - 2024), Special Rapporteur on human rights and the environment

4 - UN rights expert David Boyd: 'Businesses are treating the environment like a free dumping ground',,By Michelle Langrand, Climate & Environment Human Rights Council News Published on March 08, 2024

5 - الأمم المتحدة تعلن ان البيئة الصحية، بما في ذلك الهواء النظيف، حق من حقوق الإنسان.

6 - -الأمم المتحدة، الجمعية العامة للأمم المتحدة تتبنى قرارا تاريخياً يجعل الوصول الى بيئة نظيفة وصحية حقاً من حقوق الإنسان العالمية، المناخ والبيئة: "أخبار الأمم المتحدة"، 28/7/2022.

7-Climate & Clean Air Coalition, UNEP Convened Initiative, By CCAC, 2 Aug 2022

8 - "أخبار الأمم المتحدة"، 28/7/2022.

9 - World Meteorological Organization (WMO), Sand and Dust Storms, 2022

10 - "أخبار الأمم المتحدة"، 28/7/2021.

11 - منظمة الصحة العالمية، تغير المناخ، 12/10/2023.

12 - برنامج الأمم المتحدة للبيئة، التقرير السادس للتوقعات البيئية العالمية، آذار 2019.

13 -" يورونيوز"،4 /11 /2025

14-WHO, Report; Preventing disease through healthy environments: a global assessment of the burden of disease from environmental risks, 13 Sept 2018.

15 - WHO, Air Quality, Energy and Health. Exposure & Health Impacts of Air pollutant, 2026.

16-The 2025 Report of The Lancet Countdown on Health and Climate Change: Climate change action offers a lifeline; Volume 406, Issue 10521P2804-2857, December 13, 2025

17 - The 2025 Report of The Lancet Countdown on Health and Climate Change.

18-Marina Romanello , Claudia di Napoli ,et al; The 2023 report of the Lancet Countdown on health and climate change: the imperative for a health-centred response in a world facing irreversible harms, The Lancet, 2023 Dec 16 ;4. PMID: 37977174, PMCID: PMC7616810

19- Marina Romanello et al., The 2022 report of the Lancet Countdown on health and climate change: health at the mercy of fossil fuels, The Lancet, Volume 400, Issue 10363P1619-1654, November 05, 2022

20 - منظمة الصحة العالمية: التغير المناخي أكبر تهديد صحي يواجه البشرية، "الجزيرة. نت"، عن مواقع الكترونية ،1/12/202320.

21- IS Global Barcelona Institute for Global Health Record-breaking Heat in the Summer of 2022 Caused more than 61,000 Deaths in Europe, 10 July 2023.

22 -"سكاي نيوز عربية"، 22/7/2026.

23 - كاظم المقدادي، الصحة والبيئة في البلدان العربية في أحدث تقرير للمنتدى العربي للبيئة والتنمية، طريق الشعب، 7/ 12 / 2020.

24 - The 2025 Report of The Lancet Countdown on Health and Climate Change: Climate change action offers a lifeline; Volume 406, Issue 10521P2804-2857, December 13, 2025.

25 - قرار أممي يطلب رأي محكمة العدل الدولية حول التزامات الدول تجاه المناخ،" أخبار الأمم المتحدة" ، 29 /3/2023.

26 - "أخبار الأمم المتحدة"، 23 /7/2025

27 - الجمعية العامة تؤيد حكما تاريخيا لمحكمة العدل الدولية بشأن أزمة المناخ، "أخبار الأمم المتحدة"، 20/5/2026.

نصوص قديمة

وثائق عن الرفيق فهد *

تنفرد" الثقافة الجديدة" لأول مرة بنشر الوثائق التالية عن الرفيق الخالد فهد والسنوات الأولى من عمر الحزب ، وهي اذ تثبت نصوص هذه الوثائق - على عِلاتها اللغوية - تدعو الباحثين والرفاق والمؤرخين الى تزويدها بما لديهم من وثائق وذكريات وتعليقات لم تنشر.

الحكومة العراقية
الديوان الملكي
وزارة الداخلية
1 آذار 1933
شعبة المخابرات السرية
العدد د/121
سري
بغداد 1 مارت 1933
العدد: س/ 441
مديرية الشرطة العامة
الموضوع / يوسف سلمان المشبوه بالشيوعية
نبعث اليكم في طيه بصورة كتاب متصرفية لواء المنتفك المرقم 42 والمؤرخ في 21 شباط 1933 حول ما قامت به المتصرفية المذكورة من الاجراءات ضد من اشتبه به باشتغاله في الشيوعية، للاطلاع والايعاز لمن يلزم باجراء المراقبة اللازمة.
ع / وزير الداخلية
صورة منه مع صورة كتاب المتصرفية المذكورة مع مرفق الى/
رئاسة الديوان الملكي للاطلاع
سكرتارية مجلس الوزراء
متصرفية لواء المنتفك – للاطلاع بالاشارة الى كتابها المنوه في أعلاه.

صورة لكتاب متصرفية لواء المنتفك المرقم 42 المؤرخ في 21 شباط 1933 الى وزارة الداخلية

الموضوع / العامل الشيوعي

الحاقاً بكتابنا المرقم 30 والمؤرخ في 12 شباط 1933

لقد أخذت الشرطة بالسير في تحقيق قضية القاء الاذاعات بتوقيع عامل شيوعي في قضية الناصرية بين آونة واخرى، وقد اجتمعت الدلائل التي اؤمل ان يقال انها كافية للاتهام من أن المدبر والمنظم لهذه الاعمال هو عبد الجبار الحسون الذي أخذ رهن التوقيف اعتبارا من 19 الجاري بعد الظهر، كما انه قد أوقف أثنين آخرين وهما عبد الجبار بن غفوري و يوسف بن سلمان الذي يظن انهما هما الّذين كانا يكتبان هذه الاذاعات بتوقيع العامل الشيوعي . وبتاريخ 20 منه جُلِب يوسف سلمان لأجل الاستكتاب نظراً'' للشبهة حوله من أنه أحد أعضاء هذه الجماعة لهذا العمل، ولدى استكتابه من قبل مفوض التحقيق أخذ يتصنع بشكل يجعل خطه غير طبيعي ولما طلب منه أن يكتب بصورة طبيعية امتنع عن الكتابة وبَين بصورة واضحة، للمفوض من انه رجل شيوعي، فإذا كان الاستكتاب من أجل ذلك فهو شيوعي وهذا معتقده ومذهبه فأخذوه فوراً لمدير الشرطة فأيد ذلك بحضور مدير الشرطة وامتنع أيضاً عن الكتابة وعليه عمل ورقة ضبط بحق المرقوم ثم أرسله للحاكم فأيد عين ما قاله بحضور مدير الشرطة عند الحاكم ثم أحضره أمامي، فبعد المباحثة معه عن شغله وصنعته ومقدار دخله الشهري، وما يملكه ومسقط رأسه أجاب انه عامل ميكانيكي، أما دخلي في أيام الصيف كان بين الخمسة والستة دنانير وذلك من واردات ماكنتي الثلج والطحين اللتين لي بهما الربع وليس لدى الشيوعي مالاً عدا الألبسة والاضطهاد من المجتمع وأصحاب رؤوس الأموال وانني على ذلك مضطهدا في بيتي أيضاً ومسقط رأسي فهو بغداد. وكانت اجوبته هذه بكل برودة دم وتأييده وتعريفه لي من انه شيوعي دون أن يسأل عن ذلك ولما سألته عن امتناعه عن الاستكتاب أجاب اذا كان المراد مقابلة خطه فهو الذي كتبه أمام المفوض هو كافي للتطبيق وانه لايحرر غيره.

ولما سألته عما اذا كان هو المحرر للمناشير التي بتوقيع عامل شيوعي أجاب لا أتخطر ولايجوز فعليه طبعاً توقف المرقوم وكبس داره وقد عثر على بعض الكتب والمراسلات ولم يتم فحصها بعد.

أقارب المرقوم : يتبين للمرقوم ثلاثة اخوان المحررة اسماؤهم ووظائفهم أدناه : 1) داود سلمان مدير معمل الكهرباء في الناصرية. 2) فرج سلمان مترجم متصرفية البصرة . 3) طارق سلمان كاتب بالشرطة في الدليم .

ومن رأيي أن يؤخذ المرقومين تحت المراقبة أيضاً، واني اهنيء مدير التحقيقات الجنائية على ما جاء باخباره المبلغ الينا طي كتابكم س/ 105 والمؤرخ 17 كانون الثاني 1933 عن المرقوم .

أصدقاء المرقوم: تبين ان المرقوم كثير التردد مع مهدي وفي مخابر جريدة صوت العراق الذي نشر عدة مقالات عن الناصرية وعن الانتخابات فيها وتجاوز رحيم الصراف على احدى بنات اليهود وقد وجد كتاب خصوصي من المرقوم مهدي وفي الى سلمان منذ 1929 أقدم صورة منه بطيه. أما صديقه الثاني فهو بطرس شمعون الخياط الذي قدم الناصرية في 2 تموز 1932 كان في كامب الاثوريين في بعقوبة ثم نقل الى مندان ثم رجع الى بغداد ثم السليمانية فالبصرة ثم الناصرية ويدعي انه آشوري من بريشة قاربو الاها في قرية دوري من ملحقات ناحية برواري بالا في العمادية وله أخ في روسيا وليس له أقارب في العراق وقد كبس داره وحانوته وعثر على عدة أوراق أرسلت الى دائرة التحقيقات الجنائية لترجمتها لأنها في لغة آثورية.

انني أرى ان المسألة خرجت من طور الحزبية والاعمال المدنية ودخلت بطور الدسائس وخلق المشاكل للحكومة والمجتمع وعليه أرى ان الواجب يدعو لاستعمال الحزم والصرامة، وعليه ارجو الايعاز اهتمام لمراجعة بعض الشخصيات بداعي ان المرقومين من الحزب ومربوطين بهم ويسترحمون مساعدتهم، حيث ان الحالة وصلت الى آخر مرحلة يمكن معها تحمل هذه الالعاب والدسائس لأن حالة هذا اللواء وعقلية سكانه لا يمكن أن تتحمل الحزبية التي رائدها الاصلاح والخير فكيف بنا ورئيس الجماعة عبد الجبار والاعضاء من السوقة وعليه أرى ان أقل ضعف أم تردد يظهر في معالجة هذه القضية سوف يؤول حتما الى توسيع نطاق هذه الفكرة ويحدث تطوراً يتطلب اتعاباً زائدة لمعالجته، فأرجو معاضدتكم لنا في الاجراءات التي نقوم بها .

صورة من /

المفتش الاداري/ للمعلومات

مدير شرطة اللواء/ لأجل مواصلة التحقيق عن معرفة الاشخاص الذين كانوا على اتصال معه ولزوم مراقبتهم بصورة شديدة والاستمرار في تعقيب اكمال تحقيقات هذه القضية شخصياً.

مع هذا الكتاب نص رسالة من " مهدي وفي" مؤرخة (كركوك 6 /2 /1929). حضرة الشاب الناهض نصير الانسانية يوسف أفندي سلمان المحترم.

أيها الحر خذ رسالة حر

(قصيدة ثورية)

ثم يبين كيف اتهم مع عبد القادر السياب بأنهم كانوا يسعون (وراء نشر مباديء حزبنا الحر الشريف) أتصور انه الحزب الوطني .

وردت في الرسالة أسماء(صالح افندي حنا) من كركوك – الشاعر عبد الحافظ الخصيبي. نادي الشبيبة

غالي بيك الزويد/ في البصرة . جرجيس أفندي

هؤلاء يسميهم مهدي وفي بالاحرار...
" نص المنشور الذي وزع في النجف صباح 21 /3 / 1935 وهو مذيل بتوقيع اللجنة المركزية لجمعية ضد الاستعمار".
ماذا نريد
لم نحمل السلاح ونثور ونقف بوجه المستعمرين واتباعهم ممن فرضوا فرضاً على العراق وحسبوا من أبنائه من أجل أشخاص معدودين غايتهم واحدة (وان اختلفوا بالوصول اليها وكَوّنوا صوراً بشكله بهذه البلاد يغشون الجماهير فتحسب ان فريقاً منهم يعمل لصالحنا) نحن دافعوا الضرائب الجياع انما هي ثورة من الصميم علة مرامها في صدورنا سنين عديدة، وهي الآن تتفجر لا لترضي وتشبع جشع أشخاص معدوين .. الهاشمي، المدفعي، السعيد، الايوبي، العسكري. وغيرهم وغيرهم، كلهم جُربوا وكلهم جاءوا الحكم فلم يحدث أي تبديل ملموس في حياة الملايين الكادحة من الجماهير بالعكس كل منهم قام بقسمه من اغلالنا بقيود العبودية، المعاهدات وذيولها، اتفاقيات النفط المجحفة بحقوقنا مشاريع أصفر واللطيفية ومشروع الحبانية ..الخ.
نحن نريد
أولاً / قلع سن أم الذبان والهنيدي والشعيبة من الاساس لانريد أي قاعدة حربية للأنكليز عندنا.
ثانيا / تعديل المعاهدة من الأساس وجعلها بشكل معاهدة بين الند والند، لا بين سيد وعبد مصبوغة بألوان كاشفة .
ثالثاً / لانريد أن توافق الحكومة العراقية بصورة باتة على مشروع سكة حديد حيفا – بغداد إذ هو طوق استبعاد وغل لنا وللأجيال الآتية.
رابعاً / نريد ابدال اتفاقية النفط بشكل يكون لصالحنا على أن نقر ذلك نحن أبناء الشعب.
خامساً / تخفيض الرواتب الضخمة لكبار الموظفين والوزراء تخفيضاً محسوساً.
ساساً / توزيع جميع الاراضي الأميرية حالاً على فقراء الفلاحين.
سابعاً / الغاء جميع الديون المتراكمة على الفلاحين وتخفيض الضرائب تخفيضاً كبيراً، والاستعاضة عن الضرائب بالاكثار من حصتنا من تبديل اتفاقيات النفط.
ثامناً / سن قانون حماية العمال .
تاسعاً / نريد حالاً الضرب على أيدي بعض الصحف المعلومة التي تتناول اجوراً من الجهات الأجنبية المعروفة في بغداد – للتبشير بالدعاية الاستعمارية لحكومتها وعلاوة على ذلك تتناول رواتب من المخصصات السرية التي هي نفس الضرائب التي جبيت منّا بالسياط، هؤلاء الذين يشتمون الثورة ورجالها والرجال المخلصين وإلا فسيرون جزائهم منّا ان لم تتخذ التدابير الفعالية بحقهم.
عاشراً / نريد انتخاباً مباشراً حراً أي من دون منخبين ثانويين الشكل الاستعماري تلعب

من ورائه الاستعمار.
الحادي عشر / نريد اخراج جميع العناصر التي تعمل على بث التفرقة بين أبناء الشعب العراقي الواحد المتكاتف الافراد من البلاد.
اللجنة المركزية
لجمعية ضد الاستعمار
نقلاً عن نسخة محفوظة في المركز الوطني لحفظ الوثائق – ملف وزراء الداخلية – سجلات البلاط الملكي .

متصرفية لواء الديوانية
وزارة الداخلية
التحرير
الموضوع / التقرير اليومي
العدد س / 566
التاريخ 26 /3 /1935

سري

اخبرني قائممقام قضاء ابي صخير انه قد وزعت في النجف ليلة 25/26 نشرة مهيجة بتوقيع جبهة ضد الاستعمار وبطيه صوره منها للاطلاع عليها وانني ارى من الضروري ان تقوم الحكومة فوراً بالتحقيق الدقيق عن الفاعلين والقائمين بهذه الاعمال التي من شأنها اقلاق الراحة وتشويش الافكار .

الى عموم الآهلين والفلاحين والعمال
الى الجنود والضباط وافراد القوة الجوية

ايها الآهلون والفلاحون

انتم كيان هذه الامة المرهقة وانتم ملاذها، اليكم نرجع في الشدائد والمهمات ومنكم تجبى الرواتب وتتضخم الميزانيات. واليكم يجب ان تتوجه الخدمات العامة ولرفاهكم ورقيكم واستقلالكم يجب ان تبذل الواردات والمجهودات. ولكن ماذا نرى؟ حكومة لاهية طاغية قد انصرفت الى الشهوات وصمت آذانها عن مطاليب الشعب فلا هم لها إلا بناء القلاع العسكرية بين مزارعكم واقامة القصور بين صرائفكم واكواخكم. تباً لها من حكومة لا عمل لها إلا ضرب افراد الامة بالسياط وتعذيب ابنائها بالسجون المظلمة وتشريد ابناء الشعب الوديع وتسخير الدوائر والمحاكم والجباة لاغراضها الشائنة. لقد انتهكت محارمكم وحلتّ كل شيء آخر فألى متى الصبر والهوان على هذه الويلات التي تنزل بكم بلا رحمة ولا هوادة ؟ ماذا تنتظرون بعد ذلك على حين ان افراد هذه الحكومة الجائرة لا يتصلون بالشعب

بسبب، بل اتخذوه مطية لاغراضهم. تتعاقب الوزارات ولا اختلاف بينها فكأنها قد اتفقت على الجور وتعاقدت على الظلم وتآمرت على دمار هذا الشعب فأية مصائب تتحملونها وأية آلام تتوقعونها بعد. فهيا استعدوا لمكافحة الطغيان وقمة هذه الفئة الظالمة الجائرة فقد قرب حينهم وان موعد الخلاص منهم، وهيا هبوا ايها الاخوان الى الثورة ومعاضدة الثوار.

ايها الجنود والضباط:

اما انتم ايها الاخوان يا من نشقوا نسيم هذه البلاد ونشأوا على حب الاخلاص لها، انتم يا من يدخركم الشعب للذود عن كيانه وليس لتحطيم هذا الكيان – انتم يا من تعهدتكم الامة لتعزيز قواها وليس لقلعها وتحطيمها، ولا تغرنكم الحكومة والاوامر والحكام الذين لا يتكلمون الا بأسم الاستعمار ولا يمثلون الا مصالحهم. فأستهينوا بهم ولا تجعلوا للظالمين الجائرين طريقاً في ان يغرروا بكم ويدفعونكم الى قتال اخوانكم وابائكم واهليكم وذبح اطفالكم، وهؤلاء الثائرون هم انفسهم رجال الثورة العراقية الذين عرفوا بتضحياتهم وهم لم يثوروا إلا في سبيل استرجاع حقوقكم المغتصبة واسترداد حرياتكم المسلوبة ولا تتبعوا اقوال الظالمين الزائفين الذين لم يكونوا بالامس إلا جواسيس للاستعمار فانبشوا عن ماضيهم، وهاهم اليوم يقومون بقسطهم من معاضدة الحركات الاستعمارية التي تحاول استعبادنا وخنق حرياتنا خنقاً نهائيا... اعلموا ايها الجنود والضباط بأن النار التي توجهونها على اخوتكم لا تقع إلا على جماجمكم فضررها واقع عليكم وان الطعنة التي تصوبونها على بني جلدتكم وامتكم لا تتجه إلا نحو صدوركم ولا تمزق إلا احشائكم، هيا وجهوا قواتكم نحو عدوكم الحقيقي الذي هو كائن موجود بين ظهرانيكم والى الانضمام الى صفوف الثوار وضرب المستعمر بما عندكم من قوة وايمان وارجعوا كيد عدوكم في نحره والى النضال لاجل الاستقلال الناجز ايها الابطال.

د/ 8 11508، 4 سنة 935
مدير الشرطة العامة
بغداد / ادارة التحقيقات الجنائية المركزية
العدد / 3985
التاريخ 5 جمادي الثاني 1354
4 أيلول / 1935
سري ومستعجل
الى / متصرفية لواء بغداد
م / حركات العمال والشيوعيين
نظراً الى انتشار بعض الاذاعات المطبوعة داخل محطة غربي بغداد ولمحاولة بث الفتنة

بين العمال وحثهم للاضراب عن العمل بمناسبة تخفيض اجور منتسبي السكك الحديد يضاف الى ذلك عدم فتح نقاباتهم وجمعياتهم وان الشيوعيين المتحدين مع هؤلاء العمال يحاولون استغلال هذا الاستياء فبالنظر الى ماتقدم ولاسباب اخرى من المحتمل القريب ظهور بعض النشرات في عيد التتويج او قبله وعليه نقدم في طيه قائمة باسماء البارزين من المشتبه بحركاتهم يرجى امركم باتخاذ الاجراءات الفعالة للحيلولة دون وقوع اي حادث كما واننا سوف نشدد المراقبة لهذه الايام وسنعرض عليكم مانقبض عليه.

نسخة منه الى: وزارة الداخلية مديرية شرطة بغداد / والبصرة / كربلاء / المنتفك / الحلة / ديالى.

التوقيع

عن مدير الشرطة العامة

ولوجود طبقة من الشيوعيين في لوائكم يرجى مراقبتهم جيداً للحيلولة دون توزيع اية نشرة يوم عيد التتويج وقبله وبصورة خاصة يرجى من مدير شرطة لواء ديالى مراقبة جميل توما ومن يتصل به لانه المحور في ادارة الحركة الشيوعية.

قائمة باسماء المشبوهين الموجودين في بغداد والذين يترددون اليها:

عاصم فليح – قد جرى التحري على داره في الاعظمية .

جميل توما – في قرداغ ويتردد الى بغداد قد اجري التحري في داره.

يوسف اسماعيل – في الاعظمية 65 / 28 محلة السفينة دار علي الامام.

عبد الفتاح ابراهيم – في وزارة المعارف دار المرقمة 5 ص /10 البتاويين.

محمد حسين الطريحي – ضابط مدفعي في الجيش محلة البتاوين.

ناظم الزهاوي – مدير اموال القاصرين محلة الدركزلي (السيد عبد الله).

عبد الكريم محمود الشيخ علي – جانب الكرخ (محلة الشيخ صندل).

حسين الرحال – محلة السفينة دار مرقمة 29/28 العائدة للسيد احمد السيد امين الاعظمي.

عبد الحميد الخطيب – 76 / 57 محلة دكان شناوة.

علي حيدر سليمان – شارع ساحة الكشافة امام البلاط 2/ 1/ 371.

عبد القادر اسماعيل / اعظمية محلة السفينة 65 / 28 مع اخيه يوسف اسماعيل / سيد جمال الدين المحامي / كاظمية قرب محطة الجوادين .

صادق كمونة المحامي – في اوتيل الامراء .

صادق / سليم الحريري المحامي – احيانا في دار السيد صالح يحي المحامي محلة صبابيغ الآل.

محمد صالح القزاز – محلة الكولات – دار مرقمة 34 / 150 والبعض ممن يشتغلون في قضايا العمال.

مكي الاشتري – محلة الشيخ خلان دار مرقمة 7 / 206 .

محمد علي ابو هاني العلوازية دار مرقمة 115 / 2 /1.
حسون ابو الجبن / محلة سوق حمادة جانب الكرخ .
احمد راضي / مستأجر مقهى عارف اغا يسكن محلة القرغولي .

ف / 17 10 /1/ 1935 - 7/1/1936.....
سري
ملخص الاستخبارات النصف شهري للنصف الاول من كانون 1935.
رقم 171 / س
تاريخ 19 /12/ 1935
المنطقة الجنوبية :
ج – في الستة اشهر المنصرمة ظهرت بادرة في الشباب العراقي واخصهم شبان بغداد ويسعون هؤلاء لتشكيل جمعيات وكتل لبث مبادئ شيوعية وقد نشروا عدة نشرات صادرتها الحكومة المحلية ولا يزال هؤلاء مستمرين في اعمالهم ويصدرون جريدة شهرية تطبع بمكتب خاص باسم (كفاح الشعب) ولهم جماعات اخرى في البصرة والمنتفك وفي بعض نواحي العراق الاخرى، وقد نشروا قبل ايام قلائل في جانب الكرخ وفي محلة البتاوين اعلاماً حمراء ركزوها في هذه المحلات وهذه الاعلام هي رمز الشيوعية.

امر المنطقة الجنوبية

نسخة طبق الاصل من بيان وزع في مدينة الناصرية في 23 – 24 / 1932، يعتقد ان محرره وموزعه الرفيق "فهد"
اتحدوا ياعمال العالم
ليحيى اتحاد جمهور عمال وفلاحي البلاد العربية
ايها العمال:
لقد حلت الحكومة المجلس السابق بحجة انها تريد استفتاء الشعب، والمجلس المنحل لم يكن سوى مجلس استفتاء في المعاهدة العراقية – الانكليزية ، ونوابه لم يكونوا سوى اصنام نحتها نوري ومسيرو نوري فصدقوا المعاهدة التي بها جعلنا عبيد المصالح الاستعمارية – البريطانية وشرّعوا قوانين جائرة لا يرضخ لها زنوج افريقيا المتأخرون. فهل يجوز لهم استفتوا الشعب ورضي الشعب ببيع نفسه. والحكومة اليوم تريد ان تمثل دور استفتاء آخر فنشرت منهاجاً ملؤه الابهام والمغالطة، وهذا من قبيل ذر الفلفل في عيوننا لكي لا نبصر

مخازيهم حتى تتم. وقد جاء في هذا المنهاج الطويل، انها تريد ترقية الزراعة وقد سلبت الفلاح المسكين آخر فلس عنده حتى اضطرته لبيع مسحاته وكذلك تريد نشر المعارف والثقافة العالية واذا بنا نرى المدارس العالية الواحدة بعد الاخرى!، وتقول انها تريد تعزيز الدفاع الوطني وهذا – على الاكثر – هو السبب الوحيد لترخيص المجلس السابق بعد ان لوثت نوابه بالخزي والعار لتجمع نواباً آخرين بعد ان تستوثق من صنعتهم – وتاخذ منهم المستندات لكي يوافقوها على خططها ويرضخوا لمشيئتها او مشيئة الاستعمار – البريطاني الذي يسير وفق اغراضه. وسيقررون لها فرض الخدمة العسكرية الاجبارية لا لتعزيز الدفاع الوطني كما يوهموننا بل لحراسة المصالح الانكليزية ومنها حراسة شركات النفط وانابيبها التي تنوي مدها في الصحراء وربما افضت سياستهم ان يسوقونا لمحاربة جارتنا ايران التي اخذت تنفض عنها غبار الذل والاستسلام للمتعجرف البريطاني. هذا هوغرضهم من جمع مجلس جديد، ولاشك انهم الآن قد وجدوا الاشخاص الذين يشاركونهم اعمالهم وصدروا اوامرهم الى المتصرفين لاخراجهم نواباً. اما الانتخابات والتظاهر بها فما هي إلا العوبة يسترون بها حياتهم. هذا هو استفتاؤهم ايها الرفاق فهل فيكم من يرضى ان يسفك دمه من اجل مصالح الانكليز. اذن فدعوا اهلكم واطفالكم واتركوهم هنا تحت رحمة اعدائكم الموجودين في داخل البلاد واذهبوا وقاتلوا اعداء اعدائكم.

لقد حذرتكم في نشرتي السابقة ** وانا احذركم الآن والوقت عصيب جداً فمن العار علينا ان نطأطئ رؤوسنا للظلم ايها الرفاق.

فألى الامام فألى الامام

- عامل شيوعي –

ملاحظة:

ورد في تقرير مدير شرطة لواء المنتفك الصادر في 25 كانون الاول 1932 بأنه " في ليلة 23/24 من الشهر الثاني عشر/ 1932 وجدت تسع نسخ من منشور مماثل للمنشور المنوه عنه في مدينة الناصرية".

****

في هذا البيان يشير الرفيق الى البيان الذي سبقه والذي نرفق مقتطفات منه ترجمها الرفيق زكي خيري عن كتاب حنا بطاطو " الطبقات الاجتماعية القديمة والحركة الثورية العراقية".

*****

مقتطفات من البيان السابق

كما وردت في كتاب حنا بطاطو*

كان اول بيان صدر في العراق يحمل شارة المطرقة والمنجل، كتبه يوسف سلمان فهد بنفسه، وعلقه في ثمانية عشر مكاناً من مدينة الناصرية، ليلة 13 كانون اول 1932 ، وكان بتوقيع "عامل شيوعي".

وقد تضمن البيان شعارات :
" ياعمال العالم اتحدوا!"
" فليعش اتحاد جمهوريات العمال والفلاحين للبلاد العربية!"
وقد اثار البيان الكثير من التعليقات المثيرة (وفيما يلي مختصره)
" ايها العمال!
" العاطلون عن العمل يملأون الشوارع ... وليس لدى عوائلهم مايسد الرمق... فهل فكرت الحكومة في مساعدتهم في مثل هذا البرد القارس؟
لم يبدر منها شيء من ذلك ... فليست الحكومة سوى عصابة معادية للشعب...
" ايها العمال! للشعب حقوق لا يستطيع تحقيقها إلا بالقوة. وهذا هو ما يعلمنا ايها التاريخ .
لا احد يشعر ببؤس العامل إلا العامل نفسه. لا احد يشعر بألم الجوع إلا الجائع نفسه.
لماذا نلوم أولئك الذين يأكلون ثمرة عملنا... ونحن الذين نشجعهم على نهبنا وسلبنا؟
فلا يخدعكم اسم فلان لانه من الاشراف أو من الاغنياء أو من عائلة كبيرة، لان جميع الشرور تأتي من العوائل الكبيرة، من الذين يزعمون انهم من الاشراف.
ايها الرفاق! كونوا شجعاناً! لاننا نناضل في سبيل كرامتنا وحياتنا، ولصالح الاجيال الاتية.
فإلى الامام ايها العمال! الى الامام في سبيل العمل المثمر، والحرية، والرفاه!"

عامل شيوعي
- يبدوا ان الترجمة الى الانجليزية مختصرة، ولم نطلع بعد على الاصل العربي – ز.خ
- وردت هذه المقتطفات في الصفحة 428 من كتاب " الطبقات الاجتماعية القديمة والحركة الثورية العراقية".

بيان الحزب الشيوعي العراقي
الى عمال السكك الحديدية

لقد نهضتم قبل احد عشر شهراً تطالبون بزيادة اجوركم، تطالبون بحق من حقوقكم وهو توفير الخبز لكم ولعيالكم لكن ادارة السكك التي يسيطر عليها الانكليز، رفضت طلبكم بحجة عدم وجود المال لديها، في حين ان ربح السكك الصافي عام 1943 كان قد بلغ المليونا دينار، عدا المصروفات وقدرها ايضاً، مايزيد قليلاً عن المليونين ومعظم هذه تذهب الى جيوب ضباط الانكليز ذوي الرواتب الضخمة والمخصصات المتعددة- المستورة والظاهرة - والى الشركات الانكليزية التي يشتري منها الجنرال سمث احتياجات ادارته باثمان عالية، لأن لسمث وضباطه الانكليز دلالية باهضة لكل مايطلبونه من الشركات الانكليزية.

ياعمال السكك! انكم اضربتم قبل احد عشر شهراً انما رفض سمث اجابة طلبكم، رغم تهديداته التي جاءت على لسان سامي شوكة عندما كان مديراً للشؤون الاجتماعية، وعلى لسان حمدي الباجه جي عندما كان رئيساً للوزارة فالأول، قال لكم، انكم اذا اضربتم عن العمل فسيرسل الانكليز طائراتهم ودباباتهم ويحرقون بغداد. وقال الثاني "ان الانكليز سيأتون بعمال هنود يحلون محلكم".

انكم ياعمال السكك اضربتم رغم جميع التهديدات، وصمدتم في اضرابكم رغم الارهاب الوحشي الذي شنه عليكم الانكليز مسخرين الشرطة العراقية والجهاز الحكومي فهدمت بعض بيوتكم، وقطعت مياه الشرب عنها، واعتدي على نسائكم وارعب اطفالكم وسيق المئات منكم الى العمل كرهاً او الى المواقف، واغلقت نقابتكم واعتقل قادتها ورفاقكم النشيطين. اجل، انكم صمدتم رغم هذا الارهاب الاسود الذي شنه عليكم الانكليز والحكومة العراقية وشرطتها، ولم ترجعوا الى العمل حتى رفعت اجوركم، وبعد ان كيلت لكم الوعود برد نقابتكم إليكم والترفيه عنكم وتشييد مساكن لكم وغير ذلك من الوعود المعسولة.

ياعمال السكك! ايها الرفاق! انكم في اضرابكم السابق ربحتم في زيادة الاجور وربحتم خبرة واسعة في النضال والصمود وفي توحيد الصفوف، وربحتم – وهذا مهم – معركة وطنية ضد ادارة بريطانية استعمارية عاتية تسيطر على اهم مشروع وطني عراقي وتسخر الجهاز الحكومي وخصوصاً الشرطة، لضرب حركة العمال والحركة الوطنية، النضال من اجل الديمقراطية، لقد ربحتم، من اضرابكم واثنائه، كل هذا ايها الرفاق وربحتم كذلك المقدرة على النضال والصمود بعد الاضراب فحاربتم "لجان العمل" الاستعمارية التي نصبها عليكم سمث، بالاتفاق مع الحكومة العراقية، لغرض القضاء على النقابات، وعلى حركة العمال الثورية، ولغرض منع توسع الحركة الديمقراطية وحطمتم هذه اللجان الفاشية الاستعمارية وبهذا احبطتم مؤامرات الجنرال سمث والحكومة العراقية الرامية الى تجريد عمال العراق من نقاباتهم لكي يستطيع سمث وطبقة سمث – الرأسمالية – من استثمار واستعباد عمال العراق وسوقهم بالقرباج. اجل، انكم ياعمال العراق! ربحتم كل هذا لا لأنفسكم فقط ، بل، لعمال العراق كافة وللحركة الوطنية التحررية، وقد سجل لكم اضرابكم السابق مفخرة وطنية لأنكم، وانتم بضعة آلاف وقفتم ضد قوى الاستعمار البريطاني، المتمثلة بالادارة الانكليزية في السكك، وضد الحكومة العراقية التي وقفت الى جانب هذه الادارة الاستعمارية على طول الخط.

اما تضحياتكم يارفاق! فقد كانت عظيمة، فقد شُن ارهاب اسود ضدكم بعد الاضراب فطرد من العمل عمال كثيرون وشرّد بعضهم، وصارت الشرطة تلاحقهم بتحريض من الادارة، واصبحت الغرامات تفرض عليكم لاتفه الاسباب ولغير سبب، ومنعتم من مراجعة الطبيب إلا فيما ندر ، وبقيت نقابتكم معطلة رغم طلباتكم الملحة ورغم الوعود المتكررة باعادتها إليكم.

ايها الرفاق! ياعمال السكك! لقد قلتم كلمتكم في العرائض العديدة التي رفعتموها، موقعة

من آلاف منكم وفي الاستفتاء الذي اجرته المديرية نفسها بانكم لا تريدون (لجان عمل) وتريد ان ترد اليكم نقابتكم المشروعة المؤسسة وفق القوانين المرعية والمنتخبة هيئتها من قبلكم انتخاباً ديمقراطياً حراً. اننا نفهم لماذا تريدون نقابتكم، انكم تريدونها لانها تمثلكم ولأنكم تناضلون تحت لوائها لتطبيق قانون العمال، وللترفيه عن احوالكم المعاشية والعامة ولرد الاعتداءات والمظالم التي تتعرضون لها من قبل ادارة سمث الاستعمارية. ونحن نفهم ايضاً لماذا يريد سمث وتريد الحكومة العراقية تجريدكم وتجريد عمال العراق من النقابات واستبدالها بـ " لجان عمل" لانهم يريدون ان يبقى قانون العمال – مثل الدستور العراقي – قانوناً ميتاً، ولانهم يريدون ان يستغلوا العامل العراقي كما يستغل الحيوان دون ان يكون له حق في رفع صوته او رد العدوان عنه، ولهذا السبب ماطلت الحكومة العراقية وسوفت معكم لكي تعطي الجنرال سمث الوقت الكافي لهيئة خدامه لكي يعيد " لجان العمل" ولكن باسم جديد، بأسم "نقابة عمال السكك" باسم نقابتكم المعطلة لكنكم عرفتم مناورات الجنرال سمث التي يشترك معه في تدبيرها سامي شوكة رئيس حزب " البعث القومي" الذي حل محل جمعية اخوان الحرية التي انحلت بعد ان افلست اختها" لجان سمث" وتشترك معه وزارة الشؤون الاجتماعية التي جاؤوها بسمث صغير ونصبوه على شعبة العمال. اجل، انكم يا رفاقنا عرفتم بهذه المؤامرة ففضحتموها بانذاركم الذي رفعتموه الى الجهات المسؤولة يوم عشرين شباط 1946 تطلبون فيه رد نقابتكم إليكم أو الاضراب عن العمل اذا لم ترد إليكم واذا لم يعطْ حد لمؤامرات سمث ضدها، وها انكم قد نفذتم الانذار باعلان الاضراب منذ عصر الاربعاء 27 شباط 1946.

ايها الرفاق! ياعمال السكك! اننا نقدر موقفكم حق تقدير؛ ونعلم علم اليقين؛ ان الحق كل الحق بجانبكم ونعلم علم اليقين انكم ستنتصرون وتنالون مطاليبكم التي اضربتم من اجلها؛ فحزبنا يؤيد اضرابكم ويؤيد مطاليب الاضراب تأييداً، وعمال العراق سيؤيدونكم حتماً، لانكم نهضتم دفاعاً عن حقٍ مشترك بينكم وبينهم وهو حق التنظيم النقابي الحر، وشعبكم سيعطف على اضرابكم ويؤيده؛ لانكم اضربتم ضد ادارة استعمارية عاتية فرضت سيطرتها المطلقة على اهم فروع الاقتصاد الوطني، النقليات استغلته ضد التجارة الوطنية وضد الصناعة الوطنية، بما فرضته على بضائعنا من اجور نقل باهضة مضاف اليها الرشوات التي غالبا ماتكون اعلى من الاجور المقررة، وبما سببته لنا من خسائر وضيق برفضها شحن منتوجاتنا وتركها تتلف في المحطات وبعدم اعتنائها بالمسافرين فتكبسهم في العربات كما يكبس السردين في العلب او كما يكبس التمر في الخصاف.

ايها الرفاق! ياعمال السكك! نحن لا نشك في انكم ستصمدون في اضرابكم حتى النهاية، ومع ذلك، فنحن نوصيكم بان تصمدوا وتصمدوا ونحذركم من عناصر السوء والشغب والتخريب التي لابد ان يدسها سمث وحلفاؤه بقصد تشويه حركتكم وخدع البسطاء، لغرض كسر الاضراب، نوصيكم ان تقووا تنظيمات لجان الاضراب وتطيعوا اوامرها، نوصيكم

ان لا تدعوا أناساً غير مسؤولين – سوى لجنة الاضراب العليا– يفاوضون الجهات المسؤولة وان لا ترجعوا الى العمل الا بأمر من لجنة الاضراب العليا بعد ان تضمن لكم المطاليب التالية:

1 - اعادة فتح نقابة عمال السكك وتسليم مفاتيحها الى هيئتها الادارية المشروعة التي انتخبها مؤتمر النقابة الاول .

2 - زيادة عامة لاجور العمال بجميع اصنافهم ودرجاتهم 25% للذين يتقاضون شهريا عشرة دنانير فما دون و15% للذين يتقاضون اكثر من ذلك.

3 - تطبيق قانون العمال على جميع عمال السكك دون استثناء السواق والمتدربين والوقادين ومأموري السير والبطاقات وعمال الاتربة وغيرهم.

4 - ايقاف تصرف المديرية الكيفي بطرد العمال وتغريمهم وانزال درجاتهم، وتأليف لجنة مشتركة من النقابة (ممثلة عن العمال) ومن الادارة للنظر في جميع القضايا التي تحدث بين العمال والادارة.

ياعمال السكك! ايها الرفاق! اصمدوا في اضرابكم حتى النهاية حتى نيل حقوقكم، وبرهنوا ثانيةً على انكم لا تخافون التهديدات والارهاب . فألى الامام، الى الفوز بحقوقكم سيروا.

بغداد في 28 شباط 1946

- فهد -

عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي

ما أشبه الليلة بالبارحة

لقد سخر الانجليز عام 1946 الرجعية الايرانية والعربية، بدعوى حقوق العرب في خوزستان، لكي ينالوا من الشعب الايراني حين أخذ يتململ.

واليوم يسخر الاستعمار الرجعية العربية والايرانية، بدعوى" عربستان" ، لكي ينال من الشعب الايراني وثورته.

لكن الرفيق فهد يقول" ان مصلحة اخواننا العرب هناك يضمنها نضالهم المشترك مع الشعب الايراني ضد المستعمر". ان هذا " الاستعمار المتباكي على مصلحة العرب ينحر شعبنا العربي في فلسطين على مذابح اطماعه الاستعمارية ".

بيان الحزب الشيوعي العراقي

(حول انزال قوات بريطانية جديدة في البصرة)

ايها المواطنون! لقد نبه حزبنا مراراً الى مؤامرات ودسائس الاستعمار البريطاني ضد الشعب الايراني وضد خوزستان بصورة خاصة مستعيناً بالرجعية الايرانية وأولاد الشيخ خزعل.

ايها المواطنون! لقد اثار الانكليز خلال الاشهر الماضية قلاقل وانتفاضات مسلحة وألفوا احزاباً رجعية منها حزب سعادة وحزب العشائر لغرض انتزاع خوزستان عن ايران. وبعد أن باءت جميع تدابيرهم هذه بالفشل جاءوا بقوات مسلحة للقيام بهجوم جديد بحجة المحافظة على أرواح البريطانيين والهنود والعرب وعلى المصالح الهندية والبريطانية من عمال شركة النفط العزل الذين قوبل اضرابهم في سبيل حقوقهو برصاص جواسيس وعملاء الشركة الانكليزية، كما قوبل اضراب عمال شركة النفط عندنا في كركوك.

ان حزبنا الذي طالب ويطالب بجلاء القوات البريطانية عن اراضي العراق ويرى في انزال قوات جديدة وفي دخول سفن حربية بريطانية الى مياه العراق اعتداءا جديدا على استقلال العراق وعلى سيادتنا الوطنية ويرى في ذلك أيضاً محاولة استعمارية دنيئة لتعكير الأمن والصفو الود بين الشعبين الايراني والعراقي ويرى فيها كذلك تحشداً استعمارياً احتياطياً لقمع كل حركة يقوم بها شعبنا للدفاع عن فلسطين وعن حرياتنا المهددة وأمانينا الوطنية في التحرر. اننا نحذر شعبنا من الأخذ بأقاويل الاستعمار وأذنابه الذين يريدون الظهور بمظهر المدافع عن حقوق العرب في خوزستان إذ ان مصلحة اخواننا العرب هناك يضمنها نضالهم المشترك مع الشعب الايراني ضد المستعمر البريطاني الغاشم. ان الاستعمار البريطاني الذي يحاول الظهور بمظهر المدافع عن العرب في خوزستان هو العدو الرئيسي للعرب فجيوشه اليوم تحتل العراق وفلسطين وشرق الاردن ومصر وليبيا وغيرها وهو الذي يستغل موارد بلادنا ويسخر جهودنا ويتحكم في جميع شؤوننا هذا الاستعمار المتباكي على مصلحة العرب ينحر شعبنا العربي في فلسطين على مذابح أطماعه الاستعمارية وهو الذي يتآمر اليوم مع الاستعمار الامريكي على تقسيم فلسطين بغية تحقيق أحلام الصهاينة.

ان حزبنا يدعو شعبنا الكريم وهيئآته الوطنية للوقوف في وجه هذا الاعتداء الاستعماري الجديد ومقاومته بكل الوسائل الفعالة كي نحقق الأمور التالية :-

1 - سحب القوات البريطالانية الجديدة واخراج البواخر الحربية من المياه العراقية.

2 - جلاء جميع القوات البريطانية الموجودة في العراق.

3 - احباط الدسائس والفتن التي يدبرها رجال الاستعمار البريطاني في العراق ضد الشعب الايراني وحكومته باشعال نار الفتن والحرب الاهلية في خوزستان متخذين من العراق قاعدة لاعتداءاتهم هذه.

4 - تنحية وزارة العمري التي تآمرت مع الاستعمار بسكوتها عن اتخاذه العراق قاعدة لاعتداءاته ضد الشعب الايراني والتي هيأت لنزول قوات استعمارية جديدة الى العراق بضرب الهيئات الوطنية الديمقراطية وبمصادرة الحريات العامة.

بغداد، 7/8/1946

فهد/ سكرتير عام الحزب الشيوعي العراقي

*** (الثقافة الجديدة) العدد 132 تموز 1981، ص 66 - 81**

نصوص مترجمة

ثلاث لحظات لعملية التحول إلى الفاشية

بقلم: ألدو بيريتا *
ترجمة: رشيد غويلب

يُجيد اليمين المتطرف توظيف الأزمات.
ولكن ما هي الديناميكيات الاجتماعية التي تُمكّنه من الصعود؟
في عام 1939، كتب ماكس هوركهايمر، من منفاه في نيويورك، مقالته ''اليهود في أوروبا''، وفيها مقولته المعروفة جيداً: ''من لا يريد الحديث عن الرأسمالية عليه أيضاً أن يصمت بشأن الفاشية''. وبهذا، أسس لعلاقة هيكلية معقدة: الفاشية كمنتج لشكل من أشكال المجتمع الذي ينتجها وينكرها في الوقت نفسه (هوركهايمر 1939، 115).



تستند هذه المقالة إلى هذه الرؤية، غير أنها تستخدم مصطلح Faschisierung (التحوّل الى الفاشية) عن قصد. يشير المصطلح الى عملية لم تُحسم نتائجها بعد. وكما يؤكد أليكس ديميروفيتش (1952، عالم اجتماع ألماني ينتمي الى المدرسة النقدية – المترجم)، فإن مفهوم (التحوّل الى الفاشية) يسمح لنا بتحليل التطورات الاستبدادية من دون افتراض وجود فاشية مكتملة قبل الأوان. ويُشير التمييز بين (التحول الى الفاشية) والفاشية إلى مرحلتين: مرحلة الحركة والاستيلاء على السلطة، ومرحلة الفاشية كشكل للحكم. ويبقى السؤال مطروحًا حول ما إذا كانت العناصر الحالية ستتوحد لتشكل شكلًا جديدًا من دولة الاستثناء الفاشية، أو ما إذا كنا نتعامل مع أشكال هجينة جديدة، وهو سؤال يتطلب توضيحًا تجريبيًا (ديميروفيتش 2026).
تختلف هذه الرؤية عن فكرة أن التحول الى الفاشية عملية تلقائية بلا فواعل. وكما يؤكد ماريو كانديا‌س (خبير أبحاث التحول الاشتراكي، واستراتيجيات أحزاب اليسار، في مؤسسة روزا لوكسمبورغ – المترجم)، لا تعني عملية التحول الى الفاشية اليوم بالضرورة استيلاء الأحزاب الفاشية على السلطة فورًا، بل إنها تدفع الأحزاب المحافظة القديمة نحو التطرف، وتجذب الطيف السياسي برمته إلى اليمين (كانديا‌س، 2025). لذا، فإن عملية التحول هذه ليست حركة ''من القاعدة'' فقط، ولا هي مجرد مشروع للنخب السلطوية، بل هي نتاج تفاعل ديناميكيات الأزمات المجتمعية، والفاعلين

السياسيين، وعمليات التنشئة الاجتماعية.
لا يمكن فهم التحول الى الفاشية كاستراتيجية هيمنة فقط، ولا كرد فعل ذاتي على الأزمات فقط. بل تنشأ عندما تواجه المشاريع السياسية الاستبدادية تجارب اجتماعية ناتجة عن فقدان القدرة على الفعل.
تحليليًا، يمكن تمييز شكلين من أشكال الوساطة في عملية التحوّل الى الفاشية، ولا يمكن فهمهما إلا معًا؛ فمن جهة، هي عملية سياسية استراتيجية تتصدى فيها القوى الاستبدادية والأحزاب المحافظة المتطرفة وقطاعات من كتلة السلطة للأزمات، وتعيد تنظيم هيمنتها، وتروج حلولا استبدادية. ومن جهة أخرى، هي عملية ذاتية تُترجم فيها تجارب العجز والمنافسة وفقدان الهيمنة إلى أشكال من إعادة استيلاء مُغترب عن القدرة على الفعل. ولا تنشأ عملية التحول الى الفاشية إلا من تفاعل هذين الشكلين من الوساطة. فبدون الوساطة السياسية الاستراتيجية، تبقى النزعات الاستبدادية منتشرة اجتماعيًا؛ وبدون الوساطة الذاتية، تفتقر المشاريع الاستبدادية إلى قاعدتها الجماهيرية.
تهدف الاعتبارات التالية إلى تحليل كلا شكليْ الوساطة في علاقتهما المتبادلة. وتتمثل الفرضية الأساسية في أن التحوّل الى الفاشية ينشأ عندما تواجه المشاريع السياسية الاستبداديّة تجارب اجتماعية ناتجة عن فقدان القدرة على الفعل. ولا يُقصد بها أن تكون نظرية شاملة لفاشية جديدة، بل مساهمة في فهم العمليات المعاصرة للتحوّل الى الفاشية. وتنطلق هذه الدراسة من مفهوم الاغتراب عند راحيل ياغي (راحيل ياغي، المولودة في برن عام 1966، فيلسوفة سويسرية – المترجم). بالنسبة لياغي، يدل الاغتراب على تجربة اجتماعية ناتجة عن الشعور بالعجز في مواجهة ظروف الحياة الشخصية: "الاغتراب يعني اللامبالاة والانقسام، والعجز، وانقطاع الصلة بالذات وبالعالم الذي يُنظر إليه على أنه غير مبالٍ وغريب" (ياغي 2016، 21). وتصف النقاط الثلاث التالية وساطات مختلفة لنفس السياق الاجتماعي، وتوضح كيف يعزز كل من إدارة الأزمات المنظمة سياسياً وتجارب الاغتراب الاجتماعية بعضهما بعضاً.

اللحظة الأولى: التقشف كشرط للتكون

إنّ صعود الحركات والأحزاب اليمينية المتطرفة مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتفكيك المنهجي لهياكل دولة الرفاه. وان التحول الليبرالي الجديد، منذ ثمانينيات القرن الماضي، والذي بلغ ذروته في برامج التقشف الأوروبية وإجماع واشنطن المفروض على الجنوب العالمي كنموذج للتنمية، قد فاقم هذا التناقض. وقد تنبأ كارل بولاني بهذا الارتباط بنيويًا. ففي كتابه "التحول الكبير" (1944)، بيّن أن السوق ذاتية التنظيم تدمر الروابط الاجتماعية التي تُبقي المجتمعات متماسكة. وتتشكل حركة مضادة لهذا التدمير: إذ تحاول المجتمعات حماية نفسها بواسطة الضمانات التي توفرها الدولة. وفي هذا السياق، لا تُعد سياسات التقشف مجرد أداة مالية للموازنة، بل هي هجوم على هذه الضمانة تحديدًا. ولا يترك بولاني مجالًا للشك في المآل الذي قد تؤدي إليه سياسات التقشف: "يمكن وصف المخرج الفاشي من المأزق الذي وقع فيه النظام الرأسمالي الليبرالي بأنه إصلاح لاقتصاد السوق، تحقق على حساب القضاء على جميع المؤسسات الديمقراطية"

(بولاني، 2015، ص 314). وبالنسبة له، فإن انهيار الليبرالية العالمية كان السبب الحقيقي للكارثة الفاشية (المرجع نفسه، ص 311).

تصف نانسي فريزر (فيلسوفة معاصرة أمريكية – المترجم) نتائج التحول الليبرالي الجديد بأنها مصيبة مزدوجة: ''من جهة، أصبحت مؤسسات الدولة التي كانت تستجيب (إلى حد ما) لاحتياجات المواطنين عاجزة بشكل متزايد عن حل مشاكلهم أو تلبية احتياجاتهم. ومن جهة أخرى، فإن البنوك المركزية والمؤسسات المالية العالمية التي حدّت من قدرة الدولة أصبحت ''مستقلة سياسياً'': فهي غير خاضعة للمساءلة أمام الجمهور'' (فريزر 2023، 207). لم يكن تآكل نظام الضمان الاجتماعي عملية طبيعية، بل كان نتيجة معارك سياسية انتصرت فيها فصائل رأسمالية استندت استراتيجيتها في التراكم إلى إلغاء القيود والخصخصة والتمويل.

يُنتج التزامن بين المصاعب المادية والعجز المؤسسي، وفق راحيل ياغي، تجربة عميقة لفقدان القدرة على الفعل. وتصف ياغي هذه الحالة بأنها ''استقلالية المرء عن أفعاله'' (ياغي 2016، 80): أي أن المرء لم يعد يشعر بأفعاله كأفعال خاصة. وتتفق تشخيصات بولاني وفريزر وياغي هنا على مستويات مختلفة من العملية نفسها. يصف بولاني تدمير البنية الاجتماعية على المستوى المجتمعي، بينما تترجم فريزر ذلك إلى تجربة مؤسسية. أما ياغي، فتتجلى عندها هذه الحالة كحالة ذاتية: تجربة العيش في ظروف يخلقها المرء ولكنه لم يعد يسيطر عليها.

في ظلّ هذه الظروف، تقدم الحركات والأحزاب اليمينية المتطرفة إعادة السيطرة كبديل. فهي تُسمّي الخسائر الحقيقية وتُصوّر الخصوم. ولا يُحمّل النظام المالي ولا علاقات الملكية المسؤولية وتُعلن ان العدو، هو الأحزاب السائدة والمهاجرون والأقليات. وتبقى طبيعة النظام نفسه دون مساس.

اللحظة الثانية: المنافسة في التوزيع والتأثيرات السياسية

لا يُقدّم التفسير الاقتصادي الهيكلي البحت تفسيراً كافياً. فقد بيّن بولاني أن تدمير شبكات الضمان لاجتماعي يُولّد بالضرورة حركة مجتمعية مزدوجة: ''فإذا كان اقتصاد السوق يُشكّل تهديداً للمكونات البشرية والطبيعية لجوهر المجتمع، كما ندعي، فماذا يُمكن توقّعه سوى أن يشعر عدد كبير من الناس بالحاجة إلى نوع من الحماية؟'' (بولاني 2015، 207 - 208). ويرى أن الفاشية كانت أحد الأشكال المُحتملة لهذا التفاعل. لكن ما يُبقيه بولاني دون إجابة هو: لماذا يميل هذا التفاعل الوقائي نحو اليمين بدلاً من اليسار؟

تُجيب زابينا نوس (حقوقية وصحفية ألمانية معاصرة – المترجم) ، في عام 2005 على هذا السؤال بمفهوم التنافس التوزيعي: فعندما تُصبح الموارد شحيحة، ينشأ التفكير التنافسي بين أولئك الذين يضطرون للنضال من أجلها. ليس النظام الذي يُنتج الندرة هو الخصم، بل المنافس في نفس بيئة الحياة. النقطة الحاسمة، التي تتجاوز بولاني، هي أن البنى الرأسمالية المتأصلة تجعل وجهات النظر اليمينية أكثر سهولة في الوصول إلى الوعي اليومي من وجهات النظر اليسارية.

"إن هذه البنى الرأسمالية المتأصلة تحديدًا هي التي تُوفر أرضًا خصبة للأيديولوجيات اليمينية" (حوار مع نوس في جريدة Freitag، في 3 شباط 26).

تُستغل هذه الأرضية استغلالًا حثيثًا. يصف ماريو كانديا‌س انتشار الأشكال الرجعية لـ "إدارة الاستياء" كسمة مميزة لعملية التحوّل الى الفاشية، مرتبطة بالتمييز الواضح بين الطبقة العليا والدنيا، وبتميز طبقي قاسٍ، والتكرار المستمر لتصوير "الآخر" كتهديد خارجي (كانديا‌س، 2025). تعمل الطبقية والعنصرية والتمييز الجنسي كأشكال فعالة اجتماعيًا للتعويض الأيديولوجي والاجتماعي عن التبعية اليومية. فهي تُمكّن اليمين المتطرف، على عكس تركيبته الطبقية الأصلية، من تحويل السخط "الناشئ" إلى دعم شعبي. لا ينشأ الاستياء تلقائيًا؛ بل يُصنع ويُوجّه ويُوظّف سياسيًا.

في ظل الظروف الليبرالية الجديدة، حيث تُحافظ الموارد كالعمالة والسكن والخدمات الاجتماعية على ندرتها بشكل منهجي، لا توجّه الحماية ضد الأعلى، بل ضد من يناضلون من أجل الحصول على نفس الموارد الشحيحة. ولا يُنظر إلى المهاجرين واللاجئين والمتضررين من الفقر كحلفاء في الهشاشة المشتركة، بل كمنافسين. ويُضفي اليمين المتطرف على هذا التنافس طابعًا سياسيًا دون أن يُشكك أبدًا في منطق التوزيع الأساسي. تُلخص نوس الأمر بإيجاز: "يمكنك أن تُوضح عشر مرات أن الهجرة ليست هي المشكلة، بل نقص الموارد التي تُوفرها الدولة، لكن ذلك لا يُغير الشعور: إنهم يسلبوننا شيئًا ما" (المصدر السابق).

ووفق ياغي، يُعدّ هذا استعادةً مُغْتَرِبَةً للفاعلية: لا يمكن تغيير الديناميكيات النظامية، لكن يمكن تسمية الخصم ومحاربته وتهميشه. وهذا يخلق إحساسًا خادعًا بالفاعلية، حقيقيًا ومؤثرًا بما يكفي ليكون فعالًا سياسيًا؛ وضارًا بنيويًا بما يكفي لتثبيت علاقات السلطة المجتمعية الفعلية.

اللحظة الثالثة: الحيازة الوهمية، وفقدان الهيمنة، وكتلة السلطة

حددت إيفا فون ريديكر (1982 فيلسوفة وصحفية ألمانية ناقدة للرأسمالية – المترجم) بُعدًا ثالثًا لعملية التحول الى الفاشية. تاريخيًا، تم تصنيف السيطرة على الآخرين على أنها ادعاء بما يشبه ملكية. تُطلق فون ريديكر عليه الملكية الوهمية: ادعاء متبقٍ ناتج عن عملية بتر (ريديكر، 2024، 97-96). يُعد فقدان السيطرة هذا الرابط الأساسي بين تحليل فون ريديكر ونقد السود الجذري للفاشية الذي أعادت فانيسا إي. طومسون (عالمة اجتماع مختصة بالدراسات النقدية للهجرة والعنصرية – المترجم) (2025) صياغته. في المراكز، يتجسد فقدان الهيمنة في صورة تساؤل حول العلاقات الاستغلالية والإقصائية؛ وفي الأطراف، في صورة تحطيم هياكل ما بعد الاستعمار وسلطة الدولة الاستبدادية. يختلف شكل الفقدان، لكن جوهره واحد. كلاهما مظهران لنفس منطق الملكية الرأسمالي، الذي يصنف الهيمنة على الآخرين كسلعة قابلة للاستهلاك. اما بالنسبة للماركسيين السود والمناهضين للاستعمار، لم تكن الفاشية مسارًا أوروبيًا فريدًا؛ بل كانت تكثيفًا لعلاقات الهيمنة المتأصلة هيكليًا في الاستعمار (المرجع نفسه).

إنّ ردّ الفعل على فقدان السيطرة هو استعادة

عدوانية للهيمنة. هذه الديناميكية لا تقتصر على فئة واحدة من أصحاب رؤوس الأموال، بل هي متأصلة بعمق في الطبقة البرجوازية الصغيرة وأجزاء من الطبقة العاملة. ان الذين استبطنوا مواقع السلطة ينظرون إلى التشكيك فيها كتهديد وجودي. بتعبير ياغي، هذا أيضاً فقدان للقدرة على الفعل، واستعادة الهيمنة بالعنف هي إعادة استيلاء مشوهة.

والحاسم في الأمر، أن هذه الديناميكية التصاعدية لا تنفصل عن مشروع فاعل من أعلى. يُبين كانديا‌س أنها تصبح خطيرة دائمًا ”عندما تدعم فصائل رأسمالية كبيرة، أو حتى تُروج بنشاط، عمليات التحول الى الفاشية سعيًا وراء أهدافها أو للتغلب على الأزمات“ (كانديا‌س، 2025). وهكذا، تستطيع الحركات اليمينية وبعض الفصائل الرأسمالية ممارسة تأثير معين لاستقرار أزمة الهيمنة من خلال إعادة تشكيل كتلة السلطة. وفي الوقت نفسه دمج الطبقات المهمشة وتفريقها. إن سياسات اليمين المتطرف، كما يُصيغها كانديا‌س بدقة، هي ”عملية واعية للتراجع المجتمعي“ لا ”تمنع فقط الاستجابة المناسبة للمشاكل المجتمعية الكبرى، بل تُحشد أيضًا قوى مضادة تُدمر الموارد اللازمة للحل“ (كانديا‌س، 2025، نقلاً عن ياغي، 2023، ص 218). وما يتبقى هو مشروع رجعي وتدميري لإثراء القلة.

لذا، فإن عمليات التحول الى الفاشية ليست مجرد رد فعل على الخسارة. فكما أكدت كلوديا جونز وجورج جاكسون وأنجيلا ديفيس (مفكرون ومناضلون سود اميون – المترجم)، هي قمعٌ فعّال للقوى المضادة من الأسفل، ”إعادة تركيب وتكثيف لعلاقات الهيمنة المصممة لعرقلة أي ثورة محتملة للمستغَلين والمحرومين من حقوقهم في أوقات الأزمات“ (تومسون، 2025). وبالتالي، فإن استعادة الهيمنة في المراكز والأطراف تخدم الغرض نفسه: فهي تمنع التبعية المشتركة من أن تصبح سياسة مشتركة. هذا هو تجسيدٌ ملموس لتشابك هوركهايمر: نظام الملكية يُنتج في الوقت نفسه القوى التي تمنع أيَّ تساؤل حول طبيعة هذا النظام.

هوركهايمر وياغي.. تفكير مشترك

اللحظات الثلاث التي مرّ ذكرها، زعزعة الاستقرار الهيكلي والاقتصادي نتيجة للتقشف، وتأثير التنافس السياسي على التوزيع، والدفاع عن الممتلكات الوهمية كرد فعل على فقدان الهيمنة - ليست تفسيرات متنافسة، بل هي أبعاد مترابطة لعملية التحول الى الفاشية. وتختلف أهميتها النسبية تبعًا للسياق السياسي. ومع ذلك، لا يمكن إغفال أي منها دون تشويه الصورة، ولا يمكن تفسير أي منها بمعزل عن الأخرى.

ما يجمع بين هذه التصورات الثلاثة هو تشخيص ياغي للعجز الناتج عن بنية المجتمع. ان عملية التحول الى الفاشية، في جوهرها، محاولة مُغتربة لاستعادة القدرة على الفعل: من خلال خلق خصوم، والدفاع عن ممتلكات وهمية، وفرض الهيمنة بالعنف. وفي الوقت نفسه، كما يرى تومسون، هي عملية فعّالة لعرقلة أي سلطة مضادة: عملية التحوّل الى الفاشية كثورة مضادة وقائية. ولا تكتسب عملية التحول الى الفاشية فعاليتها إلا عندما تتضافر التجارب الذاتية للعجز مع مشاريع استبدادية منظمة سياسياً. وقد عبّر فالتر بنيامين بدقة عن هذا المنطق بقوله: ”للجماهير الحق في تغيير علاقات الملكية؛

وتسعى الفاشية إلى التعبير عن هذا الحق من خلال الحفاظ عليها" (بنيامين 1974، 506). لعملية التحوّل للفاشية فاعلون. وتنشأ حيث تتصادم المشاريع السياسية الاستبدادية مع تجارب فقدان القدرة على الفعل. ولهذا السبب تحديدًا، فهي ليست عملية تلقائية، بل تتطلب قوة مضادة. تُكمل فرضية هوركهايمر الصورة وتُصبح هنا توجهًا استراتيجيًا. على كل من يرغب في وقف مسيرة التحول الى الفاشية أن يكون مستعدًا للحديث عن الرأسمالية: عن علاقات الملكية، وعن إنتاج الهشاشة، وعن الاقتصاد السياسي المثير للاستياء، وعن التدمير الرأسمالي للمستقبل الجماعي. لا يمكن أن يكون الرد على عملية التحول الى الفاشية إلا ما ترفضه هي: استعادة الفاعلية الجماعية من خلال قوة مضادة ديمقراطية. تقرير المصير ليس كحق فردي مُلكي، بل كممارسة جماعية، ومع تومسون، كممارسة أممية.

هذا، بمفهوم هوركهايمر وياغي، لا ينفصل عن مسألة من يُحدد شروط الحياة الاجتماعية. يبقى هذا السؤال بلا إجابة ما دامت الشروط التي تُثيره قائمة.

*** ألدو بيريتا: فيلسوف ومنظّر سياسي. بعد حصوله على الدكتوراه، شغل مناصب بحثية وتدريسية في جامعة أليس سالومون للعلوم التطبيقية ومركز تشيلي - أمريكا اللاتينية للبحوث والتوثيق. عمل بيريتا مستشارًا سياسيًا لعدد من حكومات أمريكا اللاتينية، وتعاون مع كرسي اليونسكو للتكامل الجامعي والإقليمي. والترجمة لمقالته المنشورة في 30 حزيران 2026 في مجلة "لوكسمبورغ - التحليل الاجتماعي والممارسة اليسارية"، نصف السنوية تصدر بنسخة مطبوعة ونسخة الكترونية التي تصدرها مؤسسة روزا لوكسمبورغ..**

رابط النص الألماني:

https://www.zeitschrift-luxemburg.de/artikel/drei-momente-der-faschisierung

موضوعات حول صعود اليمين المتطرف وخصوصية شرق المانيا

بقلم: نيكولا أوفنشتات *
ترجمة واعداد: رشيد غويلب

1 - حمل فوز حزب البديل من اجل المانيا في انتخابات ولاية ساكن انهالت دلالة بالغة الرمزية، لأنه عزز زخم نجاح حزب البديل من أجل ألمانيا الانتخابي، ليس فقط على مستوى الولاية، بل أيضًا في الانتخابات الفيدرالية لعام 2025، حيث حصد الحزب أكثر من 20 في المائة من الأصوات.

ومن المهم التذكير بأن الديمقراطية الألمانية قامت منذ عام 1945 على نوع من التوافق ''المناهض للشمولية'' والمناهض للنازية. إلا أن حزب البديل من أجل ألمانيا يُقوّض هذا التوافق من خلال استغلاله الملتبس للماضي ومكونه النازي الجديد الصريح.

2 – وظف اليمين المتطرف ''الحنين إلى ألمانيا الشرقية''، بواسطة استراتيجية مُحكمة لاستغلال معاناة وإحباطات الألمان الشرقيين الذين تضررت مساراتهم المهنية، والذين عايشوا التسعينيات كصدمة اقتصادية واجتماعية، وشعورٍ عامٍ بتراجع قيمة ماضيهم وأسلوب حياتهم. هناك محاولة لمساواة الشرق بنوعٍ من ألمانيا ''الأصيلة''، بالضد من الغربً الليبرالي المتطرف في عاداته واقتصاده. إن تصوير ''ألمانيا الشرقية'' كنموذجٍ لألمانيا بأكملها أمرٌ لافتٌ للنظر. ومع ذلكً، تُشير ألمانيا الشرقية، بشكلٍ أو بآخر، بوضوحٍ إلى جمهورية ألمانيا



الديمقراطية السابقة.

فعلى سبيل المثال، بات شعار ''ألمانيا الشرقية، ألمانيا الشرقية، ألمانيا الشرقية'' حكرًا على اليمين المتطرف، سواءً في التجمعات الانتخابية أو في ملاعب كرة القدم. ثمة سياق تاريخي يُتيح وضع الألمان الشرقيين ضمن حقبة جديدة تُشكّل هويتهم. بمعنى آخر، لا يُمكن فهم هذه الأحداث دون الرجوع إلى تاريخ إعادة توحيد الدولتين الألمانيتين، وإلى شعور بالحط من الشأن والتهميش والإذلال الذي عانى منه العديد من الألمان الشرقيين.

3 - طوال الحملة الانتخابية، ردد حزب البديل من أجل ألمانيا شعار ''بسمارك أكثر، هتلر أقل''. يرتبط هذا الشعار بالتاريخ

الالماني، يشن حزب البديل من أجل ألمانيا حربًا ثقافية حقيقية، تتضمن إعادة تفسير التاريخ بنتائج ملموسة للغاية. والهدف هو تناول تاريخ التجربة النازية بنسبية، تخفف من طابع وحجم جرائمها، لتسليط الضوء على جميع الحقب والأفعال التي تعزز "الفخر الألماني".

4 - هناك عوامل مشتركة لصعود اليمين المتطرف في أنحاء أوروبا، وعوامل تعكس الخصوصية الالمانية تتمثل في "التصويت ضد النظام"، ورفض تحالف أحزاب يمين الوسط السائدة. ومع ذلك، يمكن تفسير قوة حزب البديل من أجل ألمانيا في الشرق بتاريخ الشرق الخاص، بشعور الإقصاء والتهميش المتجذر في تاريخ طويل، وفي العنف الاجتماعي والاقتصادي لليبرالية الجديدة في التسعينيات، والذي أغرق الكثيرين في دوامة من الهشاشة والتدهور الاجتماعي. لا يؤدي حزب البديل من أجل ألمانيا الدور نفسه تماماً في الشرق والغرب.

*** يُعدّ المؤرخ (نيكولا أوفنشتات) متخصصًا في تاريخ ألمانيا الشرقية سابقًا، ويُدرّس في جامعة باريس 1 بانتيون سوربون. صدر كتابه "التاريخ العام لألمانيا الشرقية" في يناير/كانون الثاني 2026 عن دار النشر الفرنسية "إيديسيون تالانديه". يُحلّل أوفنشتات في كتابه الديناميكيات التي أدت إلى انتصار اليمين المتطرف في ساكسونيا-أنهالت، وهي دراسة تُؤطّر نفسها ضمن السياق الأوسع لإعادة توحيد ألمانيا وتداعيات النيوليبرالية. نُشرت المقابلة معه لأول مرة في صحيفة "لومانيتيه" الفرنسية اليومية. ونشرت صحيفة نويزدويجلاند، في 9 أيلول 2026، ترجمتها الألمانية في إطار الشراكة بين الصحيفتين.**

رابط النص الألماني:

https://www.nd-aktuell.de/artikel/1202454.landtagswahl-in-sachsen-anhalt-historiker-die-afd-bricht-den-antinazistischen-konsens.html

حوارات

حوار مع د. تحسين الشيخلي:
الذكاء الاصطناعي وعصر النهضة الجديد

حاوره: زهير الجزائري



الدكتور تحسين الشيخلي، مهندس وأكاديمي وباحث عراقي في الحوسبة ودراسات المستقبل. حصل على دكتوراه دولة في هندسة المعلوماتية من فرنسا، ومارس التدريس في الجامعات العراقية والبريطانية. في كتابه الأخير لا ينظر للذكاء الاصطناعي بصفته تقنية جديدة، بل نقلة حضارية قد تُعيد نظرة الإنسان لنفسه بصفته العارف الوحيد.

عصر نهضة جديد

الثقافة الجديدة: أنت تقول بأننا نعيش عصر نهضة جديد؟ هل هذا صحيح؟ بأي معنى؟

د. تحسين: عندما أقول إننا نعيش بدايات (عصر النهضة الجديد)، فأنا لا أستخدم كلمة النهضة بوصفها استعارة للتقدم التقني، ولا أقصد أن التاريخ يعيد النهضة الأوروبية في صورة رقمية. أنا أستعمل المصطلح لوصف تحول أعمق أعتقد أننا بدأنا نرى علاماته، تحوّل يمس المفاهيم التي بنينا عليها فهمنا للإنسان والمعرفة والعقل والعمل والإبداع، وربما موقع الإنسان نفسه في العالم.

وهنا أجد نفسي أمام جوهر ما أسميه (عصر النهضة الجديد). عندما أتحدث عن احتضار العالم القديم لا أقصد انهيار الحضارة التي نعيش فيها، ولا اختفاء المؤسسات والتقاليد

والتقنيات السابقة. أقصد شيئا أعمق.

- ما هو؟

د.تحسين: أقصد أن منظومة المفاهيم التي استخدمناها لفهم الإنسان والعالم بدأت تعاني من قصور أمام واقع جديد. النهضة الأوروبية لم تكن مجرد ظهور آلات أو اكتشافات. كانت إعادة ترتيب لموقع الإنسان في المعرفة والعالم. ثم جاءت الثورة العلمية والتنوير، وتغيرت معهما العلاقة بين العقل والسلطة والطبيعة. أما التحول الذي نعيشه اليوم فقد يحمل مفارقة تاريخية مختلفة. النهضة الأولى أسهمت في دفع الإنسان نحو مركز المشهد، أما النهضة الجديدة فقد تجبره على إعادة التفكير في معنى هذا المركز نفسه. لسنا أمام كوبرنيكوس جديد يخبرنا أن الأرض ليست مركز الكون فقط. نحن أمام منظومات صنعناها بأيدينا وبدأت تجبرنا على التساؤل عما إذا كان الذكاء واللغة والإبداع والاستدلال حكرًا علينا. وقد يكون هذا من أشد التحولات المؤلمة للوعي البشري. استطاع الإنسان، وإن بعد مقاومة طويلة، أن يتقبل أن الأرض ليست مركز الكون، وأن الإنسان نفسه جزء من التاريخ الطبيعي للكائنات الحية. لكنه قد يجد صعوبة أكبر في تقبل أن بعض القدرات التي جعل منها أساساً لتفرده، يمكن أن تظهر، بأشكال مختلفة، في منظومات غير بشرية صنعها هو نفسه. ولهذا فإن السؤال الذي يهمني ليس (هل الإنسان حاسوب؟). أراه سؤالا ضيقا أمام حجم التحول الجاري. السؤال الأوسع هو ماذا يبقى من تعريف الإنسان عندما لا يعد تعريفه كافيا بوصفه نقيض الآلة؟ لقد اعتدنا كلما اقتربت التكنولوجيا من قدرة كنا نعدها إنسانية خالصة أن نتراجع إلى خاصية أخرى، ونقيم حولها سورا جديدا. قلنا العقل، ثم اللغة، ثم الحساب، ثم الإبداع، واليوم نلجأ إلى الوعي والعاطفة والقصدية. وقد تثبت الأيام أن بعضها سيبقى بالفعل خاصية بشرية، وقد تكشف لنا تطورات المستقبل صورة معقدة ربما بشكل أكبر. لكنني أعتقد أن عصر النهضة الجديد يفرض علينا سؤالا مختلفا. هل ينبغي أن نعرّف الإنسان من خلال قائمة القدرات التي يتفوق بها على كل ما سواه؟

ربما كانت إنسانيتنا أعمق من ذلك. قد تكون في تاريخنا الجسدي والبيولوجي، وفي هشاشتنا وفنائنا، وفي علاقتنا بالآخر، وفي قدرتنا على منح الأشياء معنىً، وفي تحمل مسؤولية قراراتنا، وفي التجربة التي نعيشها، لا في المخرجات التي ننتجها وحدها.. وهذا يعيدنا إلى المعرفة من زاوية أخرى. قد يستطيع نظام اصطناعي معالجة مقدار من المعلومات يفوق قدرة أي إنسان، وقد يستطيع استخراج علاقات لا يستطيع عقل منفرد اكتشافها، لكن السؤال عن معنى هذه المعلومات وقيمتها وعلاقتها بحياة البشر لا يختفي بسبب زيادة القدرة الحسابية. على العكس، قد يصبح حرجا، لهذا لا أرى الذكاء الاصطناعي مجرد فصل جديد في تاريخ التكنولوجيا. المحرك البخاري ضاعف القوة العضلية، والحاسوب وسع قدرتنا على الحساب، والإنترنت أعاد تشكيل الوصول إلى المعرفة. أما الذكاء الاصطناعي فقد اقترب من منطقة أكثر حساسية، لأنه بدأ يشاركنا بعض العمليات التي استخدمناها لتعريف أنفسنا. ومن هنا يأتي المخاض الذي أتحدث

عنه. العالم القديم لم يمت، والعالم الجديد لم يولد بعد. نحن نقف في منطقة بينهما، حيث ما زالت مفاهيم الماضي تعمل، لكنها لم تعد تفسر كل ما يحدث. نحاول وصف الذكاء الاصطناعي بكلمات مثل الأداة والمساعد والوكيل والشريك والعقل، ثم نكتشف أن أيا منها لا يكفي بمفرده. ونستخدم كلمات مثل التفكير والفهم والوعي والذكاء، ثم نكتشف أن تطور الآلة أجبرنا على العودة إلى مفاهيم لم نكن قد حسمنا معناها حتى عندما كنا نتحدث عن أنفسنا. وهذه المنطقة بالتحديد هي التي أراها قلب عصر النهضة الجديد. إنها ليست نهضة للآلة، وليست إعلانا عن نهاية الإنسان. إنها إعادة فتح للسؤال الإنساني بعد أن اعتقدنا لزمن طويل أننا نعرف إجابته. حاولت تتبع هذا السؤال عبر رحلة بدأت من الحاسوب بوصفه آلة للحساب، ثم (تورنغ) وسؤال التفكير، مرورا بـ(فينر) و(سيرل)، وصولا إلى الأسئلة المعاصرة عند (ديفيد تشالمرز) و(لوتشيانو فلوريدي) وغيرهم. وما وجدته أن تطور الذكاء الاصطناعي لم يقدم لنا أجوبة نهائية بقدر ما أعاد فتح أسئلة قديمة بصورة لم تعد الفلسفة قادرة على تجاهلها. والسؤال هنا هل يدخل الذكاء الاصطناعي عالم الإنسان، أم أننا نحن الذين نغادر تصورا قديما لما يعنيه أن نكون بشرا؟ لا أجد ضرورة لإغلاق هذا السؤال بإجابة نهائية. ربما تكون قيمة اللحظة التاريخية التي نعيشها في أنها أعادت السؤال إلينا. فاحتضار العالم القديم لا يعني موت الإنسان، بل ربما يعني احتضار صورة صنعها الإنسان عن نفسه وظن أنها نهائية. ومخاض العالم الجديد لن يكتمل عندما نصنع آلة تشبهنا، بل عندما نفهم نحن كيف نعيد تعريف أنفسنا في عالم لم نعد فيه وحدنا من يكتب ويحسب ويستدل ويولد الأفكار. وهنا أصل إلى المعنى الذي أريده من (عصر النهضة الجديد). في النهضة الأولى كان السؤال الكبير يتعلق بموقع الإنسان في الكون والمعرفة. وفي عصرنا قد يصبح السؤال عن موقع الإنسان في عالم معرفي لم يعد فيه وحده. لذلك ربما لا يكون السؤال الحقيقي لعصر النهضة الجديد (ماذا ستصبح الآلة؟) بل (ماذا سنصبح نحن؟).

الآلة والروح

الثقافة الجديدة: في عصر النهضة أثيرت مخاوف، الآلة في مواجهة الروح، الذكاء الاصطناعي فتح بوابات مخاوف جديدة، لا تقتصر على منافسة الإنسان على مهنته، ولا في كونه منتج معرفة، بل تحوّله إلى عارف...

د.تحسين: أعتقد أن هذه هي النقطة التي تجعل ما يحدث اليوم مختلفا عن الثورات التقنية السابقة. الإنسان خاف من الآلة منذ وقت مبكر، لكنه كان يخاف منها لأنها تنافس عضلاته. الآلة البخارية حلت محل جزء من القوة الجسدية، والآلة الصناعية أخذت بعض أعمال اليد، ثم جاء الحاسوب لينافس الإنسان في الحساب ومعالجة المعلومات. أما الذكاء الاصطناعي فيقترب من منطقة أشد حساسية، لأنه لم يعد ينافس ما نفعله فقط، بل بدأ يثير السؤال عمن يعرف.. وهنا ينبغي أن نكون حذرين في استعمال الكلمات. هناك فرق بين أن نقول إن نظام الذكاء الاصطناعي ينتج معرفة، وأن نقول إنه (عارف). الفلسفة لم تتعامل مع المعرفة بوصفها مجرد امتلاك للمعلومات. كان السؤال دائما يتعلق

بالعلاقة بين المعرفة والاعتقاد والحقيقة والتبرير والفهم، ثم جاءت فلسفات أخرى لتضيف الخبرة والوعي والقصدية والسياق الاجتماعي إلى هذا النقاش. لذلك لا أستطيع أن أقول ببساطة إن النموذج اللغوي يعرف بالطريقة نفسها التي أعرف بها أنا أو تعرف بها أنت.

لكن المشكلة أن التطور التقني بدأ يربك هذا الفصل المريح.

عندما يجيب النظام عن سؤال، ويقارن بين فرضيات، ويستخرج علاقة لم ننتبه إليها، ويقترح تجربة علمية، ويبرر النتيجة التي وصل إليها، ويصحح بعض أخطائه، ويتعامل مع معلومات جديدة لم تكن موجودة عند تدريبه، يصبح من الصعب الاكتفاء بالقول إنه مجرد مخزن للمعلومات. قد نرفض وصفه بأنه (عارف)، وهذا موقف فلسفي مشروع، لكن علينا عندئذ أن نوضح ما الذي ينقصه حتى يصبح كذلك.

وهنا أرى أن سؤالا قديما يعود إلينا في صورة جديدة، وهو (من الذي يعرف؟).

طوال قرون كان الجواب يبدو بديهيا. الإنسان يعرف، والكتاب يحتوي المعرفة، والمكتبة تحفظها، والحاسوب يخزنها. كان هناك فاصل واضح بين العارف وبين الوعاء الذي توجد فيه المعرفة. الكتاب لا يعرف ما هو مكتوب فيه، والمكتبة لا تفهم الكتب الموجودة على رفوفها. لكننا اليوم نتعامل مع نظام لا يكتفي بحفظ النص، بل يستطيع الدخول معنا في حوار حوله، ومقارنته بنص آخر، واستخلاص نتائج منه، والدفاع عن تفسير ثم تعديله عندما نقدم له دليلا جديدا.

هل يكفي ذلك لكي نسميه عارفا؟ لا أعتقد أن لدينا حتى الآن جواب فلسفي وعلمي حاسم.

وربما يكون الخطأ أن نحاول الإجابة عن السؤال الجديد بتعريفات صممت لعالم لم تكن فيه مثل هذه الكيانات موجودة.

وأنا هنا لا أريد أن أنسب الوعي إلى الآلة. لا يوجد لدينا دليل علمي يتيح لنا أن نقول إن نماذج الذكاء الاصطناعي الحالية تمتلك تجربة ذاتية أو وعيا شبيها بالوعي الإنساني. لكن غياب الدليل على الوعي لا يلغي المشكلة المعرفية التي ظهرت أمامنا. فقد يكون علينا أن نفصل بين الوعي وبين بعض أشكال الفاعلية المعرفية.

وهذا ما يجعلني أعتقد أننا أمام تحوّل أعمق من قضية فقدان الوظائف. إذا أخذت الآلة وظيفة من الإنسان يمكن أن نسأل عن وظيفة أخرى له. أما إذا بدأت تشاركه موقعه بوصفه المصدر الذي نذهب إليه لكي نعرف، فنحن أمام إعادة توزيع للسلطة المعرفية في المجتمع.

لقد انتقلت هذه السلطة عبر التاريخ بين مؤسسات وأشخاص مختلفين. كانت للكاهن والفقيه والفيلسوف والعالم والجامعة، والموسوعة، والصحيفة، والخبير. واليوم يدخل إلى هذه السلسلة كيان جديد هو النظام الخوارزمي. ملايين البشر يسألون أنظمة الذكاء الاصطناعي كل يوم عن التاريخ والطب والقانون والعلم والحياة الشخصية، وقد يقبلون أجوبتها من دون أن يعرفوا المصدر الذي جاءت منه أو الطريق الذي أوصل النظام إليها.

وهنا يصبح السؤال أخلاقيا وسياسيا وحضاريا أيضا. المسألة ليست فقط هل تعرف الآلة، بل متى يبدأ الإنسان في معاملتها كما لو كانت تعرف؟ ومن يمنحها هذه السلطة؟ ومن يصححها عندما تخطئ؟ ومن يحدد ما تعلمته

وما استبعد من تدريبها؟ ومن يتحمل النتائج عندما تتحول إجاباتها إلى قرارات تؤثر في حياة البشر؟

لهذا لا يقلقني كثيرا أن نختلف اليوم حول ما إذا كان ينبغي أن نسمي الذكاء الاصطناعي (عارف) أم لا. ما يهمني أكثر أن نلاحظ أن وظيفة العارف بدأت تتغير أمام أعيننا.

وقد نكتشف بعد سنوات أن السؤال الأهم لم يكن هل أصبحت الآلة إنسانا، بل كيف تغير معنى المعرفة نفسها عندما لم يعد الإنسان وحده في الحلقة المعرفية.

داخل الحلقة أم خارجها؟

الثقافة الجديدة: حتى لو كان الذكاء الاصطناعي عارفاً، كيف يمكننا أن نثق بمخرجاته العلمية؟

د.تحسين: أفضل أن أقلب السؤال قليلاً. لماذا ينبغي أن نثق بمخرجات الذكاء الاصطناعي أصلا؟ في العلم لا نفترض أن النتيجة صحيحة لأنها صدرت عن إنسان، ولا ينبغي أن نفترض صحتها لأنها صدرت عن آلة. الثقة العلمية لا تمنح للمتكلم، بل تبنى على المنهج والدليل وإمكان التحقق وإعادة الاختبار. وهذا مهم لأن الذكاء الاصطناعي يستطيع أن يقدم إجابة شديدة الإقناع حتى عندما تكون خاطئة. لقد عرفنا في النماذج اللغوية ظاهرة إنتاج معلومات ومراجع غير صحيحة، وتطورت الأنظمة كثيرا وأصبحت قادرة على استخدام الأدوات والبحث والرجوع إلى المصادر، لكن المبدأ المعرفي لم يتغير. جودة اللغة ليست دليلا على صحة المعرفة، والثقة التي توحي بها الإجابة ليست بديلا عن التحقق منها. لذلك أتعامل مع الذكاء الاصطناعي بطريقة قد تبدو متناقضة. أثق كثيرا بقدراته، لكنني لا أمنحه ثقة معرفية مسبقة. يمكن أن أطلب منه تحليل عدد كبير من الدراسات، أو المقارنة بين نتائجها، أو البحث عن أنماط داخل بيانات ضخمة، أو اقتراح فرضية لم تخطر للباحث، وقد يستطيع معالجة حجم من المعلومات يتجاوز قدرة أي إنسان منفرد. لكن النتيجة التي يقدمها لا تصبح حقيقة علمية لمجرد أنه قدمها. ينبغي أن يكون الإنسان قادرا على العودة إلى المصدر وفحص البيانات ومراجعة الاستدلال ومقارنة النتيجة بأدلة مستقلة. وهنا أصل إلى مسألة أراها أكثر أهمية للمستقبل، وهي موقع الإنسان داخل الحلقة. الأنظمة التي خبرناها حتى اليوم، على اختلاف درجات استقلالها، ما زالت تعمل داخل منظومات صممها البشر ويحددون أهدافها ويشرفون على استخدامها. ولذلك ما زلنا نتحدث عن الإنسان داخل الحلقة (Human in the Loop). الإنسان يسأل، والآلة تجيب، والإنسان يراجع ويقرر في النهاية إن كان سيقبل النتيجة أو يرفضها. لكن ماذا يحدث إذا تغيرت هذه العلاقة؟ ماذا يحدث إذا أطلقنا العنان لتطوير أنظمة تستطيع أن تسهم في تصميم وتدريب واختبار أنظمة متقدمة أكثر منها، وتقوم هذه الأنظمة بدورها بتطوير أجيال أخرى، بينما يتراجع التدخل البشري المباشر في كل دورة؟ هذا الاحتمال لا يعني بالضرورة ظهور آلة خارجة عن السيطرة، لكنه يطرح مشكلة معرفية مختلفة. كلما ازدادت سرعة الدورة وتعقيدها، قد يصبح من الصعب على الإنسان أن يفهم بصورة كاملة لماذا اختار النظام بنية معينة، أو لماذا ظهرت قدرة جديدة، أو كيف

وصل نظام متقدم إلى نتيجة ما. عندئذ لا يعود السؤال فقط هل الإنسان داخل الحلقة أم خارجها، بل أين يقف داخلها. هل سيظل في مركز الحلقة، يحدد الأهداف ويفهم العمليات ويقيم النتائج ويتخذ القرار؟ أم سيبدأ بالانتقال نحو أطرافها، يراقب عمليات معرفية وتقنية أصبحت أسرع واكبر من قدرته على متابعتها بالتفصيل؟ هذا التحول هو ما ينبغي أن ننتبه إليه. فالوجود الشكلي للإنسان داخل الحلقة لا يكفي. قد يكون الإنسان موجودا من الناحية الإجرائية، يضغط زر الموافقة في النهاية، لكنه لا يمتلك المعرفة الكافية لفهم المسار الذي أنتج القرار. عندئذ يصبح وجوده أقرب إلى المصادقة منه إلى السيطرة الحقيقية. ومن هنا يصبح سؤال الثقة مختلفا. في الأنظمة الحالية يمكن أن نقول لا تثق بالمخرج قبل التحقق منه. لكن ماذا لو وصلنا إلى أنظمة تنتج في ساعات من الفرضيات والتصميمات والنتائج ما يحتاج البشر إلى أشهر أو سنوات لمراجعته؟ وماذا لو أصبحت بعض الأنظمة العلمية قادرة على اقتراح التجربة وتحليل نتائجها ثم تعديل الفرضية واقتراح التجربة التالية ضمن حلقة متصلة؟ سنكون عندئذ أمام مفارقة غير مألوفة. قد تزداد قدرتنا على إنتاج المعرفة، بينما تتراجع قدرة الإنسان الفرد على الإحاطة بالطريق الذي أنتجها. وهذا يعيدنا إلى السؤال الذي بدأنا منه في هذه المقابلة (من الذي يعرف؟). إذا بقي الإنسان في مركز الحلقة، يستطيع أن يستخدم الذكاء الاصطناعي لتوسيع قدراته المعرفية. أما إذا انتقل بالتدريج إلى أطرافها وأصبح النظام هو الذي يقترح ويختبر ويصحح ويطور، فقد نجد أنفسنا أمام تحول في مركز الثقل المعرفي نفسه. أنا لا أقول إن هذا قد حدث، ولا أريد أن أحول احتمالا مستقبليا إلى حقيقة حاضرة. الأنظمة الحالية ما زالت تعتمد على البشر وعلى البنية التحتية والمؤسسات والبيانات والأهداف التي يوفرها البشر. لكن الاتجاه يستحق أن نأخذه بجدية، لأن السؤال عن السيطرة لا يبدأ بعد فقدانها، بل قبل ذلك بكثير. ولهذا فإن الثقة بمخرجات الذكاء الاصطناعي ليست مسألة تقنية فقط. إنها ترتبط بموقع الإنسان في منظومة إنتاج المعرفة. وكلما ازدادت استقلالية النظام وقدرته على المشاركة في تطوير أنظمة أخرى، ازدادت حاجتنا إلى آليات تجعل الإنسان قادرا على الفهم والمراجعة والتدخل، لا مجرد الحضور الرمزي في نهاية العملية. ربما يكون السؤال الذي سيواجه العلم في السنوات المقبلة ليس فقط (هل نستطيع الوثوق بما أنتجته الآلة؟)، بل (هل ما زلنا نفهم بما يكفي لكي نقرر متى نثق بها؟). وهناك فرق كبير بين السؤالين. الأول يفترض أن الإنسان ما زال في مركز الحلقة وينظر إلى الآلة أمامه. أما الثاني فيسأل عما إذا كان مركز الحلقة نفسه قد بدأ يتحرك. وهذا، في تقديري، أحد الأسئلة الكبرى لعصر النهضة الجديد. ليس هل ستخرج الآلة من الحلقة، بل هل سيبقى الإنسان في مركزها، أم يجد نفسه يوما ما على أطراف حلقة احتلت الأنظمة الذكية مركزها؟

الخزن والتنظيم

الثقافة الجديدة: يمكنني حتى الآن أن أتعامل معه، أي الذكاء الاصطناعي، كأداة لخزن وتنظيم المعلومات، لكنني أخاف أن يأخذ صفة الإنسان كعارف حقيقي قادر على المعرفة والفهم والتبرير؟

د. تحسين: هنا نصل، إلى السؤال الأصعب في الموضوع كله. لأننا لم نعد نسأل عما يستطيع الذكاء الاصطناعي أن يفعله، بل عما يمكن أن يكونه. لو بقي مجرد مخزن ضخم للمعلومات لكانت المسألة أسهل بكثير. لدينا المكتبات ومحركات البحث وقواعد البيانات، ولم يخطر لنا أن نسأل إن كانت المكتبة تعرف الكتب الموجودة فيها. لكن النظام الذكي المعاصر يفعل شيئا مختلفا. أنت لا تستخرج منه معلومة فقط، بل تحاوره، وتسأله لماذا، وتطلب منه أن يبرر، وتعترض عليه، فيراجع جوابه، وتقدم له معلومة جديدة فيعيد بناء استنتاجه على أساسها. هنا تبدأ الحدود القديمة بين الأداة والفاعل المعرفي في الاهتزاز. لكنني سأظل حذراً من القفز من القدرة على أداء هذه الأفعال إلى القول إن النظام (يعرف) بالمعنى الإنساني للكلمة. فالإنسان لا يعرف فقط لأنه يمتلك معلومات. معرفتنا مرتبطة بتاريخ شخصي، وتجربة مع العالم، وجسد، وذاكرة، وعلاقات اجتماعية، ولغة، ومشاعر، وإدراك للذات، وللآخر. وحين أقول إنني أعرف أن النار تحرق، فمعرفتي ليست مجرد علاقة إحصائية بين كلمتي النار والاحتراق. إنها تنتمي إلى عالم كامل من التجربة الإنسانية. وهنا تظهر المشكلة الفلسفية الكبرى. هل كل هذه الشروط ضرورية للمعرفة، أم أننا جعلناها شروطا لأن الإنسان كان طوال تاريخ الفلسفة هو النموذج الوحيد للعارف الذي نعرفه؟

هذا السؤال يشغلني كثيرا. قد نكون أمام خطأ شبيه بالأخطاء التي نقع فيها عندما نجعل الإنسان مقياسا لكل شكل ممكن من أشكال الذكاء. ربما توجد معرفة لا تشبه المعرفة الإنسانية. وربما يظهر شكل من الفاعلية المعرفية لا يحتاج إلى أن يمتلك التجربة الداخلية نفسها التي نمتلكها نحن. وفي المقابل قد تكون الأنظمة الحالية بارعة جدا في محاكاة مظاهر المعرفة من دون أن يوجد خلفها ذلك الشيء الذي نسميه الفهم. نحن ببساطة لا نملك حتى الآن جوابا حاسما. وهنا أميز بين ثلاثة أشياء بالغالب ما نخلط بينها، إنتاج الإجابة، وتبرير الإجابة، وفهم الإجابة. تستطيع الأنظمة الحالية أن تنتج إجابات، وتستطيع في حالات كثيرة أن تقدم ما يبدو تبريرا لها. أما السؤال الأصعب فهو هل تفهم ما تقول؟ هذه هي المنطقة التي لم يحسمها العلم ولا الفلسفة. لكن ثمة مفارقة أراها أكثر أهمية من حسم هذا الخلاف. قد لا نعرف هل الآلة عارفة بالفعل، ومع ذلك يبدأ المجتمع في معاملتها بوصفها عارفة. وهذا أخطر من المشكلة الاصطلاحية نفسها. فالسلطة المعرفية لا تحتاج دائما إلى إثبات فلسفي. يكفي أن يعتمد الناس على كيان ما في معرفة العالم حتى يبدأ هذا الكيان في اكتساب سلطة عليهم. وإذا أصبح الطبيب والقاضي والطالب والباحث والصحفي وصانع القرار يرجعون إلى نظام ذكي قبل اتخاذ قراراتهم، فإن هذا النظام يصبح جزءا من البنية المعرفية للمجتمع، سواء اتفق الفلاسفة على منحه صفة (العارف) أم لم يتفقوا. ولهذا أعتقد أن السؤال الذي سيواجهنا لن يكون فقط (هل يعرف الذكاء الاصطناعي؟)، بل سؤال آخر قد يكون مختلفا وهو (متى بدأنا نحن نتصرف كما لو أنه يعرف؟). هناك فرق كبير بين السؤالين. الأول يتعلق بطبيعة الآلة، أما الثاني فيتعلق بطبيعتنا نحن وبمقدار السلطة المعرفية التي نحن مستعدون لمنحها لها. وربما يكون هذا أحد أهم تحولات عصر

النهضة الجديد الذي أتحدث عنه. لأول مرة في تاريخ المعرفة يظهر إلى جانب الإنسان كيان نستطيع أن نسأله، ويحاول أن يجيب، ونطلب منه الدليل فيقدمه، ونعترض عليه فيعيد النظر في جوابه. قد نختلف طويلا حول ما إذا كان هذا الكيان (يعرف)، لكن مجرد اضطرارنا إلى طرح السؤال يعني أن شيئا عميقا قد تغير بالفعل.

المعرفةّ والمسؤولية

الثقافة الجديدة: في واحدة من أخطائه الكارثية خلال الحرب الحالية بين الولايات المتحدة وايران قاد الصاروخ إلى مدرسة أطفال، كيف يتحمل المسؤولية المعرفية؟ وهو في كل الحالات بلا روح وبلا مثل؟

د. تحسين: هذا السؤال يأخذنا من المعرفة إلى المسؤولية، وهما ليسا نفس الشيء. قد يستطيع نظام ذكي أن يحلل المعلومات، وأن يرجح هدفا، وأن يقدم توصية، وربما أن يشارك بدرجات مختلفة في سلسلة قرار عسكري، لكن ذلك لا يعني تلقائيا أنه أصبح كائنا أخلاقيا يمكن أن نقول له أنت مسؤول عمّا حدث.

وأتحفظ هنا على الواقعة المحددة الواردة في السؤال ما لم نحدد الحادثة والنظام المستخدم ودوره الفعلي فيها. في الحروب المعاصرة تختلط أنظمة الاستشعار والاستخبارات وتحليل البيانات واختيار الأهداف والملاحة والأسلحة الموجهة، وليس من الدقة أن ننسب النتيجة إلى (الذكاء الاصطناعي) بصورة عامة. لكن المثال، حتى بوصفه فرضية، يضعنا أمام مشكلة حقيقية جدا.

لنفترض أن نظاما ذكيا صنف مبنىً على أنه هدف عسكري، ثم تبين أنه مدرسة فيها أطفال. من المسؤول؟ هل هو النظام الذي قدم التصنيف؟ أم المهندس الذي صممه؟ أم المؤسسة التي دربته؟ أم الجهة التي اشترته؟ أم القائد الذي اعتمد توصيته؟ أم الإنسان الذي ضغط الزر؟ هنا تظهر مشكلة أسميها (فجوة المسؤولية). كلما طالت السلسلة بين المعرفة والفعل أصبح من الأسهل على كل طرف أن يقول إن القرار لم يكن قراره وحده. وأعتقد أن علينا أن نرفض هذا المنطق منذ البداية. لا يجوز أن يتحول الذكاء الاصطناعي إلى منطقة يختفي داخلها الفاعل البشري. إذا لم يكن النظام يمتلك وعيا أخلاقيا ولا ضميرا ولا قدرة على تحمل العقوبة أو الشعور بالذنب، فلا معنى لأن نحمله المسؤولية الأخلاقية بالطريقة نفسها التي نحملها للإنسان. المسؤولية يجب أن تبقى لدى البشر والمؤسسات التي صممت النظام وسمحت باستخدامه وحددت حدود استقلاله واتخذت قرار الاعتماد عليه. وهنا نصل إلى عبارتك المهمة (بلا روح وبلا مثل). وأنا أفضل أن أفصل بين الروح والأخلاق في هذا النقاش. الروح سؤال ديني وفلسفي بالغ العمق، ولا أعتقد أن علوم الحاسوب تستطيع أن تحسمه. أما القيم والمبادئ والقيود الأخلاقية فيمكن أن نحاول إدخالها في تصميم الأنظمة وقواعد استخدامها. لكن هناك فارقا بين نظام يتبع قاعدة أخلاقية وبين كائن يدرك لماذا ينبغي أن تكون هذه القاعدة أخلاقية. يمكن أن نبرمج آلة لكي تمتنع عن فعل معين، لكن الامتناع ليس هو الضمير. الإنسان عندما يواجه قرارا أخلاقيا يستطيع، على الأقل من حيث المبدأ، أن يشعر بالمسؤولية والخوف والشفقة والندم،

وأن يسأل نفسه عما كان ينبغي أن يفعله. أما النظام الحالي فيستطيع حساب الاحتمالات وتطبيق القيود وتقديم التبريرات، لكن ليس لدينا دليل على أنه يعيش التجربة الأخلاقية التي نعنيها عندما نتحدث عن الضمير. وهذا يجعل استخدام الذكاء الاصطناعي في الحرب حالة قصوى تكشف لنا المشكلة التي قد تظهر لاحقا في مجالات أخرى. ماذا لو أخطأ في تشخيص طبي؟ ماذا لو ساهم في قرار قضائي؟ ماذا لو رفض قرضا أو فرصة عمل؟ وماذا لو اتخذ نظام مستقل قرارا أدى إلى موت إنسان؟ لا ينبغي أن يكون جوابنا في كل مرة (الخوارزمية قررت).

الخوارزمية لا ينبغي أن تصبح اسما جديدا لإخفاء المسؤولية البشرية. ولهذا أعتقد أن المشكلة الحقيقية ليست أن الآلة بلا روح. نحن نعرف أننا نتعامل مع نظام تقني. المشكلة تبدأ عندما يمنح الإنسان هذا النظام سلطة الفعل، ثم يتراجع هو عند لحظة المساءلة ويقول إن الآلة هي التي قررت. عند تلك النقطة نكون قد ارتكبنا خطأ أخلاقيا مزدوجا. منحنا آلة لا تتحمل المسؤولية سلطة تؤثر في حياة البشر، ثم استخدمنا غياب مسؤوليتها لكي نتخلص نحن من مسؤوليتنا. ولهذا كلما ازدادت استقلالية الأنظمة الذكية ينبغي ألا تقل المسؤولية البشرية، بل ينبغي أن تصبح أوضح وأكثر قابلية للتتبع والمساءلة. قد نصل يوما إلى أنظمة تختلف بشكل جذري عما نعرفه اليوم، وعندئذ سيعاد فتح السؤال حول معنى الفاعل الأخلاقي نفسه. أما الآن فلا أرى سببا يجعلنا ننقل الذنب من الإنسان إلى الخوارزمية. الذكاء الاصطناعي يستطيع أن يدخل في سلسلة القرار، لكنه لا يمنح البشر حق الخروج من سلسلة المسؤولية.

المخيف والمتفائل

الثقافة الجديدة: ما الذي يخيفك أنت منه؟

د. تحسين: تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي تتنازعها اليوم رؤيتان متعارضتان؛ رؤية تهول من نتائجها وترسم أمامنا سيناريوهات الكارثة والانقراض وفقدان السيطرة، حتى لكأنها تردد العبارة التي وضعها (دانتي) على باب الجحيم في (الكوميديا الإلهية) (أيها الداخلون، تخلوا عن كل أمل). وفي الجهة الأخرى رؤية تهون من المخاطر وتستبشر بالذكاء الاصطناعي إلى درجة تكاد تجعله خلاصا تقنيا لمشكلات الإنسان، من المرض والفقر إلى الجهل ونقص الإنتاج وربما الشيخوخة والموت في بعض التصورات الأكثر تطرفا. أنا لا أجد نفسي في أي من الرؤيتين. لا ينبغي أن يقرأ مستقبل الذكاء الاصطناعي من خلال الخوف وحده، ولا أراه خلاصا ينتظر البشرية. التكنولوجيا لم تكن في يوم من الأيام قوة مستقلة عن الإنسان والمجتمع والاقتصاد والسياسة. نحن الذين نصممها ونمولها ونحدد مجالات استخدامها ونمنحها السلطة أو نضع لها الحدود. ولذلك فإن سؤالي ليس هل سيكون الذكاء الاصطناعي خير أم شر، بل ماذا سنفعل نحن بهذه القدرة الجديدة، وماذا ستفعل بنا عندما تصبح جزءا من حياتنا اليومية. لا أخاف من أن تستيقظ الآلة ذات صباح وتقرر القضاء علينا. ما يقلقني أكثر هو تحول هادئ يحدث أمامنا وربما يحدث داخلنا نحن. أخشى أن يتنازل الإنسان، بالتدريج ومن غير أن يشعر، عن بعض وظائف عقله. لقد صنع الإنسان الأدوات دائما لكي تعفيه من الجهد.

الآلة أعفته من كثير من العمل العضلي، والسيارة اختصرت المسافة، والآلة الحاسبة تولت جانبا من الحساب، والحاسوب تولى معالجة المعلومات. لكن الذكاء الاصطناعي يدخل منطقة مختلفة. إنه يستطيع أن يقرأ عنا، ويلخص عنا، ويكتب عنا، ويقارن عنا، ويقترح عنا، وقد يتقدم أكثر في اتجاه أن يقرر عنا. وهنا تكمن المفارقة التي تشغلني. نحن نصنع آلة لكي توسع قدرات العقل، لكن الإفراط في الاعتماد عليها قد يؤدي إلى ضمور بعض القدرات التي أردنا توسيعها. ما يخيفني ليس أن يفكر الذكاء الاصطناعي، بل أن نتوقف نحن عن التفكير. أخشى أن يأتي جيل يجد من الطبيعي أن يسأل النظام قبل أن يسأل نفسه، وأن يطلب منه الرأي قبل أن يبني رأيه، وأن يكتفي بالملخص بدلا من قراءة الكتاب، وبالإجابة بدلا من رحلة البحث، وبالنتيجة بدلا من فهم الطريق الذي أوصل إليها. وعندئذ لا تكون المشكلة أن الآلة أصبحت أكثر ذكاء، بل أن علاقتنا بالمعرفة نفسها قد تغيرت. وهناك ما يقلقني أكثر، وهو أن يتحول الذكاء الاصطناعي من أداة معرفية إلى سلطة معرفية. عندما كان الإنسان يقرأ كتابا كان يعرف مؤلفه، وحين يقرأ صحيفة يعرف المؤسسة التي نشرتها، وحين يستمع إلى أستاذ يستطيع أن يسأله ويجادله. أما النظام الذكي فيستطيع أن يقدم جوابا شديد الإقناع مركبا من فضاء معرفي هائل، بينما قد لا يعرف المستخدم مصادر كل ما جاء فيه، ولا ما استبعد منه، ولا الانحيازات الموجودة في البيانات والنماذج التي أسهمت في إنتاجه. وعندما يصبح هذا النظام موجودا في الهاتف والمدرسة والجامعة والمستشفى ومكان العمل ومؤسسات الدولة، فإن المسألة لم تعد مجرد استعمال أداة. نحن أمام احتمال ظهور شكل جديد من السلطة المعرفية، سلطة لا تقول لنا بالقوة ما يجب أن نعتقده، بل تصبح هي المكان الأول الذي نذهب إليه لكي نعرف. وهنا يقع خوفي الحقيقي.

لكنني لا أريد أن يتحول هذا الخوف إلى موقف عدائي من التكنولوجيا، لأن ذلك يعيدنا إلى الرؤية الأولى التي بدأت بها. الخوف نفسه يمكن أن يصبح عائقا معرفيا مثلما يمكن للانبهار أن يصبح عائقا. المطلوب أن ندخل عصر الذكاء الاصطناعي بعقل نقدي، لا بعقل مذعور ولا بعقل مفتون. لهذا فإن موقفي يقع بين نبوءة الجحيم ووعد الخلاص. الذكاء الاصطناعي ليس قدرا مكتوبا علينا، بل قوة حضارية ما زالت تتشكل، ونحن جزء من عملية تشكيلها. وإذا كان هناك شيء أخشاه بالفعل فهو ألا نشارك في هذا التشكيل، وأن نكتفي إما بالخوف من المستقبل أو انتظار خلاص يأتي منه. وفي الحالتين نكون قد تنازلنا عن مسؤوليتنا. ولهذا ربما يكون السؤال الذي ينبغي أن نختم به ليس (ماذا سيفعل الذكاء الاصطناعي بالإنسان؟)، بل (أي إنسان نريد أن نكون في عصر الذكاء الاصطناعي؟). فمستقبل الإنسان لن تحدده قدرة الآلة وحدها، بل قدرتنا نحن على أن نبقى داخل هذا المستقبل فاعلين، ناقدين، مسؤولين، وقادرين على الاختيار.

ذاكرات ممتدة

الثقافة الجديدة: ما يهمني منه الآن، وفي بلدنا العراق، الذي تعرضت ذاكرته الجماعية لكثير من الضياع والتلاعب الفوقي، كيف نحقق من خلاله ذاكرة ممتدة ومتعددة؟

د. تحسين: هذا السؤال يمسني بصورة خاصة، لأن العراق ربما يكون من البلدان التي تحتاج إلى الذكاء الاصطناعي لا لكي يصنع لها ذاكرة، بل لكي يساعدها على استعادة ذاكرتها. وأتعمد هنا استعمال كلمة (استعادة)، لأن المشكلة العراقية ليست أننا بلا ذاكرة، بل أن ذاكرتنا موزعة وممزقة ومتنازع عليها. الحروب والانقلابات وتغير الأنظمة والهجرة ونهب المؤسسات وضياع الأرشيفات وإهمال الوثائق، إضافة إلى محاولات كل سلطة إعادة كتابة الماضي من زاويتها، جعلت أجزاء واسعة من الذاكرة العراقية موزعة بين المؤسسات والبيوت والمكتبات والصحف القديمة والصور والرسائل والتسجيلات، وبين عراقيين حملوا أرشيفاتهم الشخصية معهم إلى المنافي. ولهذا أميز بين التاريخ والذاكرة. التاريخ يحاول بناء معرفة نقدية بالماضي، أما الذاكرة فهي أوسع. إنها ما تحتفظ به الجماعات والأفراد عن حياتهم وتجاربهم ومدنهم وأحيائهم ومدارسهم ومهنهم وحروبهم وأفراحهم وخساراتهم. وفي بلد مثل العراق لا توجد ذاكرة واحدة، بل ذواكر كثيرة تتقاطع وتتعارض أحيانا. وهنا أرى فرصة كبيرة للذكاء الاصطناعي. تخيل لو استطعنا بناء أرشيف عراقي رقمي واسع، لا يخضع لرواية سياسية واحدة، نجمع فيه الصحف والمجلات والكتب والوثائق والصور والخرائط والرسائل والمذكرات والتسجيلات الصوتية والأفلام والشهادات الشفوية. ثم نستخدم الذكاء الاصطناعي لفهرسة هذه المادة وقراءتها وربط أجزائها واستعادة الأسماء والأماكن والأحداث الموجودة فيها. يمكن عندئذ لشخص يبحث عن بغداد في الأربعينيات، أو البصرة في الخمسينيات، أو الموصل في الستينيات، ألا يحصل على رواية واحدة جاهزة، بل يستطيع الوصول إلى الصحيفة والصورة والوثيقة والشهادة والمذكرات، وأن يرى الحدث نفسه من زوايا متعددة. هذه بالنسبة لي هي فكرة (الذاكرة الممتدة والمتعددة): ممتدة، لأنها تتجاوز حدود الذاكرة البشرية الفردية وحدود الجيل الواحد. الإنسان يموت، والشاهد يرحل، والصورة تضيع، والورق يتلف، لكن الأرشيف الرقمي يمكن أن يمتد عبر الأجيال. ومتعددة، لأنها لا تسمح لسلطة واحدة بأن تقول (هذه هي ذاكرة العراق). ذاكرة العراق ليست ذاكرة الحكومة وحدها، ولا الحزب، ولا الطائفة، ولا القومية، ولا العاصمة. إنها ذاكرة العراقي في بغداد والبصرة والموصل والنجف وكركوك وأربيل والناصرية والعمارة والرمادي وسواها. وهي أيضا ذاكرة اليهودي العراقي الذي غادر، والمسيحي الذي هاجر، والكردي والعربي والتركماني والأيزيدي والصابئي، وذاكرة من بقي ومن رحل، وذاكرة المرأة مثلما هي ذاكرة الرجل، وذاكرة الناس العاديين مثلما هي ذاكرة السياسيين والقادة. الذكاء الاصطناعي يمكن أن يمنحنا للمرة الأولى قدرة تقنية على جعل هذه الذواكر المتباعدة قابلة للبحث والمقارنة والربط.

لكن هنا يظهر خطر ينبغي ألا نغفل عنه: الذكاء الاصطناعي نفسه يستطيع أن يصبح أداة جديدة للتلاعب بالذاكرة. فإذا كانت البيانات التي ندربه عليها منتقاة، أو إذا تركناه يقدم رواية واحدة بلا مصادر، فقد ننتقل من التلاعب الفوقي بالذاكرة إلى شيء ربما يكون أخطر، وهو التلاعب الخوارزمي بها. عندئذ لا تعود السلطة تقول لنا بصورة مباشرة كيف

نتذكر الماضي، بل تفعل الخوارزمية ذلك من خلال ما تظهره وما تخفيه وما تضعه في المقدمة وما تتركه في الهامش. لذلك لا أريد من الذكاء الاصطناعي أن يكتب تاريخ العراق لنا. أريده أن يساعدنا على الوصول إلى مصادر تاريخنا. وهناك فرق جوهري بين الأمرين.

إذا سألت نظاما ذكيا عن حدث عراقي، فلا أريد منه أن يعطيني فقرة جميلة تبدو حاسمة وتنتهي المسألة. أريده أن يقول لي هذه الوثيقة، وهذه الصحيفة، وهذه الصورة، وهذه الشهادة، وهذه رواية الطرف الآخر، وهذه نقطة الخلاف بينها. عندئذ يصبح الذكاء الاصطناعي أداة لتوسيع الذاكرة لا سلطة تحدد مضمونها. وأتصور أن مشروع من هذا النوع ينبغي أن يقوم على مبدأ بسيط وهو أن تبقى الوثيقة الأصلية مرئية دائما. لا ينبغي أن ((يحل التفسير الخوارزمي محل المصدر)). وظيفة النظام أن يقودني إلى الوثيقة وأن يساعدني على فهم السياق والبحث والمقارنة، لا أن يطلب مني أن أثق بذاكرته هو. وهذا يقودني إلى جانب شخصي من الموضوع واعتقد تناقشنا أنا وانت في هذا سابقا. نحن من جيل يحمل في ذاكرته عراقا لم يعد موجودا بالصورة التي عرفناها. نتذكر أشخاصا وأماكن ومؤسسات وتفاصيل حياة يومية قد لا تعني شيئا للجيل الجديد، لكنها بعد عقود ستكون جزءا من المادة التي يحتاج إليها من يريد أن يفهم كيف عاش العراقيون وكيف تغير مجتمعهم. وإذا لم نسجل هذه الذاكرة الآن فسيرحل كثير منها معنا. الذكاء الاصطناعي يمنحنا إمكانيات لم تكن متاحة للأجيال السابقة. يمكن تسجيل الشهادات الشفوية وتحويلها إلى نصوص، وربط الأسماء بالأماكن والتواريخ، ومقارنة الروايات، واستعادة الوثائق القديمة، والتعامل مع ملايين الصفحات والصور التي يستحيل على فريق بشري صغير الإحاطة بها. لكن التقنية وحدها لا تصنع ذاكرة عادلة. نحن بحاجة إلى مشروع ثقافي قبل أن يكون مشروعا تقنيا، وإلى مؤرخين وأمناء أرشيف ومكتبات وجامعات وصحفيين وأدباء وفنانين، وإلى العراقيين أنفسهم داخل العراق وخارجه. ربما يكون هذا أحد أجمل الاستخدامات التي أستطيع تصورها للذكاء الاصطناعي في العراق، ألا نطلب منه أن يخبر أبناءنا من كنا، بل أن نستخدمه لكي نحفظ لهم أكبر قدر ممكن من الأدلة والأصوات والذكريات، ثم نترك لهم حق القراءة والمقارنة والحكم. لقد عانى العراق طويلا من محاولة كل مرحلة أن تبدأ التاريخ من نفسها، وأن تعيد ترتيب ما قبلها بما يناسب روايتها. ربما تمنحنا التكنولوجيا اليوم فرصة معاكسة، أن نبني ذاكرة لا يستطيع طرف واحد امتلاكها. ذاكرة ممتدة لأنها تعبر الأجيال، ومتعددة لأنها تحفظ الاختلاف، ومفتوحة لأنها تسمح بالعودة إلى المصدر، ونقدية لأنها لا تطلب من العراقي أن يؤمن برواية واحدة. وإذا استطعنا تحقيق ذلك، فلن يكون الذكاء الاصطناعي قد صنع ذاكرة العراق، بل سيكون قد ساعد العراقيين على استعادة حقهم في ذاكرتهم.

أدب وفن

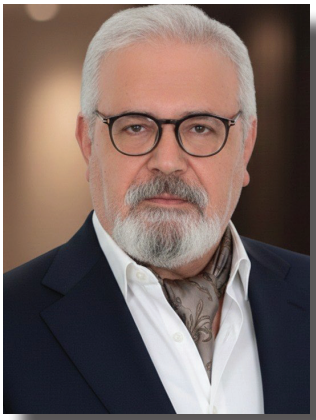
إلى كتابنا الأعزاء

حسب الله يحيى

نحتفي ونعتز ونتشرف بكل مساهمة تصل الينا.
والاحتفاء بهذه المساهمات بالنسبة إلى مجلتنا يعني أننا ندرك جيدا الجهد المبذول في كل مقال او نص يردنا، ومدى جدية ورصانة وموضوعية كل الخطابات التي تصلنا.
كما نعلم مدى التقدير العظيم الذي يكنه كتابُنا الى مجلتهم (الثقافة الجديدة). وندرك أهمية وعمق اختيارهم مجلتنا لنشر كتاباتهم المضيئة.
كذلك نتفهم المواقف الوطنية التي يحملها كل من يتوجه عبر مساهماته ورسائله ومناقشاته ورأيه الذي نكن له كل الاحترام والتقدير، نظرا لما يحمله هذا الرأي من اهتمام وحرص على المستوى العالي لهذه المجلة التي يمتد عمرها الى (73) عاما من النضال الفكري والعلمي التقدمي.
إلا اننا نلتمس من كتابنا الافاضل الصبر علينا.. ذلك ان البريد الذي يردنا مزدحم، ونحن نعتز به كثيرا، غير ان الحيز المتاح لصفحات (أدب وفن) بالذات محدود، ولا يمكن لنا تجاوزه، وذلك على وفق نظام ثابت نعتمده في تصميم المجلة وعدد صفحاتها.
الى جانب ذلك، نحرص على ان تكون صفحات (أدب وفن) منوعة، واحيانا نتجاوز على هذا التنوع الى ثقافات مجاورة.
من هنا ليس بوسعنا نشر اكثر من قصة أو قصتين أو نص أو نصين، وكذا الأبواب الأخرى ..
ولأننا نستقبل مساهمات ممتازة من كتّاب يقيمون خارج العراق الى جانب كتّاب عرب وأجانب، فضلا عن ترجمات وموضوعات الأخرى.. الى جانب كتابات شبابية مرموقة يحسن ان نأخذ بأياديها، وان نديم وجودها على صفحات مجلتنا، علما بأن مجلتنا تصدر كل شهرين.
كل هذه الاعتبارات نأمل ونلتمس ونرجو من قرائنا وكتابنا وكل المساهمين معنا مراعاتها والصبر علينا إن تأخر نشر ما يرسلونه الينا.. فليس في بالنا ولا حساباتنا إهمال كل ما يرد الينا، وانما نحن معنيون وحريصون على نشر كل كتابة خلاقة ورصينة، لذلك نأمل مراعاة ما اوردناه، مع وافر المحبة والاعتزاز.

جمهورية المئة بالمئة
حين يصبح التفوق دليلاً على انهيار التعليم

أ.د. إسماعيل نوري الربيعي



التعليم.. جذر المعرفة والثقافة والابداع، و أي عقبة تحول دون حضوره وفعاليته في حياتنا الاجتماعية، من شأنها أن تلحق اضرارا فادحة في تقدم الشعوب. هنا، نقدم رؤية نقدية رصينة ودقيقة عن التعليم في العراق الراهن.

أدب وفن

لم يعد العراقيون، بعد إعلان نتائج البكالوريا، يسألون عن عدد الناجحين أو نسبة الرسوب أو مستوى الأسئلة، بل صار السؤال الأكثر تداولاً: كم طالباً حصل هذا العام على معدل مئة بالمئة؟ تحول الرقم الكامل من حالة نادرة تستحق الوقوف عندها إلى ظاهرة موسمية مألوفة، وكأن المدارس العراقية قد اكتشفت طريقة سرية لإنتاج العباقرة بالجملة. لم تعد العبقرية تحتاج إلى مختبر علمي أو مكتبة عامرة أو بيئة مدرسية متطورة، بل يكفي أن يجلس الطالب في قاعة الامتحان ويخرج منها وقد حصل على الدرجة النهائية في جميع المواد، من دون أن يترك للمصحح فرصة لاكتشاف خطأ لغوي أو حسابي أو حتى لحظة ارتباك بشرية عابرة. لا تستهدف هذه السخرية الطلبة المتفوقين، ولا تقلل من جهودهم وتضحيات أسرهم، فبينهم من يمتلك ذكاءً حقيقياً واجتهاداً استثنائياً ويستحق التقدير. لكنها تستهدف نظاماً تعليمياً صار يتعامل مع العلامة الكاملة بوصفها دليلاً كافياً على جودة التعليم، مع أن تضخم الدرجات قد يكون في أحيان كثيرة دليلاً على عجز الامتحان عن قياس الفروق الحقيقية بين الطلبة. فعندما يصبح الاستثناء قاعدة، لا يعود استثناء، وحين تتكرر الدرجة الكاملة بهذه الكثافة، يصبح السؤال عن سلامة أدوات التقويم أكثر مشروعية من السؤال عن عدد العباقرة الذين ظهروا فجأة في عام واحد. لقد عرف العراق علماء ومفكرين وأطباء ومهندسين كباراً، وتخرج في مدارسه وجامعاته أجيال تركت أثراً واضحاً في الثقافة والعلوم والمجتمع، لكن تلك الأجيال لم

تكن تحتاج إلى مئة بالمئة لكي تثبت جدارتها. كانت الدرجة العالية تعكس مستوى معرفياً، لكنها لم تكن بديلاً عن الشخصية والثقافة والقدرة على التفكير. أما اليوم فقد أصبح المعدل هو الهوية، وتحول الطالب إلى رقم، وصار مستقبل الإنسان كله يُختصر في أجزاء من الدرجة. وبينما يُحتفى بأصحاب المئة بالمئة، يتسلل إلى الذهن سؤال أسود: إذا كان لدينا هذا الكم من العباقرة، فلماذا يبدو واقع التعليم والبحث العلمي والجامعات بعيداً إلى هذا الحد عن العبقرية؟

التضخم الدراسي وسوق العباقرة

في الأنظمة التعليمية الرصينة، تُبنى الاختبارات لكي تميز بين مستويات التفكير والفهم والتحليل والتطبيق، لا لكي تكافئ القدرة على استعادة النص المدرسي كما هو. العلامة الكاملة ممكنة بالطبع، لكنها تظل محدودة ونادرة، لأن الامتحان الجيد يترك مساحة لاختبار المرونة العقلية والإبداع والقدرة على مواجهة الأسئلة غير المألوفة. أما حين يحصل عدد متزايد من الطلبة على الدرجات النهائية، فإن ذلك قد يعني أن الاختبار لم يعد قادراً على التفريق بين الطالب الممتاز والطالب الاستثنائي، أو أن النظام كله صار يدور حول الحفظ والتوقع والتدريب على نماذج متكررة. لقد أصبحت المئة بالمئة أشبه بعملة تعرضت إلى تضخم شديد. كلما ازدادت كميتها، انخفضت قيمتها المعنوية والتربوية. قبل أعوام، كان حصول الطالب على معدل خمسة وتسعين بالمئة مناسبة كبيرة للأسرة والمدرسة، وكان ينظر إليه بوصفه إنجازاً بارزاً. أما اليوم فقد يجد صاحب هذا المعدل نفسه في موضع مواساة، لأن المجتمع رفع سقف توقعاته إلى درجة غير إنسانية. صار الطالب الذي يفقد درجة واحدة يشعر أنه أضاع مستقبله، وأصبحت الأسرة تتعامل مع تسعة وتسعين بالمئة وكأنها حادثة تستوجب التحقيق، لا نتيجة علمية ممتازة.

هكذا تحول التعليم إلى سوق تنافسية قاسية، لا مكان فيها للفضول أو المتعة أو الخطأ أو الاكتشاف. يدرس الطالب لكي يحصل على الدرجة، ويحفظ لكي يعبر الامتحان، وينسى بعد ذلك ما حفظه، لأن المعرفة لم تدخل حياته بوصفها معنى، بل بوصفها سلماً مؤقتاً للوصول إلى كلية معينة. لم تعد المدرسة فضاءً لبناء الشخصية، بل صارت مؤسسة لتجميع الدرجات، ولم يعد السؤال: ماذا تعلم الطالب؟ بل: كم حصل؟ وما إن تظهر النتيجة حتى تُعلق صوره على جدران المدارس والشوارع ومنصات التواصل الاجتماعي، كما تُعلق صور المرشحين في مواسم الانتخابات، مع فارق بسيط هو أن المرشح يعد الناس بمستقبل أفضل، بينما الطالب لا يزال ينتظر أن يعرف ماذا سيفعل بهذا المستقبل. تشارك الأسرة بدورها في صناعة هذا التضخم. تتحول البيوت خلال عام البكالوريا إلى غرف عمليات مغلقة، ويعيش الأب والأم والأشقاء حالة طوارئ كاملة. تُلغى الزيارات، وتُخفض أصوات أجهزة التلفاز، وتختفي المناسبات الاجتماعية، ويصبح الطالب مركز الكون الأسري. يبدو المشهد أحياناً كما لو أن العائلة تستعد لإطلاق قمر صناعي، لا لاجتياز امتحان مدرسي. وحين تصدر النتائج، تكتشف الأسر أن الحي كله تقريباً كان يدير برنامجاً فضائياً مشابهاً، وأن العبقرية قد

انتشرت بين الأزقة والشوارع أسرع من انتشار الخدمات الأساسية. المشكلة ليست في طموح الأسرة ولا في رغبتها في نجاح أبنائها، بل في اختزال النجاح كله في رقم واحد. فالطالب الذي يرسم أو يكتب أو يفكر أو يناقش أو يمتلك موهبة اجتماعية أو فنية قد لا يجد قيمة لمواهبه إن لم يحقق المعدل المطلوب. وهكذا تُدفن آلاف القدرات الإنسانية تحت ركام الدرجات، ويتعلم الأبناء منذ الصغر أن قيمتهم ليست فيما يعرفون أو يبدعون، بل فيما تمنحه لهم ورقة النتائج.

الفساد المالي يسرق الخزينة وفساد التعليم يسرق الإنسان

يبدو الفساد المالي فادحاً لأنه مرئي، ويمكن قياسه بالأرقام والعقود والموازنات والأموال المنهوبة. لكن فساد التعليم أشد خطراً، لأنه يعمل في صمت، ويصيب العقل والقيم والمعايير. الفساد المالي يسرق مبلغاً من المال، أما الفساد التعليمي فيسرق قدرة المجتمع على التمييز بين الكفاءة والوهم، وبين الشهادة والمعرفة، وبين النجاح الحقيقي والنجاح المصنوع. يمكن استرداد بعض الأموال المسروقة، ويمكن إعادة بناء مؤسسة تعرضت للنهب، لكن من الصعب استعادة جيل تربى على أن الرقم أهم من الحقيقة، وأن النتيجة أهم من الطريق الذي أوصل إليها.

وحين تنهار المعايير التربوية، لا تعود المشكلة محصورة في المدرسة. تنتقل العدوى إلى الجامعة وسوق العمل والإدارة والمؤسسات المهنية. تدخل إلى الجامعة أعداد كبيرة من أصحاب المعدلات المرتفعة، ثم يكتشف الأساتذة أن بعضهم لا يمتلك القدرة الكافية على كتابة فقرة متماسكة أو تحليل نص أو بناء حجة أو طرح سؤال مستقل. لا يعني ذلك أنهم غير أذكياء، بل يعني أن النظام دربهم على الإجابة ولم يدربهم على السؤال، ولقنهم النتائج ولم يعلمهم كيف يصلون إليها. هناك فرق كبير بين الذاكرة والعقل، وبين حفظ المعلومة وفهمها، وبين النجاح في الامتحان والقدرة على التعامل مع الحياة. قد يحفظ الطالب كتاباً كاملاً، لكنه يعجز عن توظيف فكرة واحدة منه في موقف جديد. وقد يحصل على الدرجة النهائية في اللغة، لكنه لا يقرأ كتاباً خارج المنهج، أو يحصل على الدرجة النهائية في العلوم، لكنه لم يدخل مختبراً مدرسياً مجهزاً ولم يجر تجربة فعلية. وهنا تظهر المفارقة السوداء: لدينا علامات كاملة في مدارس تفتقر أحياناً إلى أبسط المستلزمات، ولدينا عباقرة كثيرون في نظام لا يمنحهم بيئة مناسبة لكي تتحول عبقريتهم المفترضة إلى بحث أو اختراع أو مشروع معرفي.

لو كانت هذه الدرجات تعكس بالفعل انفجاراً استثنائياً في القدرات العلمية، لظهرت آثارها في الجامعات ومراكز البحث، وبراءات الاختراع والإنتاج الثقافي والتقني. لكانت الجامعات العالمية تتنافس على استقطاب هذه الجيوش من العباقرة، ولكانت المختبرات العراقية تعلن كل عام اكتشافات جديدة تغير وجه العلوم. لكن الصلة بين المعدلات المدرسية المرتفعة والإبداع العلمي اللاحق لا تبدو دائماً واضحة. وهذا لا يدين الطلبة، بل يدين نظاماً يوهمهم بأن الوصول إلى الرقم الكامل هو نهاية الرحلة، بينما المعرفة الحقيقية تبدأ غالباً بعد انتهاء الامتحان. إن أخطر أنواع الفساد هو ذلك الذي يرتدي

ثياب النجاح. فالفساد المالي يثير الغضب لأنه يعلن عن نفسه في مشروع متلكئ أو عقد مشبوه، أما فساد التعليم فقد يظهر على هيئة احتفال وطني وتهانٍ ولافتات وصور مزينة بالورود. يبدو الجميع سعداء، وتعلن المؤسسات أنها حققت نتائج مبهرة، لكن أحداً لا يسأل عن قدرة الامتحان على القياس، ولا عن مستوى المناهج، ولا عن علاقة الدرجات بالمهارات. وهكذا يتحول التضخم إلى إنجاز، والخلل إلى مناسبة للاحتفال.

مصنع الدرجات وانهيار المعنى التربوي

لا يمكن فهم ظاهرة المئة بالمئة بعيداً عن التحول العميق في معنى التعليم داخل المجتمع. كانت المدرسة، في صورتها المثالية، مكاناً يتعلم فيه الطالب المعرفة والانضباط والمسؤولية والتعاون والقدرة على التفكير. أما اليوم فقد تقلصت هذه الوظائف أمام هدف واحد يكاد يبتلع كل شيء: الحصول على أعلى معدل ممكن. المناهج تُقرأ من زاوية الامتحان، والأسئلة تُحل من أجل التوقع، والدروس الخصوصية تُنظم على أساس ما يرجح وروده، وأصبح المعلم نفسه محاصراً بثقافة النتيجة. ظهر نتيجة ذلك اقتصاد تعليمي موازٍ يقوم على الدروس الخصوصية والمعاهد والمذكرات المختصرة والأسئلة المرشحة والمراجعات المكثفة. لم يعد الكتاب المدرسي وحده هو المرجع، بل ظهرت حوله صناعة كاملة تقدم للطالب الطريق الأقصر إلى الدرجة. قد تكون هذه الوسائل مفيدة في بعض الحالات، لكنها تعزز في مجموعها الاعتقاد بأن التعليم عملية تقنية هدفها فك شيفرة الامتحان. يصبح المدرس الناجح هو من يتوقع السؤال، لا من يفتح أمام الطالب أفقاً جديداً للفهم، ويصبح الطالب الذكي هو من يعرف ماذا يحفظ وماذا يترك، لا من يغامر بالتفكير خارج النموذج. في هذا المصنع، يُعامل الخطأ بوصفه فضيحة، مع أن الخطأ جزء أساسي من التعلم. لا يتعلم الإنسان التفكير الحقيقي إلا حين يجرب ويخطئ ويراجع افتراضاته. لكن ثقافة المئة بالمئة لا تسمح بهذا الهامش الإنساني. إنها تريد طالباً لا يتردد ولا ينسى ولا يخطئ، كأنه جهاز حاسوبي أُدخلت إليه المعلومات بطريقة صحيحة. والمفارقة أن العالم الذي ينتظر الطالب خارج المدرسة لا يعمل بهذه الطريقة؛ فهو عالم معقد ومتغير، لا يقدم أسئلة متوقعة ولا إجابات نموذجية، ولا يمنح الإنسان درجة كاملة لأنه حفظ التعليمات. يتحول الضغط من النظام إلى الأسرة، ومن الأسرة إلى الطالب، فيعيش الشاب أو الشابة عاماً كاملاً تحت الخوف من فقدان درجة أو درجتين. لا يُسمح له بالتعب، ولا يُعترف بقلقه، ولا يملك ترف اكتشاف ميوله. الجميع يسأله عن الكلية، لكن قليلاً منهم يسأله عما يحب. فإذا ظهرت النتيجة العالية، تنفست العائلة، وإذا انخفض المعدل عن التوقع، ساد البيت شعور بالخسارة، حتى لو كان الطالب قد حقق نتيجة ممتازة. عندئذ لا يعود التعليم وسيلة لتحرير الإنسان، بل يصبح أداة لمعاقبته باسم المستقبل. كما أن تضخم الدرجات يخلق أزمة عدالة. عندما تتقارب معدلات أعداد كبيرة من الطلبة عند الحد الأعلى، تصبح أجزاء الدرجة هي التي تقرر مصائرهم. قد يفصل بين كلية وأخرى جزء صغير لا يعبر بالضرورة عن فرق جوهري في القدرة أو الاستعداد. وهكذا يتحول القبول الجامعي إلى سباق حسابي بالغ

القسوة، وتصبح بعض التخصصات حكراً على من استطاع الوصول إلى الدرجة الأكثر كمالاً، لا بالضرورة على من يمتلك الموهبة الأنسب لذلك التخصص. المجتمع نفسه يدفع الثمن حين يربط المكانة الاجتماعية بعدد محدود من الكليات والتخصصات. يُدفع الجميع نحو الطب والهندسة والصيدلة، بينما تُعامل العلوم الإنسانية والفنون والآداب وبعض التخصصات التقنية كأنها ملاذ لمن لم يسعفه المعدل. بهذه النظرة لا نخسر فقط تنوع المواهب، بل نرسخ أيضاً تصوراً طبقياً للمعرفة، يجعل قيمة العلم مستمدة من درجته في سلم القبول، لا من حاجات المجتمع أو ميول الإنسان.

من سيحصل على مئة بالمئة في بناء الإنسان؟

إن مراجعة ظاهرة الدرجات الكاملة لا تعني حرمان الطلبة المتفوقين من حقهم، ولا التشكيك في كل نتيجة مرتفعة. المطلوب هو الدفاع عن قيمة التفوق من الابتذال، لأن الامتياز الحقيقي يتضرر حين تتضخم الدرجات وتفقد القدرة على التعبير الدقيق عن المستوى.

الطالب المجتهد هو أول من يحتاج إلى نظام عادل يميز جهده، لا إلى نظام يضع أعداداً متزايدة من الطلبة عند النقطة نفسها، ثم يترك أجزاء الدرجة تقرر مصائرهم. يبدأ الإصلاح من إعادة النظر في فلسفة الامتحان، بحيث يقيس الفهم والتحليل والتطبيق، لا مجرد الاستظهار. ويحتاج أيضاً إلى تنويع أدوات التقويم، لأن قدرات الطالب لا يمكن اختزالها في امتحان واحد أو موسم واحد. كما ينبغي أن تستعيد المدرسة وظيفتها الثقافية والتربوية، وأن يصبح السؤال والنقاش والقراءة الحرة والبحث جزءاً من العملية التعليمية، لا نشاطاً زائداً يمكن الاستغناء عنه. ليس الهدف أن تصبح الامتحانات تعجيزية، ولا أن يُحرم الطلبة من الدرجات العالية كي تبدو النتائج واقعية. الهدف أن تكون العلامة ذات معنى، وأن تعكس فرقاً حقيقياً في الأداء.

الامتحان الجيد لا ينتقم من الطالب، لكنه لا يجامل المؤسسة أيضاً. إنه مرآة تكشف مستوى التعلم، لا ستارة تخفي عيوب النظام خلف أرقام مبهرة. يحتاج المجتمع كذلك إلى التحرر من عبادة المعدل. ليست كل موهبة قابلة للقياس بالورقة والقلم، وليس كل طالب مشروع طبيب أو مهندس. توجد عقول تتألق في الأدب والفن والتاريخ والاقتصاد والتقنيات والمهن والحرف، لكن ثقافة المئة بالمئة تضيق عليها الطريق، لأنها تفرض نموذجاً واحداً للنجاح. إن المجتمع السليم لا يحتاج إلى نسخة واحدة من الإنسان، بل يحتاج إلى تنوع الكفاءات والميول والخبرات. ربما سيستمر ظهور أصحاب المعدلات الكاملة، وربما ستزداد أعدادهم، وقد يأتي يوم يصبح فيه معدل مئة بالمئة غير كافٍ لدخول بعض الكليات، فنضطر إلى اختراع معدل مئة وواحد بالمئة، ثم مئة واثنين، حتى تواكب الدرجات سرعة العبقرية العراقية المتصاعدة. وربما سنحتاج مستقبلاً إلى إضافة مادة جديدة اسمها «فن الحصول على الدرجة الكاملة»، ويكون امتحانها، بطبيعة الحال، مضموناً للجميع. لكن خلف هذه السخرية يقف خوف حقيقي. فالأمم لا تنهض بكثرة الشهادات ولا بارتفاع المعدلات وحدهما، بل بقدرة التعليم على بناء عقل مستقل وإنسان

مسؤول وقيم راسخة. يمكن للبلد أن يعيش سنوات مع موازنة مضطربة أو مشروع متعثر، لكنه لا يستطيع النجاة طويلاً إذا فقدت المدرسة معناها، وإذا تحولت المعرفة إلى رقم، والكفاءة إلى ورقة، والتفوق إلى مهرجان سنوي. إن العراق لا يحتاج إلى إعلان جمهورية المئة بالمئة، بل يحتاج إلى مدرسة تعيد للدرجة معناها، وللمعلم مكانته، وللطالب إنسانيته، وللمعرفة قيمتها. أما الامتحان الأصعب، الذي لا توجد له أسئلة مسربة ولا إجابات نموذجية، فهو امتحان بناء الإنسان. وفي هذا الامتحان تحديداً، يبدو أن النتيجة ما زالت بعيدة جداً عن المئة بالمئة.

في أعدادنا المقبلة

ـ من حياة جندي المدفعية / قصة : يوسف أبو الفوز .
ـ وطفة / قصة : احمد ناهد.
ـ ريادة النقد الثقافي في العراق / د.علي إبراهيم .
ـ قراءة في كتاب شرق المتوسط / د. رباب هاشم البيضاني.
ـ الصمت بوصفه معرفة / عبد الغفار العطوي.
ـ نجمة لمدن زائلة / مسرحية : د.محمد سيف.
ـ السرديات البنيوية والسرديات ما بعد البنيوية ـ تجاوز ام تكامل ؟ / أ.د. سيدي محمد بن مالك.
ـ بنية الخلود / قصة: هدى الرابحي .
ـ الخوف لايليق بأمراة ينام الفجر في عينيها / قصة : زين الدين بو مرزوق .
ـ قراءة في مسرحية "سيزيف البغدادي" ـ سعد عزيز دحام .
ـ تجربة فيصل العيبي الفنية / موفق وجواد الطائي.
ـ قراءة في قصة محمد خضير / ياسين غالب.
ـ محمد خضير وكاظم الساهر / رياض العلي.
ـ من المحتوى الى الشكل / حيدر الكعبي.
ـ من بريد الكهولة / طالب عبد العزيز.
ـ ثقل الريشة / د. زياد أبو لبن.
ـ نظام التربيع / خالد خضير الصالحي .
ـ الدراما في اساطير وطقوس وادي الرافدين / د.معتز عناد غزوان .

عن الناصري/ تموز واشياء أخرى

طالب عبد الأمير



بلمحة بصر خاطفة سقطت من زاوية عيني سهواً لاحظت شروده الرتيب. كان محلقاً في فضاءات قصية جداً، حتى أن جسده الممتلئ نسبياً، بالكاد يشغل حيزاً في المكان الذي نجلس فيه، أو هكذا شعرت في تلك اللحظة التي أسقط فيها فتيل الشمعة الذي كان يتوسط المسافة القصيرة بيننا ضوءاً، سرعان ما خبا ومن ثم تلاشى في ضوضاء الأحاديث المتفرقة وروائح القهوة ونكهات الشاي والمعجنات الحلوة والمالحة. كان يجلس كما اعتاد على الكرسي القريب من المدخل، بيني وبينه طاولة دائرية الشكل دُمجت بطاولتين أخريين، فشكلت ثلاثية تشبه زهرة تتوسط عددا من الكراسي المتلاصقة، وبشكل أدق يشبه شعار الحركة الكشفية، او كما نسميها نحن الكشافة، حيث يجلس بقية الشلة، وأمامه كتابٌ، فقد دأب على المجيء الى المقهى يتأبط كتاباً يضعه على الطاولة حين يجلس ويحمله معه عندما ينفض المجلس، يعود به الى بيته ماسكا اياه باليسرى المتكئة على القلب، ويسير بخطى ثابتة كما لو كان محارباً يريح بندقيته على كتفه.

أسرت له ذات مرة ما كنت أفكر به حول طريقة حمله الكتاب، فكان جوابه المبتسم المعهود ''العن قلبك''.

فنبتسم لابتسامته. كانت حالته تلك ليست سوى مرحلة انتقالية الى التلاشي التام للذاكرة، تلك التي كانت خزاناتها ممتلئة بصدى الأحداث التي فاضت بها الأزمنة والمسافات، التي تسابقت لاهثة وراء أحلام تقنعت بأضغانها، فقد بات يأتي الى مقهى الخميس في موعده المحدد، وبعد أن يلقي بالتحية على الجالسين برفع يده، يتخذ مكانه دون حراك. يبقى هكذا طوال الجلسة حاضراً جسداً فحسب، وقد تمر من بين مسامات روحه ذاكرة شاحبة مسرعة يحاول الامساك بها، لكنها تنزلق من يديه كنحت خيال ثم تذوب وتتلاشى في القصي البعيد. يظل يحرك رأسه بين الفينة والاخرى تعبيراً عن تأكيد حضوره ومشاركته مستمعا، وإن سأله أحد عن شيء ما، تأتي كلماته بطيئة غير مسموعة متعثرة بحروفها.

لوهلة شعرت بأن لمحة البصر طال مداها، لذا حاولت تقطيع شباك نظرتي التي نسجها عنكبوت اللحظة الهاربة من مديات الزمن

المحاصر بالأسئلة الموجعة التي لفحتني سخونتها، فأدرت بصري نحو الباب، أبحث عن قشة تنتشلني من غرق لا مناص منه. عندها تملكني، وعلى حين غرة شعورٌ أخذ يحفزني الى أن أسافر معه محلقاً بالفضاءات التي وصل اليها.

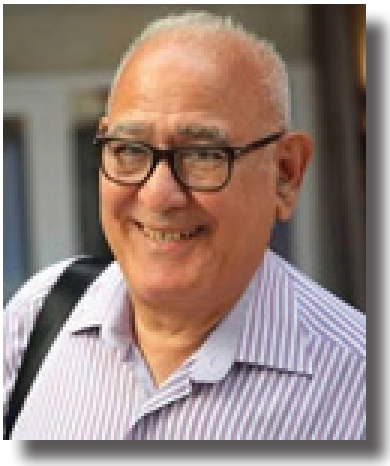
أغمضت عيني برهة وحين فتحتهما وجدته ماثلا أمامي بكامل قيافته وأناقته المعهودة. كان ذلك في موسكو في اذار من العام 1991 حيث برد عاصمة الثلوج قارص، حد اللعنة، وبالرغم من أنني عشت في اوروبا سنوات طوال وأعتدت على برودة الطقس اللاذعة، حيث كانت درجات الحرارة تهبط الى 30 وحتى الى اربعين درجة تحت الصفر، كنت اشعر بالبرد. لكن شمس موسكو في تلك الفترة من السنة تمنحك إحساساً بالألفة والدفء على نحو ما. كان هو يقف متكئاً على منصة الكسندر بوشكين في ساحة بوشكينسكايا أو ساحة بوشكين، وسط موسكو، والتي تعد من أكثر الساحات ازدحاماً، ولولا أنه أومأ بيده إلي، لما كنت عرفته إذ كان يرتدي معطفا سميكا ويعتمر القلنسوة الروسية المسماة بـ"أوشانكا" التي تشكل رمزاً روسياً مشهوراً وتذكاراً شعبياً، تماما مثل دمية "الماتريوشكا" وآلة العود الروسية "بالالايكا" كنا قد اتفقنا على اللقاء عند بوشكين لنذهب بعدها سوية الى المقهى الشهير الذي يرتاده العراقيون، ومن بلدان أخرى. حينما وصلنا كان عادل اسماعيل قد سبقنا الى هناك. كان عادل يعمل محرراً ومترجماً في صحيفة انباء موسكو، قبل أن تحرقها نار البريسترويكا التي اشتعل أوارها في تلك السنة بالذات، التي أصاب لهيبها، مراكز ومؤسسات كثيرة، من بينها الأسواق التي باتت تصفر من شحة البضائع والتضخم بالذي بلغ مستويات عالية، فتجد في المحلات علب الكارتون الفارغة، حلت على الرفوف بدلاً من البضائع، وامتدت الطوابير على السلع، والمطاعم الرخيصة والأكلات الجاهزة والسريعة، لكن أطول طابور وقف فيه الموسكوفيون حينذاك كان على الماكدونالز، الذي فتحت له أخيراً الابواب الروسية، بعد طول انتظار، وأولها كان بالقرب من بوشكين.

في تلك الاثناء مرت بخاطري فكرة ظننتها بسيطة إذ حاولت استدراج نفسي الى المقارنة بين أحاديثه وديناميكيته في مقهى بوشكين، في موسكو، قبل أكثر من ثلاثين عاماً وما تلاها في ستوكهولم او في بغداد في مناسبات لاحقة، وبين جلوسه الصامت الآن في مقهى "آفنين" وسط العاصمة السويدية. في أحاديثه ومناقشاته، كان يتحدث بعبارات مدوزنة بفواصل تعطيه مساحة من التفكير فيما يقول، وحتى بعد ان تبدأ "الستاليجنايا" - كما كان يلفظها هو على الطريقة الروسية الخالصة، الخالية من بهارات المهاجرين الذين يحوّرون المفردات الأجنبية بما يتلاءم وطريقة ما اعتادوا عليه النطق - ارسال علم الأصوات النطقي الفونيميك، والفوناتيك، بعزف سمفونيتها الهادئة التي يثقل دبيبها اللسان ويبطئ الكلمات، يحاول أن يبقيها محافظة على وقارها وعلى تفرده في ذكر بعض مصطلحاته الوصفية التي أصبحت ملازمة له، كمصطلح "الأرأس" الذي استعاره من المفكر هادي العلوي، وظل محتفظاً بنبرته الخطابية التي يلجأ اليها كلما حاصره سؤال لم يكن متهيئاً لجوابه بالعامية فتلوح له الفصحى، فيأخذها كما هي غير آبه بمطباتها. نعم، أعرف بأنني سرحت كثيراً في مخيلتي الهائمة في الفضاء البعيد. لكننا نحن الاثنان بتنا الان في مدار واحد. وأنا أسمعه يتحدث عن مسقط رأسه، أو مكانه الأول، كما يحلو له أن يسميه،

عن الناصرية، حيث ولد فيها في العام 1944 التي حمل أسمها كنية ظل يطوف بها بلدان التغرب والمهاجر. وهو عندما يصفها يقول انها مدينة التناقضات، المتطلعة نحو الشمس، فهي تجثو على نهر، لكنها تشرب من مياه نهر اخر، أو يستعير في وصفها من الباحث حنا بطاطو في دراسته "الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية" بأنها "المدينة المشهورة بروح الحرية التي لا تقهر".

في موسكو كنا نلتقي في كل يوم تقريباً، أحياناً نلتقي في بيت عادل وبصحبة آخرين، وأخرى في المقهى، بعد أن ينجز كل واحد منا أشغاله. وأنا قد حالفني الحظ، الى جانب معرفتي به، بأن الرفيق الذي سكنت غرفته يدرس الأدب الروسي، وكانت مكتبته مليئة بروايات روسية مترجمة، نقل جلها الى اللغة العربية الروائي الكبير غائب طعمة فرمان، الذي التقيته في بلغراد في أكتوبر من العام 1988 في المؤتمر العالمي للكتّاب الذين يعيشون في المنافي وبلدان المهجر، حيث اسهمت بدعوته الى هذا اللقاء الذي نظمه اتحاد كتاب صربيا، حين كنت أعيش في البلقان، وقد دعاني هو لزيارته في موسكو، لكنني ذهبت الى عاصمة الثلوج متأخراً على دعوته، فلم أجده فوق الأرض التي غادرها قبل عام من ذلك التاريخ ودفن قريبا من المكان الذي كنت اسكن فيه.

في تلك الفترة لم يكن الناصري منشغلاً بتموز، بثورتها، وبقائدها، بعد، كما عرفناه لاحقاً وبتخصص تام، فهو قد درس في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ببغداد، وعُين بعد تخرجه موظفاً في وزارة الشؤون الاجتماعية، بصفة مفتش عمل. ومن ثم تخصص في مجال الأجور والحركة النقابية في العراق، بعد أن شارك في دورات تعليمية قصيرة، برعاية



د. عقيل الناصري

الأمم المتحدة، اكتملت بالتحاقه بالدراسة العليا في معهد موسكو للاقتصاد الوطني - بليخانوف. وكان ذلك عام 1973 حيث انجز دراسته في المجال الاقتصادي في العام 1979، حاصلاً على شهادة الدكتوراه، لكنه ومنذ صباه كان ميله قاسمياً بحكم عدد من العوامل الذاتية والموضوعية: نشأ وترعرع في بيئة أكسبته خلفيته وطنية، إذ أن أباه كان منتمياً الى الحزب الوطني العراقي في الناصرية، ثم وبعد انتقال العائلة الى بغداد أصبح كادراً متقدماً فيه خلال ثلاثينيات القرن الماضي، كما كان قد شارك في حركة سوق الشيوخ في العام ١٩٣٥، وحكم عليه بالسجن مدة ١٥ عاماً، ومن ثم اعفي عنه وعن بقية المشاركين في تلك الانتفاضة المسلحة، بُعيد تشكيل حكومة الانقلاب الأول. تنتمي أسرته اجتماعياً الى الفئة فوق المتوسطة من حيث الدخل والمكونة من خمسة أخوة وأربع أخوات كان ترتيبه الخامس بين افرادها الذين بينهم من نال شهادة جامعية عليا، وآخر آثر الاهتمام بالعمل الثقافي والسياسي. كما عزز هذه الخلفية وجود مكتبة العائلة التي

كانت عامرة في علوم التاريخ والفقه واللغة. الا انه في اواسط الاربعينات، وعلى اثر الازمة الاقتصادية التي حصلت في العراق، انحدر الوضع الاقتصادي للعائلة الى ما دون المتوسط، ومع بداية الخمسينات انتقلت عائلته الى بغداد، وسكنت في محلة صبابيغ الآل الشعبية، وهناك نشأ عقيل وترعرع في اجواء تشابكت فيها العلاقات الاثنية والطائفية الاجتماعية، وفي خضم الصراعات السياسية التي افرزتها الاحداث السياسية التي عاشها العراق خاصة ودول المنطقة بشكل عام في خمسينات القرن الماضي، وكل هذه الشرارات المنفلتة قد أوقد لهيبها فتيل التساؤلات في ذهن الفتى، عن ماهية القوى التي بيدها مفاتيح الحل لفك عقدة الازمات التي عجز الفكر التقليدي واللاهوتي عن الإجابة عليها. في تلك الفترة انجز الدراسة الابتدائية ومن ثم المتوسطة. لكن بدخوله الجامعة بدأت حياته تميل الى دراسة الواقع المجتمعي بمنهجية اكثر قرباً من الحياة العملية، مبنية على أسس مادية جدلية البعد لفهم الظواهر، فتعرف على عدد من الزملاء في الدراسة والفكر والطموح، وتخرج من الجامعة ليواجه المجتمع بأول خيبة أمل عانى منها كثيراً، بسبب عدم حصوله على عمل في الدوائر الرسمية فشعر بغياب العدالة حيث يجد من هُم اقل منه شأناً من الناحية العلمية والدراسية يحصلون على وظائف مرموقة، بعد تخرجهم، لا لشيء سوى أنهم من ابناء النخبة الحاكمة. حتى جاءته فرصة المشاركة بامتحان القبول في وظيفة مفتش عمل في مديرية الخدمة العامة. رغم ان هذه الوظيفة كانت بعيدة عن اختصاصه، لكنها فتحت له نافذة نحو مسارات وظيفية تطلبت منه الى جانب الخبرة التطبيقية مهارة نظرية، تمكن من تلبيتها، فكان اول بحث اجراه حول اجور العمال والحركة النقابية في العراق.

وأول محطة في حياته المكانية مذ غادر الوطن، كانت موسكو التي جاء اليها في العام 1973 لتعميق دراسته للعوامل الاقتصادية والاجتماعية المحددة للأجور. وفي 21 آذار العام 1979 دافع عن اطروحته ونال شهادة الدكتوراه. ولم تكن الدراسة وحدها التي حققها عقيل في موسكو، بل وفي بناء اسرة فقد تزوج من زميلة له في المعهد. وفي ذات الشهر الذي حصل فيه على شهادة الدراسات العليا، ولدت ابنته نادية.

كان عقيل مفعما بالأمل مشرئبا بعودته الى الوطن والعمل في مجال اختصاصه، لكن بعد حدوث ما اسماه النكبة السياسية في البلاد وانفراط التحالفات والانفراد بالسلطة من قبل البعثيين، وما قاموا به من اعتقالات واغتيالات وسجون لحلفاء الامس من الشيوعيين واليساريين والديمقراطيين، حذره الأهل من العودة في تلك الفترة القاسية ونصحوه بالبقاء في مكانه، الى أن تتحسن الظروف وتستقر الأحوال. لكن لا الظروف استقرت ولا الأحوال تحسنت في العراق، بل وحتى في موسكو التي شكلت، كما قال عنها الحلقة المركزية الثانية في حياته، حيث تعمقت فيها رؤيته للمجتمع الروسي وعرف فيها شيئاً عن العلاقات الإنسانية، وتعرف من خلالها عن قرب على جملة من الفنون كالباليه وسماع السمفونيات بدأ يحس من خلال المصاهرة والعيش المشترك، ان الحياة فيها بدأت تئن من واقع تطورها البطيء جداً وتنامي البيروقراطية فيها. كل هذا دفعه الى شد أحزمة الكتب وأمتعة الترحال الدائم في بلدان التغرب. كانت الجزائر محطته التالية، إذ عاش في الجزائر العاصمة ومن ثم في وهران الجميلة. كانت الجزائر في تلك الفترة قد فتحت ذراعيها لاستقبال الكوادر العلمية

العراقية وفي كافة المجالات، فعمل عقيل في التدريس الجامعي، وكتب بحوثا حول الأجور نظريا وفي الاقتصاد العراقي، وأشرف على عدد من أطاريح الدكتوراه ورسائل الماجستير. والى جانب عمله التعليمي فقد كان فعالاً على صعيد العمل الفكري، حيث كان عضوا في لجنة الدراسات والقضايا الفكرية، التي ضمت شخصيات سياسية وفكرية عراقية ماركسية، من بينها "مع حفظ الألقاب" كاظم حبيب، عبد العزيز وطبان، صالح ياسر، حسام جبر وغيرهم. لكن ذلك لم يدم طويلاً فالوضع تبدل في الجزائر، بعد صعود الاسلاميين للسلطة؛ حيث شهدت الجزائر حملة لقمع مظاهر الحياة الثقافية ومؤسساتها وتقييد الحريات كما اندلعت عمليات الاغتيال، وظهرت الى السطح مسألة معاداة الأجانب، فغادرت الكوادر العلمية العراقية الجزائر وانتشروا في بلدان العالم. فعاد الناصري القهقرة الى عاصمة الثلوج، بحثا عن مكان قريب من أهل زوجته، لكن هذه الرغبة سرعان ما اصطدمت بالقوانين التي لا تسمح بالعيش بالمكان الذي يرغب فيه، بل في المكان المسجلة فيه الزوجة، وهي قرية على تخوم موسكو، معظم سكانها يعملون بالزراعة وقسم ضئيل يعمل في معمل نسيج قديم، والآخر عاطل عن العمل. فعاد التفكير بشد الرحال من جديد، وهذه المرة الى السويد محطته الأخيرة مرغما، "فالعين مازالت ترنو نحو بغداد والقلب يخفق فيها، ينشدان المستحيل والموانع كثيرة"، حسب وصفه.

ظل الناصري في مستقره الأخير قلقاً من فكرة ان لا يعود الى الوطن، فخفف من وطأة هذا القلق بمشاركته الجالية العراقية في فعالياتها الثقافية والاجتماعية والسياسية، حيث أسهم في تأسيس التيار الديمقراطي العراقي في ستوكهولم، ولجنة الدفاع عن حقوق الانسان، واتحاد الكتاب العراقيين في السويد وغيرها. لكن الشيء الأهم في حياة الناصري والذي امده بالعزيمة والاستقرار النسبي هو لجوؤه الى البحث والتقصي في القضية الأهم و"الارأس"، في تاريخ العراق، خلال القرن العشرين، الا وهي ثورة 14 تموز 1958 وقائدها عبد الكريم قاسم. وقد بدأ الأمر، ان لم تخنّي الذاكرة، هكذا... إتصل بي عقيل ليخبرني عن كتابته مقالا ويريد مني مراجعته قبل ارساله للنشر. كان المقال عبارة عن قراءة مكثفة لما حدث في آخر يوم من عمر الزعيم عبد الكريم قاسم في شباط 1963 وصدر المقال على هيئة كراس ملحق بجريدة المجرشة، التي كانت تصدر في لندن بادارة الفنان التشكيلي فيصل لعيبي، في عدد شباط للعام 1979 بعنوان "ليلة الصعود الى سماء الخلود". لم يكن الإصدار مقالاً عاديا وعابراً، بل مادة بحثية، قدم فيها الباحث عقيل الناصري دراسة تحليلية لليوم الأخير من حياة الزعيم عبد الكريم قاسم، ورغم قلة صفحاته التي لا تتجاوز عشر صفحات بحجم A4 أو 40 صفحة A6 مدعماً بـ 70 مصدرا استند اليها الناصري، عن الزعيم الذي يعد من اكثر الشخصيات التي حكمت العراق اثارة للجدل في تاريخه المعاصر، فضلا عن ذلك فإن عنوان المقال او الكراس يشي بتأثره باعتقاد فئة واسعة من الناس بأن الزعيم عبد الكريم قاسم الذي لم يشهد العراق قائداً للسلطة نزيها وشعبيا مثله على مدى تاريخ العراق.

كان بمثابة حلم جماهيري تجلت صورته كمنقذ منتظر من حالة البؤس والمعاناة التي عاشوها ومازالوا يتطلعون نحو غد سعيد، تحول هذا الرمز الى اسطورة عند البعض، ومنهم من ظل ولفترة طويلة يعتقد بأنه لم يمت وبعض منهم

كان يراه كلما نظر الى السماء في اكتمال دورة القمر. رغم توثيق إعدامه بالصوت والصورة، بعد أن حاصره منفذو انقلاب الثامن من شباط المشؤوم في العام 1963. وتحضرني في هذا السياق قصة عشت تفاصيلها وانا في التاسعة من عمري.

ففي أحد الأيام وبينما كنت عائداً من المدرسة سيراً على الاقدام أحث الخطى الى دارنا، وإذا بي أشاهد جمهرة من الناس تقف امام البيت. توجس قلبي من أن حادث مؤسف قد حصل. لم انتظر طويلا حتى اندفعت مسرعا للدخول الى البيت فمنعني أحد الواقفين، فقلت له هذا بيتي أعيش فيه مع اهلي. أجابني الرجل بأنه يعلم ذلك، ويعلم ايضاً بأن أهلي بخير، ولكن هناك أحد الأشخاص أبلغ الشرطة بأنه رأى الزعيم عبد الكريم قاسم، متوجها الى بيتكم؟ فتحت عيني على وسعيهما، ونظرت ببلاهة للجمع الغفير ثم انفجرت بالضحك. سألني أحدهم: ولم تضحك؟ فأجبته فرحاً، بأن الزعيم لم يمت، ومجيئه الى بيتنا، ليتأكد بنفسه من أن هديته وصلت. فضحك الآخرون. وسألوني عن اية هدية اتحدث؟ قلت لهم، ان الزعيم، أرسل الى جميع بيوت العراقيين التي ولد فيها طفل في يوم تورة 14 تموز حقيبة تحوي ملابس وأشياء كثيرة أخرى خاصة بالاطفال. وفي بيتنا ولدت أختي التي اسميناها كريمة تيمناً باسم الزعيم عبا الكريم قاسم.

كان ذلك الإصدار "المجرشي" قد شكل انطلاقة الناصري في البحث العميق في ثورة 14 من تموز، وما أسسته من ركائز لبناء دولة مدنية حرة لم يشهد لها العراق، بل والمنطقة مثيلاً من قبل. وحصيلة كل هذا الجهد الكبير، كماً كبيراً من الدراسات والمقالات في وسائل الاعلام والتواصل المختلفة، فضلا عن تقديمه الندوات التي كان يدعى اليها من قبل الأندية الثقافية العراقية التي انتعشت في بغداد، بعيد سقوط النظام السابق، في محاولة لإرواء الظمأ الفكري والمعرفي الذي خلقه النظام الشمولي عند الفرد العراقي، ومنه العودة الى ثورة 14 تموز لدراستها بموضوعية، وعكس نتائج افشال تجربتها على الحياة الاجتماعية والسياسية اليوم وحتى في المستقبل، باعتبارها الثورة الرائدة، التي مكنت من صعود طبقات جديدة الى سدة الحكم، بكل ما حملته من قيم ومعايير وبنى ثقافية رسمت خارطة عراق جديد، بزعامة قائد اثبت، رغم قصر امد حكمه، (الذي امتد من 14 من تموز 1958 حتى الانقلاب الدموي الذي قام به حزب البعث في 8 شباط عام 1963 انه رجل من عامة الشعب، بل "أصبح هذا الفقير المعدم ذو الثياب المهلهلة حاكماً، ليزحف زحف الذين كفروا على الاكواخ والصرائف وعلى كل ما فيها من تعساء ليحيلها الى شقق وعمارات وبيوت ترى لأول المرة النور والكهرباء والحدائق والشوارع، منتقماً من ماضيه، ثائراً على مرارة واقع البؤساء" حسب قول الشاعر محمد مهدي الجواهري.

كان عقيل فرحاً باهتمام الوسط الثقافي العراقي بمنجزه، وبما يتمتع به شخصياً من خصال اجتماعية طيبة وروح مرحة تتعطر بالابتسامة والتسامح، فحينما يكون في بغداد كان يجد نفسه. اذكر في احدى المرات التي كنت فيها في الوطن اتفقنا أن نلتقي في المتنبي، لنذهب بعدها الى مجلس السلم والتضامن في مقره الواقع قبالة أبي نؤاس. وصلت الى الشارع وقد سبقني اليه، بقينا بعضاً من الوقت الشارع بذروة الازدحام، ولم نستطع الخروج منه قبل أن تمر ساعة او اكثر، فالكل يلقي بالتحية على الناصري ويريد التحدث معه، وبعض

الصحفيين يلتقطون له الصور طالبين منه تعليقاً، وما ان خرجنا من المتنبي عبر سوق السراي، حتى صادفنا "عبوسي" الفنان حمودي الحارثي، الذي صافحناه وتحدثنا معه، وكرر شكره لدعوة الجالية في ستوكهولم له في احد مواسمها الثقافية. وبينما هو يتحدث تجمع حولنا مجموعة من الناس الراغبين في الحديث معه، وكانت تلك فرصة للإفلات من الزحام واللحاق بموعدنا في مجلس السلم والتضامن. وفي تلك الزيارة وما بعدها، التقيت عقيل في مقر الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، وكان قد طلب مني ان أكون معه في الاجتماع الذي عقده باسم اتحاد الكتاب العراق في السويد، مع الامين العام الشاعر الراحل إبراهيم الخياط والناطق الرسمي باسم الاتحاد آنذاك الشاعر عمر السراي. بعدها جلسنا في نادي الاتحاد بصحبة الشاعر كاظم غيلان الذي تعرفت عليه في ذلك الوقت.

في لحظة تنبهت الى أن عقيل ليس في مكانه، سألت عنه فجاء الجواب مقتضباً لقد ذهب. لكنه ترك الكتاب الذي جاء به متأبطا إياه على الطاولة؟ ثم تذكرت أنني طلبت منه استعارته فأومأ برأسه علامة القبول، لكنني، ولسبب ما تركته في مكانه على الطاولة، لربما فكرت بأنني سآخذه لاحقاً حين ينفضُّ المجلس فيتفرق الأصدقاء كل الى بيته على أمل اللقاء في الخميس التالي. لكن ذلك التالي لم يأت فقد أبحر طويلاً في تخوم الزمن، تاركا وراءه ذكريات لا تنسى.

بيتُ الكتابة

رعـد فاضل

(1)

غرفةٌ كأيّة أخرى لكاتب ومثقّف آخرَ، متوسّطةُ الرَّفاهية أو أقلّ بقليلٍ: مكتبةٌ بضلعينِ على شكل حرفِL)) من خمسة طوابقَ، ضِلعُ كلّ طابق هو الآخر بيتٌ لعائلات من الكتب. طابقٌ يأوي صقراً نحاسيّاً فاردا جناحيه ومُنْشِباً مخالبَهُ بكرة أرضيّةٍ – يبدو لي أنّه أحياناً من تعبٍ يبسطُهُما- تحتَه نُصبٌ لقلب صغير مشطورٍ من أعلىً: في الشّطر وردةٌ فَتيّة حمراء، يتربّع القلبُ على قالب كَيْكٍ دائريٍّ بأربع شمعات مغروزاتٍ حولَه مثل سياج، ولا أنسى أنّ القلب تخترقه نُشّابة كيوبيدَ الشّهيرةُ: ريشتُها في كتفه اليمنى أمّا نصلُها فبارزٌ من خاصرته اليسرى (تـذكارٌ يعود إلى عام 2010 لا يزال سخيناً وعاقداً سعادتهُ المأمولةَ بلحية الأمل). جنبَ التّذكار مرآة منضديّةٌ بين ساقيها مِلْـقطانِ ومَبْرد وقَصّاصةُ أظافر بينما تنتصب في أعلى رفّ من جهة جلوسي اليمنى زَهريّةٌ برسوم ونقوشٍ خضراءَ مُزرقّةٍ بأرضيّة ضاربةٍ إلى الصُّفرة، وسطَها جاريةٌ تجلس على حافّة حوضٍ نافور ماءٍ واضعةً ساقاً على أخرى تضربُ على عُودٍ: عن يمينها جاريتانِ تنقران على دُفّين، وعن شمالِها أخرَيانِ تنفخانِ في نايين، قُبالتَهما شابّ مضطجعٌ على تختٍ أميريّ: في يده قدحٌ لشدّة مَيلانهِ يبدو ثملاً مثلَ حاملهِ، على قَسماته أَماراتُ حزن نبيلٍ أمّا عيناه فأكثر من دامعتين. منضدةُ كتابةٍ من خشب السّاجِ هي الأخرى



بيتٌ لأوراق ومَقلَمةٍ، لأقراصِ كالسيوم، رومالجينَ (مروِّخ عضلات)، عويناتٍ طبيّة، قَطّارةِ عينٍ optilar، مُعطِّر (نوع دموع الورد والسّيدةِ الزّرقاء)، مصباحِ نِفطيّ وآخر يدويّ، مُسوَّدتَي مخطوطين شعريين، المنجدِ في اللغة للويس معلوف بطبعته الخامسة والثلاثين، دفترِ ملاحظات ومشاهداتٍ يوميّة.

على الحافّة اليمنى للمنضدة فِيلانِ بزيين هنديين يبدوان ذكراً وأنثىً ذلك أنّهما عاقِدانِ خرطومَيهما على شكلِ قُبْلةٍ، مُثبّتانِ على قاعدة بيضويّةٍ محفورٌ على حافّتها الأماميّة:euro collection ، وسطَهما ساعة مُدوّرةٌ (الفِيْلانِ من شكلِ ضمِّهما للسّاعة يبدوان كما لو أنّهما يحرسانِ الزّمنَ: زمنَ المنضدة ومُواطنيها).

حَصّالتا حفيدتيَّ سَما، ونادينَ Snow White and Seven) Dwarfs) دائماً في الرّفّ الموازي لنظري، في التفاتةٍ منهما لئلّا أنسى

يوميّتيهما من النّقود. قبالةَ السّرير تسهر كلَّ ليلة مدفأة نفطيّةٌ تخطّى دفؤها سنّ اليأس، أمّا فنجان القهوة وقدحُ الشّاي فكانا كلّما تثاءبتُ وثقلتْ أجفاني يُفزّزاني كما لو أنّهما حارسان ليليّان أُنيطَتْ بهما حراستي من النّوم!

دائماً ما كانت تمسكُ بأزياق تأمُّلي فكرةٌ عجيبة ما لكنّها اليومَ صارت ممسِكةً بخَناقي، فكرةٌ لا تبرز إلّا وأنا في الغرفة أرى إلى كتبي كما لو أنّها أحد عشر ابناً لي، ومخطوطاتي الخمس وكأنّهنّ بناتي. أرى إلى هذه الذّريّة (من الكتابة: أُنثايَ الوحيدة المُنصرفةِ إليّ وحدي) كيف تعيش في مكان مُبرَّز من بيت مكتبتي.

فكرةٌ سؤالٌ: مَن أَبُ هؤلاء، أبٌ بعينه أم عِدّةُ آباء؟ من جهتي: في كلّ كتاب أنا آخَرٌ كأنّه يكاد يكون غيري! لكنْ هذا سؤالٌ لابدّ من طرحهِ على الكتابة وحدها ذلك أنّها الأمّ الوحيدة لهذه الذّريّة بلا ريب.

(2)

الكتابة أجمل أنواع الفذوذيّةِ وأشرسُها، فأنْ أكون شاعراً وكاتباً من هذا النّوع لابدّ أن أجترح أسلوبَ لعب شخصيّ نصّاً وتنظيراً، ومن دون ذلك لن أكون سوى لاعب من بين آخرينَ كُثْر، وهذا لم يكن كافياً ومُرضِياً لي قطعيّاً يوماً ما.

من أوّلٍ لم أعرف من مَسّني مسَّ مقتدرٍ فإذا بي كأنّي على رَفرَفٍ له وجهُ غيمة لشدّة بياضه يكاد لا يَبينُ، حَطّني وسطَ هائلات حُسنٍ: قامت أشمسُهنّ وشقّت بظِفْرٍ مائلٍ إلى الذّهب ما تحت ثديي الأيسر شقّاً لطيفاً، وصارت تقلّبُ بين يديها ما يُشبه كهفاً له شكلُ قلبٍ، تقلّبُ وتعجبُ من شتائه الزّمهريريّ الطّويل. ثمّ قامتْ أبْدرُهنّ وشقّت بظِفر ضاربٍ إلى الفضّة ما بين عينيّ وأخذت تقلّبُ النّظرَ، وكانت كلّما أشعلتْ نجماً كان من خلفها يطفئهُ مثلَ شمعةٍ بإصبعه الظّلام.

أحلامي لم تكن يوماً مكلِفةً وإنّما صغيرة كبَتلاتٍ في مُقتبَل الشّتْل لو أعلنتُ عنها لتندَّر عليها أكثرُ الشّتّالينَ تواضعاً وأقلُّهم حظّاً وشأناً! كم كنت أحتاج ولو إلى أيّة فضْلةٍ من أيّما سَقْط متاعٍ لأيّما حظّ شرطَ أن لا يكون جافّاً وأعمىً كما جرتِ القِسمَة والنّصيبُ معي! أحتاج إلى أن لا يحتاجني أو يفتقدَني أحدٌ، وأن لا أفتقدَ أحداً. أحتاج إليّ وأنا في مُقتبَلي إذ ربّما أدبِّر عيشاً غيرَ الذي عشتُ: لكنتُ وقتَها انتخبت أكثرَ أنواع الكتابة لِيْناً، فأكون الواضح الأَتِيَّ ليِّنَ الجانب الجماعِيَّ طويلَ البالِ الثّابتَ المَرضِيَّ عنه المداهِنَ الذي يُؤْلَفُ ويُحَبُّ لرقّة حاشيته وانبساط وجههِ، إلى آخر ما لستُ ما كنتُه وما أنا السّاعةَ عليه. حتّى بَتلاتُ هذه الأحلام على فساد أغلبِها تجاهلَها بستانيُّ الحظّ، مع هذا لا أزال خلف نَوْلِ عيشي منصرفاً إلى حياكة بساط ريح لأحلامي. ولكن لو لم أكن كما قدَّمتُ لكنت فقدْتُ متعةَ أن أحلم بي: مُعذَّباً كما أنا الآن عليه إذ إنّ للأحلام كما لأيّة قوّة خدّاعةٍ أخرى سحرَها وعجائبَها. مع هذا إنّ ما يُبلبِلَني يُسعِدُني لأحلم أكثرَ من دون أن أعيش فعليّاً هذه الأحلام التي أتعبتُها بتعويلي عليها.

كم قاومت النّوم بالشّاي والقهوة، وأتعبت اليقظةَ طويلاً بسهري على الأحلام. أتعبتُ مناصبةَ الحظّ العداءَ لي باللوم. أتعبتُ من يفتقدني ومن لا يفتقدُني. أتعبتُ الكآبةَ اللصيقةَ بي بالنّدم. أتعبت الكتابة بالتّكهُّن والتّشذيب والتّثقيف والنَّمنَمة والتّشذير والحَبْك والحياكة والصّياغةِ حتّى كدت أتيهُ بين الأقواس وقواعد الإملاء والنّحو والصَّرف والمدسوساتِ والعَنْوَنات والهوامش والمتون. تعبتُ أكثرَ من

ما يبتغيه لي ألدُّ أنواع البخوتِ وأشدُّها قسوةً حتّى بدأتُ: أفقدُني. ولكي أُريحَ وأستريح بتّ أكدُّ لأظلّ حالِماً كي أنسى مثلما دائماً أنْسى.
أنا أكثرُ بكثير من حزينٍ، أنا ريحٌ غليظة القلب وربّما أشهرُ عصفورٍ في قلّة الحيلةِ وحيداً أقفُ على غصنٍ وحيدٍ لا أعرف حتّى مَن أنتظِرُ، أنا وإنْ كنت كما هلالٍ كُتِبَ عليه أن يظلّ وحيداً إلّا أنّ عزائي في بعض ما أبعثُ إلى نفسي من ضوءٍ نحيلٍ وسطَ ظلام جِنْدس، أنا من أوّلٍ شُبْهةٌ لِما حولي ودائماً ما أكونُ مُستعصياً على كلّ عيشٍ مؤتلف وطمأنينة ممكنةٍ، أنا كأنّي أعيشُ في حَصّالةٍ مكنوزاً لأمرٍ ما، أنا لست ميّالاً إليّ حكيماً ولا فيلسوفاً إذ لستُ سوى نَسّاجِ أحلامٍ وأوهامٍ وبازلِها قبلَ أن أكون خيّاطَها ورتّاقَها. أنا مَاذا يمكن أن أصنعَ بكلّ هذا التّوحُّش سوى أن أظلّ أغطسُ عميقاً في تأمّلاتي؟ أنا وإنْ كنت مُتحوِّلاً كما كثبانِ صحراء إلّا أنّي غالباً ما أحلم بعيشٍ أخضرَ مليءٍ بالطيور والحَبّ والأعشاشِ، فلي قلبٌ من تربية الينابيع. أنا كما سارية مبتلاةٍ برايتينِ: راية ((ما إمامي سوى عقلي)) وأخرى للقلوب الكسيرة وأعمالِها. أنا بسيط طاعنٌ في الطّفالة جدّاً وإن بدوتُ عابساً زاوياً ما بين عينيّ جدّاً. وحيدٌ أنا جدّاً كما شمعةٍ أرجفُ في عالَم حُدوسٍ جِنْدِسٍ جدّاً. أنا مَن تتحشّد في جيوبه الصّواعِقُ والبروق ظانّةً الغَشيمةُ أنّي الرّعدُ حقّاً. بستانيُّ نفسي أنا، شمسُها والبئر والدِّلاءُ والسّواقي وحطّابُ أدغالِها. أنا ساعة شمسيّةٌ في ((ساحة صقور الحضَرِ)) والوقتُ مَوصِليّاً خارجٌ عن الخدمة منذُ العاشر من حزيرانَ 2014. أنا ((فيلسوف عوّاءٌ)) يجوب خرائبَ نمرود هائلاً على رأس أُمّته العراقيّةِ التّرابَ: يلوبُ، يندب، يلطمُ، يشتُم، ويجدِّفُ على التّاريخ. أنا من لا يعنيه أن يتحلّق أيُّ مريدينَ من حوله ولهانينَ بلَهْم زرنيخهِ، والتّأدّم بفُتات كاغدهِ، وحَسْو حِبر سحرِهِ الأسود. أنا ما عاد يعنيني أحدٌ إذ ما عدتُ أُحِبّ أن أفتقِدَ أحداً أو أُفْتَقَدَ من أحد. أنا حتّى لو كنت عشتُ مثلَ شجرة وارفاً كما تمنيّتُ مرّةً، لكانت أتعبتني الثّمارُ والقِطاف والشّمسُ والرّيح والنِّمّال وحصى العابرين. تعبتُ حتّى من أعمال الكتابة، ومللتُ من الخدمة بين يديها. أنا حتّى وقتَ كنت فاتناً عشتُ كما لو أنّي موقوفٌ وربّما مملوكٌ لكلّ من كان مفتوناً بي: كم من نادم أنا جدّاً وجدّاً إذ عشت مُقدِّماً فروضَ من أحببتُ على أهوائي الشّخصيّة جدّاً. أنا من له صورة فوتوغرافيّةٌ بالأبيض والأسودِ وإلى جانبي يقف عيشي بئيساً مُكفهرّاً مصفرَّ الوجهِ، يدُهُ على كتفي وعيناه سارحتانِ في البعيد(الصّورةُ وإنْ كانت من شُغل مرادِ الدّاغستانيّ غيرَ أنّها ضاربةٌ إلى الصُّفرة، ويكاد فَطْرٌ نازلٌ بين عيشي وبيني يشطرها إلى نصفين. في قَفاها تعليقٌ بخطّي يقول: من المناسب والصّورةُ على ما هي عليه أن تعيد مرّاتٍ قراءةَ فنِّ العيشِ طويلاً لِبيسْيوس).
أنا صحيحٌ حالِم مهزومٌ في ما عشتُ، غير أنّي أكيدٌ منتصر أمام نفسي فأنا بامتيازٍ صانعُ خَيْلات كلّ ما كتبتُ ومُروِّجُ حالومِيّاتها ولعناتها، هزائمِها وآمالها، ندمها وانتصاراتِها. ربّما ما أنا، على ما انتهيتُ إليه اليومَ، إلّا: أنا/ وأنا مُمسِكانِ هكذا بِخَناقَيهما حتّى النّهاية.

وأخيراً:
حتّى لا أُمَيَّلَ فأُطْوى لأُكْسَرَ من أوّلٍ غصَّنتُ نفسي، وذخّرتُها بالكثير من حَبّ الأمل، وماءِ الأحلام.

مظاهر الحداثة في شعر مقداد مسعود
(زهرة الرمان أنموذجا)

أ.د. محمد قاسم حسين

أنجبت مدينة البصرة الكثير من الأدباء، وما زالت وها هي اليوم ترفد الحياة الثقافية بأحد أبنائها هو الناقد والشاعر (مقداد مسعود) ليضع بصماته على النقد والشعر.

و(مقداد مسعود) من مواليد 1954م. بدأ النشر في منتصف السبعينات وصدرت عدة مجموعات شعرية منها مجموعة شعرية عن دار الرواد المزدهرة / بغداد عام (2008م) وهي بعنوان (المغيب المضيء). كما صدر له (الزجاج وما يدور في فلكه) وهي مجموعة شعرية صدرت عن دار الشؤون الثقافية في بغداد عام (2009م)، وكذلك صدرت له مجموعة شعرية بعنوان (زهرة الرمان) عن دار الينابيع في دمشق عام (2009م) . ولم يتوقف في نشاطه الأدبي على قول الشعر، بل نراه يدلو بدلوه في ميدان النقد ليقوم بقراءة اتصالية في السرد والشعر وهي بعنوان (الإذن العصية واللسان المقطوع) وقد صدرت عن دار الينابيع أيضا في عام (2009م). ونظرا لما يمتاز به الأديب (مقداد مسعود) من مكانة في الساحة الأدبية، آثرنا أن نقف على بعض نتاجه الشعري لنستوحي منه مظاهر الحداثة الشعرية فكان اختيارنا لمجموعته الشعرية الموسومة بـ(زهرة الرمان) لما تكتنزه من شعر يحمل مظاهر الحداثة الشعرية.

من أهم تلك المرتكزات التي شكلت ظاهرة بارزة في عمل الشاعر مقداد مسعود حتى أصبحت مظهراً حداثياً يدل على حداثة القصيدة عنده هي:-

المظهر الأول/ الفراغ الكتابي أو (الصمت):-

من المظاهر التي سعت الشعرية الحديثة إلى توظيفها في الشعر هو مظهر الصمت والمراد به ((سكوت الشاعر عن إتمام كلامه قصداً ، إما بقطع الجملة عن الإفادة الظاهرة المبنية على ما يقتضيه النظام اللغوي والنحوي، أو بجعل بعض أسطر القصيدة ـ وبخاصة في الشعر الحر ـ فارغة إلا من النقاط التي يشير إليها الشاعر بكلام لا يستطيع التصريح به أو لا يودّه)) (16) .

وعلى الرغم من أن هذا المظهر من وجوه الحداثة الا أن هناك من يرى أن له جذوره في بناء الشعر القديم، وقد اتخذ عدة أشكال أبرزها ما يسميه البلاغيون (الاكتفاء)، وإن كان هناك فرق بين (الاكتفاء والصمت) لأن الاول يكون بتوظيف كلام يعلم السامع الفطن ما سُكت عنه وهذا مجاله ضيق ودور القارئ في غالبه اكمال ومسايرة لمراد الشاعر. أما الصمت الحديث فهو

عن كلام غير معروف في كثير من الأحيان، ولهذا يقع الاختلاف في تفسيره، ويكون للمتلقي دور كبير حيال المسكوت عنه (17).

وقد اختلف النقاد في تعليل هذه الظاهرة في الشعر الحديث؛ فمنهم مَنْ أوعز صمت الشاعر الى اقتصاد الشاعر في الكلمات فهو ((لا يوظف فيها سوى عدد محدود من الكلمات المقطرة، لكنه يقيم بها كوناً شعرياً صغيراً ... يشكل بنية تعبيرية)) (18) وعلل بعضهم الصمت بأنه مسايرة ((لواقع الحياة المعاصرة التي تهتم بجانب المادة والمدركات الحسية))(19) بينما ذهب بعض النقاد في تعليل الصمت الى رغبة الشاعر ((في أن تكون قصائده مكتنزة بعيدة عن الثرثرة))(20) وهناك من جعل الحيرة والقلق لدى الشاعر معاكسين لطموحه نحو تحقيق شخصيته التعبيرية، وهذا هو السبب وراء هذا الصمت في القصيدة (21) وتبقى رغبة الشاعر في اخفاء شيء ما على المتلقي هي السبب وراء صمته، هذا ما أكده بعض النقاد(22) .

ويتخذ مظهر الصمت شكل النقاط التي توضع بموازاة الشطر وأحياناً تكون الى جانبه. ويرى بعض النقاد أن هذا الاستعمال ((للدلالة على محتوى نصي مسكوت عنه))(23) ومن هذا نعرف أن النقاط التي يضعها الشاعر تحمل معنى دلالياً، فهي لا توضع اعتباطاً.

ولو لاحظنا قصائد الشاعر مقداد مسعود فإننا سنجد أن صمته تكرر، ولم يقتصر فيه على شكل واحد فهو مرة يأتي به بجانب الشطر، ومرة أخرى يكون بموازاة الشطر، وتارة يكون سابقا للشطر. فمثلا في قصيدته (يوسف الخيمة) يقول(24):

''هذه الخيمة لمن؟
ــ هذه خيمتي
ــ خيمتك يا وطني ؟ خيمتك ؟ يا.....
حسافة !!
وأنت الكريم الكريم''

فلو حاولنا الوقوف على دلالة المظهر الذي جاء به الشاعر في الشطر الثالث وهو (يا.....) فالذي يبدو من هذا هو شدة الحسرة التي تعتصر في نفس الشاعر على وطنه، فضلا عن امتدادها واستمرارها.

ولأن الشاعر يخشى من ترجمة تلك الحسرة والبوح بها، عمد الى الصمت تاركاً للقارئ المساحة التأويلية للوصول الى مبتغاه.

ويستمر مسعود في القصيدة نفسها بالإتيان بمظهر الفراغ الكتابي فقد ورد عنده (خمس مرات) ولعل ما ذكرناه من تعليل سابق لهذا المظهر، يمكن أن نعلل به بقية المواضع التي جاء بها في القصيدة وهو بيان حسرته.

وقد يلجأ الشاعر الى اسلوب آخر في صمته بأن يأتي بالنقاط بموازاة الشطر، كما فعل في قصيدة (الرصاص) اذ يقول فيها (25):

''هذه جنة محصنة/ مَنْ فتح
أبوابها للجراد
فأصبحت كالصريم؟
يا الهي العظيم''

لعل قراءة كاملة لمجموعة مقداد مسعود (زهرة الرمان)؛ سيبدو لنا بوضوح مدى ألم الشاعر وحسرته على ما حل في وطنه بعد ان كان جنةً، فأصبح اليوم كالصريم،

وكأن استخدام الشاعر لهذا الفراغ الكتابي يريد من القارئ أن يفكر في من فعل هذا بوطنه، لأنه لا يستطيع التصريح به.

المظهر الثاني / بعثرة الحروف :ـ

بعثرة الحروف أو تجزئتها في الكلمة الواحدة ويتجلى هذا المظهر الحداثي في شعر مقداد مسعود، ويتمثل في بعثرة، أو تجزئة حروف الكلمة، مما يشكل ظاهرة ملفتة لنظر القارئ، كما أنها توحي بدلالة خفية يريد منها الشاعر ايصال شيء معين للقارئ. وقد أشار بعض النقاد الى هذا المظهر قائلاً: ((يمكن عبر الاستفادة من التقنيات الطباعية تحقيق ما يسمى بطوبوغرافية النص))(26) .

إن هذه الخاصية في بنية النص لا تخرج عن المجال الدلالي أو العلاماتي خاصة وأنها ((وُظفَت في الشعر العراقي المعاصر بشكل ملفت للنظر))(27). وفي تعليل هذه الظاهرة قيل هو لأجل ((اعطاء لغة الشعر كثافة وتركيزاً في الدلالة والافصاح عن القيم الشعرية وتلوين المعنى فضلا عن مصاحبه التقطيع من اثارة للخيال وتنشيط لعوامل التأويل))(28) .

وهناك من يرى أن مظهر بعثرة الحروف هو عبارة عن ((انعكاس دلالي صوري يكرس الدلالة اللسانية))(29) .

ولو لاحظنا شعر مقداد مسعود فأننا سنجد أنه يأتي بمظهر بعثرة الحروف في أكثر من موضع، فمثلا في قصيدة (الرصاص) يقول (30):

''الرصاص
الرصاص
الرصاص
رصاص
رصاص
رصاص
رص ...اااص
رصاص لصوت الصحافة
... لضوء الثقافة''

فلو حاولنا أن نجد الدلالة لكلمة (رص ...اااص) التي جاء بها الشاعر على هذه الهيأة فيمكن لنا أن نقول: ان الشاعر مقداد مسعود أراد من وراء ذلك تأكيد فكرة مفادها أن ذلك الرصاص الذي يوجه الى شعبه هو متعدد، ومشتت من حيث المصدر ومجهول من حيث الجهة التي يأتي منها، فلا يعرف الشاعر من أين يأتي, لذلك نراه جاء بالكلمة في حال النكرة ولم يعرفها كما هو حال الكلمات الأولى التي جاء بها في مقطعه.

ويعود الشاعر في القصيدة نفسها فيقول (31):

''لا أب فوق الشجرة
رصاص رصاص رصاص ....
رصا...ص .
الهي من يسمع الأمهات
جاريات السواد المؤبد؟
الرصاص يحيل الصريخ
الى جنة دائمة
تحيل الشكاوى
الى فوهة
كاتمة''

هنا نلاحظ أن الشاعر قام بتجزئة كلمة (رصا...ص) ولعله يريد الإشارة الى آثار فعل الرصاص، وما ينتج عنه من تمزق ، وتفتت للحياة.

ويتكرر مظهر بعثرة الحروف لدى مسعود

في قصيدته (بصريون) التي حاول أن يصور فيها أحوال أهل البصرة وما مر عليهم من ظلم وطغيان على مر التاريخ وفي هذه القصيدة يقول(32):

"بصريون
يقسمون بعمامة الشيخ (عارف البصري)
وبساعدي الشيوعي (هندال)
ولا يتراجعون
يتساقطون
على الطريق
ي
ت
ص
ا
ع
د
و
ن"

في المقطع السابق نجد الشاعر يرسم كلمة (يتصاعدون) بشكل عمودي مع فصل حروف الكلمة الواحد عن الآخر وهذا لم يكن رغبة من الشاعر خالية من الغاية أو الدلالة، وانما يمكن أن نستوحي دلالة هذا الفعل من الشاعر بأنه أراد الاشارة الى تساقط الشهداء من أبناء البصرة دفاعاً عن مدينتهم. وبالمقابل يمثل هذا التساقط عروجاً الى السماء وصعوداً الى العلياء. ولعل الشاعر في هذا الرسم للكلمة أراد أن يشير الى ثقل وصعوبة هذا الصعود لما فيه من مشقة لذلك هو يأتي بالكلمة متقطعة للدلالة على ذلك.

المظهر الثالث/ التكرار:-

من المفاهيم التي ذُكرت في تحديد التكرار هو ((إلحاح على جهةٍ هامة في العبارة يعنى بها الشاعر، ويكثر من عنايته بسواها)) (33). وقيل في معنى التكرار هو ((دلالة اللفظ على المعنى مردداً لتأكيد غرض من أغراض الكلام، أو المبالغة فيه))(34) .

وهذا المفهوم للتكرار في تأكيد الشاعر، أو المبدع على فكرة معينة أو غرض من الأغراض نجده عند الشاعر مقداد مسعود معتمداً في اظهار ذلك على أنماط متعددة من التكرار، حتى إننا لا نكاد نجد قصيدة في مجموعته (زهرة الرمان) تخلو من نمط من التكرار، سواء كان على مستوى الألفاظ، أو على مستوى العبارة.

فمثلاً قصيدته (الرصاص) نجد مقداد، وقد ملأ القصيدة بكلمة (الرصاص) حتى يُخيل للقارئ أنه يسمع صوت دوي الرصاص وهو يقرأ هذه القصيدة ومن ذلك قوله (35):

"يا رفقة الآس والياسمين/ لماذا القرنفل:
سرير الرصاص
يتهجى المدينة
يعيد التهجي
متعثراً
بعفونته المزمنة/
الرصاص
الرصاص
الرصاص
رصاص
رصاص
رصاص
رص....اااص
رصاص لصوت الصحافة
.... لضوء الثقافة
الرصاص/ يغازل سيدة رائعة"

وهكذا يستمر الشاعر بتكرار لفظة (الرصاص) وكأنه بهذا يشير الى حالة الفوضى التي عمت البلاد بسبب انتشار لغة السلاح الذي أصبح هو الحاكم. والشيء الذي يثير الانتباه في النص أن الشاعر جاء بمفردة (الرصاص) في بداية القصيدة وهي مُعرَّفَة بـ(ال) لكنه بعد ذلك جاء بها نكرة من دون تعريف، وكأنه في الحالة الأولى يعرف مصدر الرصاص أو أنه معروف لدى الناس لكنه في الحالة الثانية أصبح المصدر مجهولا ومتعدداً فهو لا يعرف مَنْ هو المستهدف، لأن الرصاص لم يترك جهة إلا وتوجه نحوها وهنا كناية عن استخدام القوة والشدة في ارغام الناس واخضاعهم للحاكم. لهذا نجد الرصاص موجها للصحافة، والثقافة، وفي الجامعات، والشوارع، والأسواق، وحتى لقتل الأشجار، ونراه في المقطع الأخير يعمد الى التكرار في اللفظة نفسها، ثم بعد ذلك يحاول تفكيكها، والعمل على تشظيتها وكأن في ذلك اشارة الى آثار فعل الرصاص في تفتيت وتمزيق الشيء الواحد.

وفي الاشارة الى الحيرة والدهشة التي تملأ نفوس الناس نرى الشاعر يعمد الى تصوير ذلك من خلال التركيز على اسم الاستفهام (لماذا) في قصيدته (أسئلة عراقية) اذ نراه يكرر الاسم (سبع مرات) جاءت (أربع) منها بشكل متتالٍ، وهي ما افتتح به القصيدة؛ اذ يقول (36):

"لماذا أموت؟
لماذا تموت؟
لماذا نموت جميعاً؟
لماذا كثيراً نموت؟

وعاد الشاعر في القصيدة ليقول:

لماذا السواد؟
من اسامي العراق
لماذا السواد وليس الشجر؟"

وقد أراد الشاعر التركيز على حالة معينة ولفت نظر المتلقي اليها، ألا وهي حالة الحيرة والدهشة التي مني بها الشاعر، كما هو حال الناس جميعا بسبب كثرة القتل فيهم، تلك الحالة التي وقف الشاعر إزاءها حائرا لا يعرف لها سبباً.

المظهر الرابع/ استخدام اللغة اليومية:

في هذا المظهر استطاع الشاعر أن يوظف بعض الألفاظ العامية التي يكثر استخدامها في لغة الناس اليومية بوصفها أحد المستويات التي استخدمتها اللغة الشعرية كونها جوهر التحديث الشعري (37) وفي هذا المظهر تتعدد الألفاظ التي تحمل دلالة عامية ومن تلك الألفاظ على سبيل المثال لفظة (خطية) في قوله (38):

"وطن خطية
والموت يا سياب
أهون من خطية"

جاء الشاعر بكلمة (خطية) ليعبر بها عن حال الوطن المسكين الذي لا يجد من يعينه وينصره، فضلا عن تعبير تلك اللفظة على شدة الانكسار والخذلان لذلك يرى الشاعر أن الموت أهون من أن يقال (خطية) لأنها تحمل الذلة والمهانة وهذا ما لا يستحقه وطنه.

ونجد الشاعر هنا يتكئ على معجم اللغة اليومية، وهو يعبر عن حبه لوطنه وخوفه عليه من المؤامرات التي تحاك ضده لذلك نراه يتوسل للوطن بقوله (39):

"يا وطني تعال
أبوس يديك

حتى قدميك
لا تدخل
في أروقة المصالحة"
الشاعر استخدم لفظة (أبوس) وهي من الألفاظ التي تشيع عند العامة في التعبير عن الحب. وفضلا عن معجم العامية الذي اتكأ عليه الشاعر نجده كذلك يوظف بعض الألفاظ الأجنبية لخدمة نصه ومن تلك الألفاظ لفظة (موبايل) حيث قال (40):
"لم يسقط التمثال
تلتقطه المخالب والأقنعة
تم اشتراء السوط بالأوسمة
ونغمة في الموبايل"
وفضلا عن ذلك نلاحظ مسعود يحاول أن يخدم نصه بكل ما أوتي من ثقافة في مختلف المجالات، لذلك نراه يعمد الى بعض العلوم التطبيقية ليستوحي منها بعض الألفاظ قاصدا في ذلك تصوير واقعه الدموي الذي يعكس حالة الدمار الذي مني به الشعب، وفي ذلك يقول (41):
"الهندسة
تطبق أشكالها الدموية
مثلث الموت
مربع الدم
مستطيل الرعب
دائرة الانتقام"

المظهر السادس/ التناص:

وهنا يحاول منتج النص الإبداعي الاعتماد على نصوص أخرى في معمارية نصه بغض النظر عن مرجعية تلك النصوص التي يعتمد عليها، فقد تكون مرجعيتها دينية أو أدبية أو تاريخية أو اسطورية، فهذا ما يعبر عنه بالتناص الذي يأخذ أشكالا متعددة منها (الاقتباس والتضمين والمعارضة...) مقداد مسعود اعتمد على آلية التناص في انتاج نصه إلا أننا نراه قد لجأ الى اسلوب يكاد يكون مميزا، فهو لا يبني نصه على الاقتباس المباشر أو التضمين المباشر لنص سابق، وانما اعتمد في معمارية نصه على فكرة النص السابق وتوظيفها لخدمة نصه.
فمثلا في أحد نصوصه يقول (42):
"هذا وطني
هذا يوسف
جردوه أخوته
حتى من رؤياه
وألقوه في هذه الخيمة"
وعند قراءة هذا المقطع ومحاولة معرفة المرجعية التي اعتمدها الشاعر، نجدها مرجعية دينية متمثلة بقصة وردت في القرآن الكريم تحكي لنا عن أحد الأنبياء هو نبي الله يوسف (عليه السلام) وملخصها أن أخوة النبي حسدوه وأرادوا التخلص منه فأجمعوا أمرهم على أن يلقوه في "غَيَابَتِ الجُبِّ" وقد فعلوا ذلك، فالشاعر مقداد في مقطعه السابق نراه يتناص مع هذه الفكرة من القصة ليصور حال وطنه كيف أن من يثق بهم ويحسبهم من الأخوة قد قيدوه وألقوا به في خيمة حسدا منهم.
ونلاحظ أن الشاعر قد وجد في هذه القصة ما هو مناسب لبناء نصه، لذلك لجأ الى جزئية أخرى من القصة ليتناص معها من أجل ايصال الفكرة للمتلقي، واقناعه بها. تلك الجزئية تتعلق بما حدث مع امرأة العزيز وتأثير نبي الله يوسف عليها، فقد شغفها حبا، حتى أخذت تراوده عن نفسه. وهنا نجد الشاعر يستثمر هذه الجزئية ليصور حال

الشهداء من أبناء وطنه كيف أنهم قد شغفوا حباً بالوطن وضحوا بأرواحهم من أجله. وهذه الفكرة يوجزها الشاعر في مقطع من قصيدته (يوسف الخيمة) يقول فيه (43):

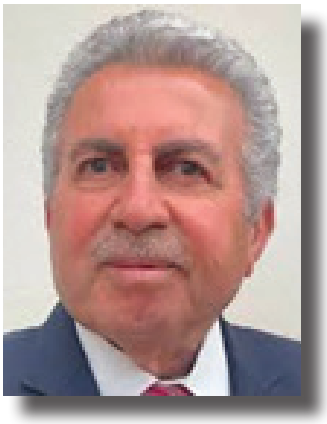
"الشهداء
حين استبقوا لم يتركوا يوسف عند
المتاع
الشهداء .....
شغفهم يوسف حباً"

إن نص الشاعر مقداد مسعود مكتنز لكثير من مظاهر الحداثة، وقد تجلت فيه تلك المظاهر خاصة على مستوى الصياغة الفنية منه، وقد أوحت تلك المظاهر بالبعد الفني والدلالي في قصائد الشاعر.

*** الصفحات المرقمة مأخوذة من ديوان الشاعر مقداد مسعود "زهرة الرمان"**

سيمياء الأنوثة وانزياحات اللغة في ديوان (تلك السيدة) لحسن سليفاني

د. جوتيار تمر - كوردستان



يمثل ديوان (ئەو خانما هەنێ) (تلك السيدة) للشاعر حسن سليفاني تجربة شعرية تنطلق من المجال الوجداني، لكنها لا تستنفد نفسها في التعبير المباشر عن الحب أو في وصف المحبوبة وصفا خارجيا؛ فالنصوص تتحرك داخل فضاء شعري تتداخل فيه الذات والآخر، والحضور والغياب، والجسد والروح، والصوت والصمت، بحيث تصبح المرأة أكثر من شخصية غزلية؛ إنها بؤرة دلالية تتجمع حولها عناصر الطبيعة والموسيقى والذاكرة والحنين، ومن هنا فإن الديوان يستحق أن يقرأ قراءة تتجاوز التصنيف السريع الذي يضعه في خانة الغنائية العاطفية التقليدية، من غير أن تنقله في المقابل إلى مراتب فلسفية أو وجودية لا تسندها بنيته النصية بصورة كافية؛ وتكشف مادته الشعرية، عن تكرار واضح لعلامات العين والروح والرائحة والموسيقى والمطر والربيع والليل، وعن اعتماد ملحوظ على النداء والتكرار والاختزال والانقطاع.

إن العنوان (ئەو خانما هەنێ) يؤدي وظيفة مركزية في توجيه القراءة، لأنه لا يكتفي بتسمية الديوان، بل يقترح منذ البداية شخصية أنثوية تتقدم على سائر عناصر الخطاب، غير أن أهمية العنوان لا تنبع من كونه يحيل إلى امرأة محددة حسب، بل من طبيعة الإشارة التي يتضمنها، فاسم الإشارة يحيل إلى حضور يقع في مجال الرؤية أو الذاكرة، لكنه لا يضعه في متناول اليد تماما، إن (تلك) ليست (هذه)؛ فهي تشير إلى قرب متخيل يقترن بمسافة فعلية أو نفسية، وتؤسس منذ البداية لتوتر بين الاستحضار والابتعاد، أما لفظ (السيدة)، فيمنح المحبوبة خصوصية وجلالا، ويجعلها ذات منزلة تختلف عن موضوع الغزل العابر.. ويتأكد هذا الحضور الأنثوي في تكرار العبارة نفسها داخل القصيدة: (تلك السيدة)، التي تتقدم في كل مرة إلى المشهد من زاوية حسية أو وجدانية مختلفة؛ فهي (الحالمة مع الويسكي)، و(الغارقة في الأفكار)،

و(الضائعة في الدخان)، ثم المرأة التي (من ضوء شفتيها تنبع اللذة)، والتي (جبينها الفجر).

ومع ذلك، ينبغي ألا تحمل هذه الدلالة أكثر مما تحتمل؛ فالعنوان يفتح أفق التأويل، لكنه لا يثبت وحده أن المحبوبة كائن متعال أو حقيقة أنطولوجية، وإنما يهيئ لقراءة حضورها بوصفه حضورا مخصوصا يختلط فيه القرب بالمسافة؛ ومن خلال هذا العنوان تنشأ علاقة بين الاسم والغياب.. فالمحبوبة حاضرة في اللفظ قبل أن تظهر في التفاصيل، لكنها لا تحضر بوصفها جسدا مستقرا وماثلا أمام الذات الشاعرة، بل بوصفها صورة تستعاد وتستدعى وتبنى داخل اللغة. ولذلك لا يكون النداء في الديوان مجرد وسيلة خطابية، بل يتحول إلى آلية لإنتاج الحضور.

إن الشاعر ينادي لأن المسافة قائمة، ويكرر النداء لأن الغياب يهدد صورة المحبوبة بالانمحاء.. ويظهر ذلك بوضوح في تكرار (سمراء، يا سمراء)، و(أحبك، يا سمراء»)، ثم (تعالي حبيبتي)، حيث تتحول المخاطبة إلى محاولة لاستحضار الآخر وتقليص المسافة الفاصلة عنه.

وفي هذا السياق تصبح اللغة بديلا عن اللقاء، لا بمعنى أنها تلغي الفقد، بل لأنها تمنح الذات إمكانية مؤقتة لمقاومته، فالمحبوبة لا تعود حاضرة في الواقع، وإنما تبقى حاضرة في الخطاب، ويصبح الكلام عنها أو إليها شكلا من أشكال إبقاء العلاقة حية.. وتؤكد مضمون بعض القصائد هذا المعنى حين تتحول الرسالة نفسها إلى أثر يعيد الغائب إلى الوعي: (حين وصلتني رسالتك/ ونحن في محنة الفراق / كم كانت تضوع/ بعطر أناملك)، ثم ينتقل الشاعر من أثر الرسالة إلى البحث عن آثار المحبوبة في المكان: (أبحث عن آثار قدميك / في الشوارع الميتة الباردة).

وتتأسس بنية الديوان على جدلية مستمرة بين الحضور والغياب. فالمرأة حاضرة في الذاكرة، وفي النداء، وفي الصور الحسية، لكنها غائبة عن المجال الواقعي الذي يتيح للذات أن تمتلك يقين اللقاء، ومن هنا تتولد نبرة الشوق والقلق، ويتحول الحب إلى تجربة انتظار لا إلى تجربة امتلاك؛ وهذه الجدلية لا تظهر على المستوى الموضوعي وحده، بل تتجسد في بنية الضمائر أيضا؛ فانتقال الخطاب من الحديث عن المحبوبة إلى مخاطبتها، أو من استحضارها بوصفها غائبة إلى معاملتها بوصفها حاضرة، يكشف عن حركة داخلية في وعي الشاعر، فالضمير ليس عنصرا نحويا محايدا، وإنما هو مؤشر على المسافة التي تفصل الذات عن الآخر وعلى محاولات تقليصها أو الاعتراف باستحالتها؛ وتتصل بهذه الجدلية كثرة الأسئلة والانقطاعات والانفعالات المباشرة، فالاستفهام في الديوان لا يؤدي وظيفة معرفية بالمعنى الدقيق، ولا ينتظر جوابا محددا، بل يكشف عن ذات فقدت يقينها وتبحث عن مخرج من الحيرة، إن السؤال هنا صورة من صور القلق، لأنه يعبر عن عجز الذات عن تثبيت معنى نهائي للعلاقة؛ ففي (صور مساء السبت) تتوالى الأسئلة: (كيف تجتمع خيوط النوم/ وتهرب؟/ كيف تجتاز السيم؟/ أنا نفسي لا أعرف/ هل يعرف أحدكم؟)، وفي (الفراشة) يتكرر السؤال بصورة أكثر مباشرة: (لماذا؟» ثم «كيف تأكله؟ / لماذا تأكله؟)،

ولذلك تأتي الأسئلة محملة بالدهشة والشك والرجاء والاحتجاج، وتتجاور مع علامات التعجب والتكرار والوقف، فتتحول الجملة الشعرية من خبر يقرر إلى صوت ينفعل. ومع ذلك، فإن كثرة الاستفهام لا تؤدي دائمًا إلى تعميق الدلالة؛ ففي بعض المواضع قد تتحول إلى تكرار انفعالي مباشر إذا لم تتطور من سؤال إلى آخر أو تضف طبقة جديدة إلى التجربة.

تظهر الأنثى في الديوان من خلال مجموعة من العلامات الجسدية، مثل العين والوجه والشعر والشفاه، غير أن الجسد لا يقدم باعتباره مادة وصفية نهائية، فالعين، مثلا، لا تؤدي وظيفة الرؤية فحسب، بل تتحول إلى موضع تتراكم فيه الذاكرة والانفعال، إنها ترى المحبوبة، لكنها في الوقت نفسه تحفظ أثرها وتستعيده وتعيد بناءه، وقد تنتقل العين من كونها أداة إدراك إلى كونها مساحة يقع عليها الصوت أو الموسيقى أو الحزن، فتغدو جزءا من التجربة لا مجرد عضو من أعضاء الجسد؛ وفي (تلك السيدة)، لا تقف العين عند حدود الرؤية، بل تصبح مصدرًا للضوء والانفعال: (نور قلبها/ يضيف للستارة/ بياضا أكثر)، ثم (ضوء شفتيها/ تنبع اللذة)، و(ضوء زندها/ يضيء الشمعة)، وهنا تتضح أحد أهم خصائص اللغة في الديوان، وهي اعتمادها على الانزياح وتراسل الحواس.. فالموسيقى لا تبقى في مجال السمع، والعين لا تظل محصورة في مجال البصر، والرائحة لا تقتصر على حاسة الشم، وإنما تتداخل هذه العناصر لتكوين إدراك شعري مركب، ولا ينبغي فهم هذا التداخل باعتباره غرابة لغوية مجانية، لأن قيمته تتحدد في علاقته بالتجربة النفسية، فالعاشق لا يدرك المحبوبة إدراكا حسيا موزعا، بل يدركها في كلية انفعالية تتداخل فيها الحواس، ومن ثم فإن تراسل الحواس يعبر عن عجز الإدراك العادي عن احتواء التجربة، وعن حاجة اللغة إلى تجاوز الحدود المعجمية المألوفة كي تقترب من كثافة الشعور.

إن الصورة التي تجعل الموسيقى قابلة لأن ترى، أو تجعل العين مجالا لاستقبال الصوت، لا تكتسب قيمتها من مخالفتها للمنطق الحسي فحسب، بل من إعادة تنظيمها لعلاقة الذات بالمحبوبة؛ فالمحبوبة لا تكون موضوعا للرؤية وحدها، ولا صوتا يسمع من الخارج، وإنما تتحول إلى فضاء تتقاطع فيه الحواس. وبهذا المعنى تنتقل صورة المرأة من مستوى الوصف إلى مستوى التجربة الإدراكية الكاملة، إنها ليست ملامح منفصلة، بل حالة حسية وروحية تعيد تشكيل العالم من حولها، ويؤكد نص (مساء بلون السمراء)، هذا التداخل حين تتحول الضحكة إلى شيء مرئي: (كيف كانت أمواج الضحك البنفسجية / تشرق في شعرها الأسود؟)، ثم يتحول الصوت إلى صورة تستقر في العين: (كيف كان الضحك ينز من عينك اليسرى؟).

وتؤدي الموسيقى، ولا سيما الكمان، دورا محوريا في هذه البنية؛ فالكمان لا يظهر بوصفه آلة موسيقية تضاف إلى المشهد، بل بوصفه وسيطا بين الذات والعالم العاطفي.. وحين تعجز اللغة عن التعبير عن الشوق أو الفقد، تتولى الموسيقى حمل ما لا تستطيع العبارة التصريح به؛ غير أن الموسيقى لا تكون هنا بديلا عن الكلام فقط،

بل تصبح ذاكرة للصوت واللقاء، وتمنح الغائب إمكانية العودة من خلال الأثر، فالنغم لا يعيد الشخص الغائب إلى الواقع، لكنه يعيده إلى الوعي، ويمنح الذاكرة مادة سمعية تستمر في الحضور بعد زوال اللحظة، ومن ثم يمكن قراءة الكمان في الديوان بوصفه علامة على ثلاثة مستويات متداخلة: هو صوت، وذاكرة، ووسيلة اتصال، إنه صوت لأنه ينتج الإيقاع، وذاكرة لأنه يستحضر ما مضى، ووسيلة اتصال لأنه يقيم صلة بين الذات والمحبوبة عندما يتعذر اللقاء المباشر، وفي بعض المواضع يتحول الصوت ذاته إلى حامل للذكرى، كما في قوله: (وهدير القطارات التي مرت من فوقنا / يدوي بسمعي)، حيث لا يعود الصوت مجرد حدث خارجي، بل يصبح أثرا مستمرا للحظة الماضية؛ وفي بعض المواضع يتحول الكمان إلى امتداد للجسد، بحيث لا يعود النغم شيئا خارجيا، بل يصبح حركة داخلية تسري في العين والروح والذاكرة؛ وهذا ما يمنح الموسيقى وظيفتها السيميائية، لأنها لا تدل على ذاتها فقط، وإنما تشير إلى ما وراءها من حنين وغياب واضطراب.

أما الطبيعة فانها تحضر في الديوان بوصفها امتدادا للحالة النفسية، لا بوصفها منظرا مستقلا؛ فالمطر والربيع والليل واللون والريح تتحول إلى عناصر تشارك في إنتاج الانفعال.. ولا تحمل هذه العلامات معنى ثابتا في جميع المواضع؛ فالمطر قد يدل على التجدد والخصب، لكنه قد يكون في سياق آخر صورة للعزلة والانتظار، والربيع قد يشير إلى انفتاح الحياة، لكنه قد يضاعف الإحساس بالفقد حين يقابل الشاعر بهجة الطبيعة بغياب المحبوبة، أما الليل فقد يكون فضاء للعزلة، أو مجالا للتأمل، أو زمنا لاستعادة ما لا يظهر في النهار؛ كما تظهر الطبيعة في بعض النصوص بوصفها كائنا مشاركا في التجربة، لا مجرد خلفية لها؛ ففي (صور مساء السبت)، (يطرق الهواء) النافذة، و(المطر دون تفكير / يقبل أوراق البرتقال)، فيما (الغضب يشتعل في روح العشب / الذي يبدأ الرقص غيظا)، هنا لا تعود الطبيعة مجرد مشهد مرئي، بل تدخل في بنية الانفعال نفسه.

وتتحدد دلالة الطبيعة بحسب موقعها من الذات والمحبوبة؛ فإذا ظهرت الطبيعة في لحظة استحضار، أصبحت أداة لاستعادة الماضي، وإذا ارتبطت بالغياب تحولت إلى مرآة للوحشة، وإذا اقترنت باللقاء أو الأمل اكتسبت دلالة الانفتاح؛ ولذلك لا ينبغي التعامل مع المطر أو الربيع أو اللون الأخضر بوصفها رموزا جاهزة، لأن الرمز لا يولد من المعجم وحده، بل من علاقاته داخل النص، إن اللون الأخضر لا يعني الحياة بالضرورة، كما أن الليل لا يعني الحزن بالضرورة؛ فالدلالة تتشكل من السياق ومن طبيعة الأفعال والصفات التي تحيط بالعلامة، ويؤكد نص (تنزه تحت المطر) هذا التعدد، إذ يرتبط المطر بالفرح والحب والربيع، وبالمحبوبة التي (هزت شعرها الغجري)، ثم تتحول ورقة الشجرة التي داعبت خدها إلى حاملة لرائحة جديدة؛ إذ تكتسب الرائحة والروح أهمية خاصة لأنهما تنقلان التجربة من مستوى الحضور الحسي إلى مستوى الأثر الداخلي، فالرائحة لا تحتاج إلى وجود مادي كامل لكي تستدعي المحبوبة، إذ يكفي أن تظل

في الذاكرة حتى تؤدي وظيفة الحضور. إنها من أكثر العلامات ارتباطا بالغياب، لأن أثرها لا يرى، ولكنه يظل قادرا على فتح الماضي في لحظة خاطفة. ويظهر ذلك في قوله: (امرأة ما / ترشني بعطر الروح / فتفوح مني خفة الروح)، كما يظهر في الرسالة التي تصل إلى الشاعر (بعطر أناملك).

أما الروح فتشير إلى انتقال العلاقة من الخارج إلى الداخل؛ فالمحبوبة لا تبقى في مجال الرؤية، وإنما تستقر في الذات وتصبح جزءا من تكوينها الوجداني، ومن خلال هذا الانتقال يتضح أن صورة الأنثى في الديوان تتدرج من الجسد إلى الروح، ومن المرئي إلى الأثر، ومن الحضور الواقعي إلى الصورة التي تنتجها الذاكرة، وهذا التدرج لا يعني بالضرورة أن الشاعر يتجاوز الرؤية الغزلية التقليدية تجاوزا كاملا، لكنه يكشف عن محاولة لتوسيعها، فالمرأة تبدأ بوصفها موضوعا للجمال، ثم تصبح سببا للحنين، ثم تتحول إلى ذاكرة، ثم تغدو علامة على ما فقدته الذات أو ما لم تستطع امتلاكه.

ويعد التكرار من أبرز الآليات التي تمنح الديوان طاقته الغنائية، فالشاعر يكرر بعض الألفاظ والعبارات والنداءات، ويعيد بعض البنى في سياقات متقاربة، لكن التكرار لا ينبغي أن يفهم دائما بوصفه حشوا أو عجزا عن التنويع، لأنه يؤدي وظيفة نفسية واضحة؛ إذ تحاول الذات من خلاله تثبيت صورة مهددة بالغياب، إن تكرار الاسم أو النداء يشبه محاولة الاحتفاظ بالآخر داخل اللغة، وكأن العبارة المكررة قادرة على منع المحبوبة من الابتعاد.. ويظهر ذلك بوضوح في التكرار المتواتر لعبارة (تلك السيدة)، وكذلك في (سمراء، يا سمراء / أحبك يا سمراء)، حيث يتخذ التكرار وظيفة إيقاعية ووجدانية في الوقت نفسه؛ غير أن قيمة التكرار لا تتحدد بمجرد وجوده، بل بمقدار التحول الذي يطرأ على دلالته، فإذا تكررت العبارة نفسها دون تغير في السياق أو النبرة، فقد تصبح التكرارات متشابهة ومحدودة الأثر، أما إذا انتقلت من النداء إلى الرجاء، أو من الرجاء إلى الاحتجاج، أو من الاحتجاج إلى الاستسلام، فإنها تصبح بنية متحركة تكشف مراحل الانفعال، ومن هنا فإن التكرار في الديوان يجمع بين الوظيفة الإيقاعية والوظيفة النفسية والوظيفة الدلالية، لكنه لا ينجح بالدرجة نفسها في جميع النصوص.

وتتصل بالتكرار ظاهرة الجملة القصيرة والوقفات والانقطاعات، فبعض النصوص تقوم على عبارات مقتضبة، وعلى مقاطع لا تتطور وفق تسلسل حكائي واضح، وإنما تتجاور فيها الصور والانفعالات، ويمكن قراءة هذا البناء بوصفه محاكاة لطبيعة الذاكرة التي لا تستعيد الماضي في صورة متصلة، بل تستعيده في ومضات ومقاطع، إن الشاعر لا يقدم قصة الحب، بل يقدم شظاياها: صورة، وصوتا، ونداء، وملمحا، ثم انتقالا مفاجئا إلى ذكرى أخرى، ويتجلى ذلك بوضوح في نص (3 صور)، الذي يقوم أصلا على تكثيف التجربة في ثلاث لقطات: (الليل / عرس القلب)، ثم (ابتسامة طفلتي / فرح انتفاضة)، ثم صورة الصبي الذي يوصل الماء إلى البيشمركة ويتمنى ألا يقذفه لغم إلى السماء كما حدث لمن قبله. ومع ذلك، لا يجوز تحويل كل تشظ إلى

تقنية جمالية مقصودة، فالتقطيع يصبح ذا قيمة حين يخدم حالة الوعي أو يخلق توترا بين الأجزاء، أما إذا اكتفى بتجميع الصور دون رابط دلالي أو إيقاعي، فإنه يؤدي إلى ضعف الوحدة العضوية، ولذلك تبدو بعض النصوص أكثر إحكاما من غيرها؛ إذ تمتلك بعض القصائد مركزا دلاليا تعود إليه صورها، بينما تبدو قصائد أخرى أقرب إلى التدفق الشعوري الذي لم يخضع تماما للتنظيم الفني، وهذه الملاحظة لا تقلل من صدق التجربة، لكنها تميز بين صدق الانفعال واكتمال البناء.

وتطرح لغة الديوان سؤال العلاقة بين (اللهجة الكوردية الكرمانجية) والشعرية الحديثة، فالشاعر لا يستخدم اللهجة بوصفها أداة نقل شفاهي فحسب، وإنما يستثمر مرونتها في النداء والتكرار والإيحاء، ويحول مفرداتها إلى عناصر داخل بناء شعري حديث. وتنبع قيمة التجربة من أن اللهجة الكرمانجية تظهر قادرة على استيعاب الصورة المركبة والعبارة المختزلة وتراسل الحواس، من غير أن تفقد خصوصيتها الصوتية والثقافية.

غير أن القول إن الديوان يمثل (انتصارا) نهائيا للكرمانجية أو أنه أخرجها بصورة مطلقة من أسر الفولكلور يظل حكما واسعا يحتاج إلى مقارنة تاريخية ونصية مع نماذج أخرى من الشعر البادينى (الكرمانجي).. والأدق أن يقال إن الشاعر أسهم في توسيع المجال التعبيري لهذه اللهجة، وأثبت قدرتها على إنتاج خطاب شعري يتجاوز التقرير والوصف المباشر؛ فالتجديد لا يتحقق بمجرد استعمال اللهجة، وإنما يتحقق في الطريقة التي يعاد بها تنظيم العلاقة بين المفردة والصورة والإيقاع والدلالة.

ويتحرك الديوان في هذا السياق بين الموروث والابتكار، فبعض الصور تستند إلى المخيال الغزلي المعروف، وبعضها الآخر يحاول الانتقال إلى صورة أكثر تركيبا تقوم على تداخل الحواس وتكثيف العلاقة بين الجسد والطبيعة والموسيقى.. ولا يصح وصف كل صورة مألوفة بأنها ضعيفة، لأن المألوف قد يكتسب قيمة جديدة إذا أعيد تركيبه داخل سياق مغاير، إن السؤال النقدي لا ينبغي أن يكون: هل الصورة قديمة أم جديدة؟ بل: ماذا فعل الشاعر بها؟ وهل أعاد إنتاجها أم أعاد تأويلها؟ وتقدم صورة (جبينها الفجر) مثالا على استدعاء صورة مألوفة في أصلها، لكنها تدخل ضمن شبكة النص التي تربط حضور المرأة بإضاءة الليل وتزيين المجال المحيط بها.

وتتمثل أحد حدود التجربة في انحصار عدد كبير من النصوص في ثنائية الأنا والمحبوبة، فهذا الانحصار يمنح الديوان وحدة وجدانية، لكنه يحد أحيانا من اتساعه الموضوعي، فالعالم الخارجي لا يظهر غالبا بوصفه موضوعا مستقلا، بل يتحول إلى انعكاس للعلاقة العاطفية.. والمطر والليل والموسيقى والربيع لا تستقل بعالمها الخاص، وإنما تؤدي وظيفتها من خلال علاقتها بالحب والانتظار والذكرى.

غير أن محدودية الموضوع لا تعني بالضرورة محدودية الشعرية، فقد تنجح التجربة الخاصة في اكتساب بعد إنساني عام عندما تتجاوز حدود الاعتراف الشخصي إلى مساءلة الزمن والغياب والذاكرة والمصير، وفي ديوان حسن

سليفاني تبرز إشارات إلى هذه الأبعاد، لكنها لا تتحول دائما إلى رؤية فلسفية مستقلة أو إلى أسئلة كونية واضحة، إن العمق في الديوان وجداني بالدرجة الأولى، ويتجلى في حساسية الشاعر تجاه الفقد والانتظار وتحول العلاقة إلى أثر، أكثر مما يتجلى في بناء تأمل فلسفي مكتمل، ويظل هذا التحول من الخاص إلى الذاكرة واضحا في قوله: (اليوم طاب لي / أن أثقب صندوق الذكريات / وأخرج منه.. حفنة من صور)، حيث يصبح استرجاع الماضي وسيلة لاستعادة العلاقة لا لاستكمال بناء فلسفي مستقل.

ومن هنا فإن القيمة النقدية للديوان لا تكمن في كثرة المصطلحات التي يمكن إسقاطها عليه، بل في اللحظات التي تفرض فيها اللغة نفسها بوصفها تجربة حية.. فحين تتحول العين إلى مجال للموسيقى، أو تتحول الرائحة إلى وسيلة لاستدعاء الغائب، أو يتحول الصوت إلى ذاكرة، يصبح الانزياح جزءا من ضرورة التعبير لا مجرد لعبة أسلوبية، وحين تنجح القصيدة في تنظيم هذه العناصر داخل مركز دلالي واضح، تتحول العاطفة إلى شعر، أما حين تتراكم الصور دون رابط أو تعود العبارة إلى مألوفها دون إضافة، فإن النص يبقى في حدود البوح الوجداني.

وعليه، فإن ديوان (ئەو خانما هەنێ) يمثل تجربة شعرية جادة ذات خصوصية داخل الشعر(الكرمانجي) البادیني الحديث. إنه لا يقطع نهائيا مع الغنائية الغزلية، ولا يقدم في جميع نصوصه تجديدا متساويا، لكنه ينجح في إعادة بناء عدد من عناصر هذه الغنائية من خلال لغة مكثفة وإيقاع داخلي وصور حسية متداخلة، وتتمثل أهميته في أن الأنثى فيه لا تبقى موضوعا للمديح والوصف، بل تتحول إلى علامة تنظم علاقة الذات بالعالم، وتربط الجسد بالروح، والصوت بالذاكرة، والطبيعة بالغياب.

إن القراءة الأرجح للديوان هي أنه نص يقوم على شعرية النداء والهمس والاستعادة، فالمحبوبة فيه حاضرة بقدر ما هي غائبة، والموسيقى حاضرة بقدر ما هي لغة للعجز عن الكلام، والطبيعة حاضرة بقدر ما هي انعكاس للذات، والصمت حاضر بقدر ما هو امتلاء بما لم يقل، ومن هذه المفارقات يستمد الديوان طاقته الجمالية، كما تستمد منه قراءته النقدية مشروعيتها، ويكثف نص مضمون بعض القصائد هذه العلاقة بين القول والعجز عن القول، حين تتكرر الكتابة دون جواب، ثم تصبح الرسالة ذاتها حاملا للعطر والذاكرة والحنين.

ولا يصح، في الحكم النهائي، أن يوصف الديوان بأنه تجربة مكتملة التجاوز لكل الموروث، كما لا يصح اختزاله في قصائد حب مباشرة؛ إنه تجربة تقع في منطقة وسطى بين الألفة والابتكار، وبين الغنائية التقليدية ومحاولة تحديث الصورة، وبين البوح الشخصي والانفتاح الجزئي على الدلالة الرمزية، وهذه المنطقة الوسطى ليست نقصا بالضرورة، بل هي جوهر التجربة نفسها؛ إذ تكشف عن شاعر يحاول أن يجعل من اللغة العاطفية مجالا لإنتاج شعرية جديدة، دون أن يتخلى عن جذورها الوجدانية والثقافية؛ يمكن القول إن حسن سليفاني ينجح في تحويل الحب إلى بنية لغوية، والغياب إلى حضور شعري، والأنثى إلى مركز تتوزع حوله العلامات،

غير أن نجاحه الأكبر يتحقق حين يترك الصورة مفتوحة على التأويل، وحين يجعل الموسيقى والطبيعة والذاكرة تتفاعل داخل نسيج واحد، أما مواطن الضعف فتظهر حين يظل النص أسير التكرار العاطفي أو الصورة المألوفة أو التراكم غير المنظم، وعلى الرغم من ذلك، يبقى الديوان نصا جديرا بالقراءة النقدية، لا لأنه يقدم عالما عاطفيا مؤثرا فحسب، بل لأنه يكشف عن قدرة الشعر (الكرمانجي) البادیني على تحويل التجربة الخاصة إلى لغة ذات طاقة إيحائية وجمالية قابلة للتأمل والتحليل.

(صدر ديوان تلك السيدة للشاعر حسن سليفاني ، عام 2010 ضمن منشورات اتحاد الادباء الكورد في دهوك، بالحروف العربية . طبعة ثانية عن دار نشر ليس في ديار بكر- تركيا عام 2010 أيضا بالحروف اللاتينية).

فيلم الأوديسا
ملحمة سينمائية تستعيد وهج الأسطورة

ترجمة: قحطان المعموري



يبدأ كريستوفر نولان فيلمه «الأوديسة» برجلٍ يقف فوق طاولة في قاعة ولائم وهو يرويٍ قصة. يبدو ذلك وكأنه بداية مثالية لفيلم يدور حول أهمية القصص وطريقة سردها، وكيف يمكن للحكايات أن تخدعنا وتحررنا في آنٍ، وأن تمنحنا العزاء مثلما تثير فينا القلق، وأن تفرق بيننا أو توحدنا.

لكن القصة التي يرويها الرجل في قاعة الولائم ليست «الأوديسة» نفسها؛ إنها القصة التي نشاهدها نحن الآن على الشاشة. أما الراوي ـ الذي يجسده الموسيقي ترافيس سكوت، والذي شارك أيضًا في كتابة وأداء موسيقى شارة النهاية ـ فليس سوى جزء صغير جدًا من الحكاية. نحن هنا في مرحلة متقدمة من الأحداث، بل بعد منتصفها بكثير، وعلى مقربة من المذبحة الختامية ذات الطابع التطهيري. يختار الراوي أن يسرد حدثًا محوريًا من أحداث حرب طروادة، يظهر فيه المحارب الجسور أوديسيوس الذي يؤدي دوره (مات ديمون) وحصان طروادة الأسطوري. في جميع مفاصل هذا العمل الملحمي الجديد لنولان، قد نتوقع أن نرى ما عرضه عشرات المخرجين من قبل، لكننا سنفاجأ برؤية مختلفة لحكاية قديمة. هناك الكثير مما يستحق المشاهدة، وبعضه سيجعل المشاهدين يتساءلون مع أنفسهم: ”لحظة... هل نسيت أن هذا الجزء كان موجودًا؟“.

ان قصة حصان طروادة ليست واردة في «الأوديسة» لهوميروس، ولا حتى في ملحمته السابقة «الإلياذة»، بل إنها مستمدّة من روايات شعراء آخرين، وعلى الأرجح من «الإنيادة» لفيرجيل، التي كُتبت بعد هوميروس بعدة قرون. وبدلًا من الصورة التقليدية للحصان واقفًا على قوائمه الأربع المثبتة على عجلات (كما لو كان لعبة أطفال)، يظهر هنا مدفونًا جزئيًا في مياه ضحِلة على شاطئ البحر، وكأنه ينهض على قائمتيه الخلفيتين من تحت الرمال، ثم يُسحب فوق منصة من جذوع الأشجار المتدحرجة. وفي داخل الحصان، يتكدس أوديسيوس وصديقه مينيلوس (جون بيرنثال) وبقية المحاربين

الإغريق في تشابك من الأذرع والوجوه. ويُقال لنا إنهم ظلوا محبوسين داخله أيامًا عدة، وإن بعضهم مات قبل أن يعثر عليهم الطروادیون، وهو ما يثير تساؤلات صحية يَحسن بالفيلم أن لا يحاول الإجابة عنها؛ ولعل رائحة الجثث المتحللة كانت كافية لإخفاء أي روائح أخرى.

يأخذ المخرج نولان، الذي قام أيضًا بإعداد السيناريو لنفسه فسحةً من الحريةِ في معالجةِ المادة الأصلية، لكنه يفعل ذلك بهدفِ توسيع الروايات المختلفة عن مآثر أوديسيوس وتوحيدها في الوقتِ نفسهِ، خدمةً لهدفٍ أكبر وأكثر مراوغة. وفي جوهرها، تظل «الأوديسة» قصة محارب أسطوري وملك إيثاكا، الزوج المحبوب لزوجته بينيلوبي التي جسدّتها (آن هاثاواي)، التي تنتظره بإخلاص بينما يمضي الخُطّاب الجشعون في التهام طعامها وشرب نبيذها و«إفساد» خدمها، على أمل أن تستسلم في النهاية، وتختار أحدهم، وتتزوج من جديد. كما أن أوديسيوس أبٌ عطوف لابنه تيليماخوس (الذي يؤدي دوره في مرحلة البلوغ توم هولاند). ويقال لنا في الفلم إن رعاياه يحبونه، كما يروي الفيلم كيف غادر هو وجنوده إيثاكا للمشاركة في حرب طروادة، ثم علقوا في أتون تلك الحرب عشر سنوات، قبل أن يقضوا عقدًا آخر من الترحال لأسباب قد تكون ناجمة عن أخطائه الشخصية، أو عن أهواء الآلهة، أو عن مزيج من الأمرين.

كان هناك قدرٌ من الهراء الثقافي المثير للجدل عندما أُعلِنَ عن اختيار الممثلة الكينية الأصل لوبيتا نيونغو، ذات البشرة السوداء، لتجسيد شخصية هيلين - وكأن ذلك يشكّل خطيئةً بحق قصةٍ تضم أيضًا وحش البحر ذي المجسات سكيلا؛ وابن بوسيدون المنبوذ، سايكلوبس ذو العين الواحدة؛ وحوريات البحر اللواتي تمكن أوديسيوس ورجاله من الإفلات منهن؛ والحورية كاليبسو (تشارليز ثيرون)، التي تقع في حب أوديسيوس، وتجعله مدمنًا على زهور اللوتس التي تُفقده ذاكرته وتمنعه من لم شمله مع بينيلوبي. وسيرسي (سامانثا مورتون، التي يُعدّ أداؤها أكثر ما يُثير الرعب في الفيلم بلا منازع)، إضافة الى ابنة إله الشمس هيليوس والحورية البحرية بيرسي، والتي تُحوّل الرجال إلى حيوانات، ولكن بطريقة مختلفة تمامًا عمّا اعتدنا رؤيته. كما يظهر (إليوت بيج) في دور سينون، وهو جندي يوناني من المشاة يؤدي دورًا محوريًا في حكاية حصان طروادة، في معالجة جديدة لنمط «الجندي الفتى الساذج المكتوب عليه الموت»، ثم يعود بعد وفاته في مشهد يستلهم من جورج روميرو (الممثل) بقدر ما يستلهم من هوميروس (إذ إن جزءًا كبيرًا من هذه المادة مستمد أيضًا من الإنيادة ومصادر أخرى).

يشكّل التفاعل بين الصدفة والقدر خيطًا ناظمًا لهذا العمل الملحمي المصوَّر بأجهزة تصوير(IMAX) عالية الجودة والتقنية، حيث يبدو أقصر من مدته البالغة 172 دقيقة، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أن المخرج كريستوفر نولان والمونتيرة الدائمة له جينيفر ليم (الحائزة على جائزة الأوسكار عن مونتاج فيلم أوبنهايمر) يتعاملان مع الزمن بوصفه خريطةً منبسطة على الشاشة أكثر من كونه خطًا مستقيمًا، ومع اللحظات بوصفها نقاطًا يمكن زيارتها والعودة إليها مرارًا، بحيث يتغير معناها مع كل عودة. إن الدروس التي استخلصها نولان في فلم «أوبنهايمر»،

والتي قدّمها هناك بإلحاح محموم، يطبقها في «الأوديسة» بثقة هادئة ومريحة، وهي سمة نادرة في أسلوبه. فالماضي البعيد، والماضي القريب، والحاضر، والمستقبل تُخلط معًا كما لو كانت أوراق مجموعة لعب، حتى تفقد هذه التسميات معناها، باستثناء علاقتها بالشخصيات وهي تتقدم في العمر وتنظر إلى الوراء. بالنسبة لهم، كل حدث، وكل ذكرى، وكل حكاية، يحدث في الزمن الحاضر. وهناك مشهد يروي فيه أحد الشخصيات قصة تتضمن بدورها قصة أخرى. ويأتي السرد بانسيابية تشبه انسيابية أفكارنا نفسها.

كما تظهر شخصيات من الآلهة والبشر القادمين من مواضع أخرى في الأساطير اليونانية. فهناك أثينا التي جسدّت دورها الممثلة (زينداية)، التي لا يراها سوى البطل؛ ولوبيتا نيونغو في دور مزدوج تؤدي فيه شخصيتي هيلين، زوجة مينيلوس، التي يؤدي اختطافها إلى اندلاع حرب طروادة، وشقيقتها التوأم كليتمنسترا، زوجة أغاممنون، اليد اليمنى القوية لأوديسيوس (الذي يؤدي دوره بيني سافدي، المعروف أيضًا بتجسيده شخصية إدوارد تيلر في فيلم أوبنهايمر). يمزج نص المخرج نولان بين مقاطع من «الإلياذة»، و«الإنيادة»، وترجمات «الأوديسة» التي صدرت في القرنين العشرين والحادي والعشرين، بما تحمله من إضافات وزخارف خاصة بها. والنتيجة هي نوع من (عالم أوديسيوس الموسع) ولكن باستثناء مشهدٍ بعد شارة النهاية يظهر فيه زيو وهو يطلب من أوديسيوس الانضمام إلى مبادرة أوليمبوس .

ولا يُلزم هذا العمل الفني باختيار ممثلين من خلفيات ثقافية متعددة، تمامًا كما هو الحال في اقتباسات مسرحيات شكسبير (تخيلوا دينزل واشنطن في دور ماكبث)؛ ولا يُتوقع منه الالتزام بمفهوم جاهل للدقة التاريخية (كما في نسخة إيان ماكيلين من فيلم "ريتشارد الثالث"، التي تدور أحداثها في إنجلترا في ثلاثينيات القرن العشرين في عالم بديل، أو فيلم جولي تايمور "تيتوس"، الذي يُشبه إلى حد كبير فيلم "Mad Max". إن نهج نولان القائم هنا على المساواة ليس مُبررًا فحسب، بل مُلهم أيضًا. فاختيار ممثلين من جنسيات وأعراق مختلفة يُؤكد أن هوميروس، مثل شكسبير، ومثل العديد من روائيي القصص العظماء من مختلف البلدان، ملكٌ للجميع. كما اختار نولان، ببساطة، الممثلة المتحولة جنسيًا بيج، التي شاركت في فيلمه الناجح "Inception" عام 2010، لتجسيد دور محارب شرس، وأسند دور يوميوس، صديق أوديسيوس الكفيف ومستشاره، إلى جون ليجويزامو، تاركًا له التحدث بلكنته البورتوريكية المميزة لمنطقة برونكس.

لقد سبق لأفلام أخرى أن سلكت هذا النهج، أبرزها «الإغواء الأخير للمسيح» لمارتن سكورسيزي و«المصارع» لريدلي سكوت. ودائمًا ما يضفي ذلك دفئًا إنسانيًا على قصص قاسية في جوهرها، ويبعث برسالة خفيّة مفادها أن صنّاع الفيلم يقدّرون كل ممثل بوصفه إنسانًا قبل أي شيء آخر. أما الانتقادات الموجهة إلى الحوار المباشر، الذي يستخدم في كثير من الأحيان لغة دارجة (مثل إشارة تيليماخوس إلى أوديسيوس بعبارة «أبي»، أو استخدام المحاربين، بمن فيهم أوديسيوس، لبعض الألفاظ النابية الحديثة بين الحين والآخر)، فهي أيضًا في غير محلها، لكن بوسع المرء، بالمنطق نفسه، أن يشتكي لأن الممثلين لا يتحدثون جميعًا

باللغة اليونانية.
هذا الفيلم مدهش، سواء من حيث ضخامته، أو الطريقة الانسيابية التي ينتقل بها بين الأزمنة المختلفة، أو الملمس الحسّي الذي تتمتع به صوره. نكاد نشم رائحة البحر، والدم المتخثر، والزهور. ويبدو الحصان المعدني ثقيلًا بحق، حتى إنك تشعر بأن الطرواديين (والممثلين الذين يجسّدونهم) يبذلون جهدًا حقيقيًا لنقله. وفي أحد مشاهد استرجاع ذكريات الحرب لدى أوديسيوس، ينهار مبنى مشتعل يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين مترًا بينما يركض مؤدو المشاهد الخطرة أو يحتمون من السقوط؛ ويمكننا أن نستشعر حرارة الاصطدام وثقله، تمامًا كما نشعر بذلك عند مشاهدة لقطات حقيقية من مناطق الحروب في القرن الحادي والعشرين. وهذا هو أفضل ما في التزام المخرج نولان بصناعة الأفلام بالطريقة التقليدية إلى حد كبير، بما في ذلك التصوير على شريط فيلم حقيقي: فهو يجعلنا نشعر بارتباط جسدي مباشر بالأحداث التي نراها على الشاشة، على نحو يستحيل أن تحققه تلك «المعجزات» الرقمية الخفيفة والفاقدة للوزن، التي يتم تركيبها على عجل من آحاد وأصفار داخلة في أحد مصانع الترفيه.
اما من الناحية السردية فأن الفيلم, ينشغل بالتفاصيل على حساب الصورة الكبرى. فكل دقائق الإنتاج تأتي في خدمة مشاعر الشخصيات، سواء كنا نشاهد (بينيلوبي) وهي تغلي غضبًا من الإحساس الذكوري المتجذّر بالاستحقاق الذي يسمح لأولئك الخطّاب بنهب ثروات (إيثاكا)، أو (تيليماخوس) وهو ينطلق في رحلة يطارد فيها مُثُل الرجولة بقدر ما يبحث عن والده المفقود، أو البطل وهو يتوصّل تدريجيًا إلى فكرة أنه ربما لم يُمنع من العودة إلى وطنه بسبب قسوة الآلهة العبثية، بل لأن ذلك كان قدرًا محتومًا، أو قصاصًا عن الذنوب التي اقترفها. بل إن الفيلم يلمّح أيضًا إلى أن (أوديسيوس) نفسه هو المسؤول الوحيد عن تأخير عودته، وأنه فعل ذلك لأن أفعاله في الحرب جعلته يشعر بأنه لا يستحق السعادة.
يؤدي (مات ديمون) شخصية أوديسيوس بوصفه بطلًا سينمائيًا كلاسيكيًا على غرار غاري كوبر، لكن أداءه ونص كريستوفر نولان يقدّمان ما هو أكثر من مجرد استعراض للقوة والفضيلة. فالشخصية لم تُعرف بـ«البطل المخادع» عبثًا، إذ يكثر أوديسيوس من الحديث عن ضرورة الالتزام بميثاق للشرف، ويتجسد ذلك في عادته الطقسية المتمثلة في شدّ وتر قوسه قبل إطلاق السهم على هدف حي لجعل المنافسة أكثر عدلًا. لكنه لا يتردد في خرق هذا الميثاق عندما تقتضي المصلحة، أو حين يترك غضبه يسيطر عليه، ثم يستاء عندما يواجهه الآخرون بتناقضه.
يأتي تصوير نهب طروادة مروّعًا إلى أقصى حد، من دون أن يبدو متعمدًا في استعراض قسوته أو مبالغًا في «الوحشية» من أجل التأثير. ويُلام رجال أوديسيوس في مواضع أخرى من الفيلم على ارتكابهم ''الاغتصاب'' و''القتل'' باسم اليونان. ورغم أننا لا نشاهد الأول على الشاشة، فإن الثاني حاضر بكثرة، بما في ذلك قتل النساء والأطفال العزّل بلا رحمة. أما النهاية فهي بالحماسة التي نرجوها ونحتاجها، لكنها لا تندفع إلى حد يجعلنا ننسى أننا أمام أشخاص يستند حكمهم إلى الوراثة، وأن قائدهم ارتكب

أفعالًا شريرة باسم الخير، وليس كل ما فعله يمكن تبريره.

لا يقدّم الفيلم لنا ملخصات جاهزة على طريقة «ChatGPT» تشرح لنا ما الذي يعنيه كل ذلك. بل يعرض خيارات أوديسيوس، النبيلة منها والمروعة، بوصفها مجرد أحداث وقعت، بما تحمله من دلالات يتعيّن على كلٍّ من البطل والمشاهد أن يصارعها ويفهمها بنفسه. ويمكن تلخيص الفكرة الكبرى بعبارة: «البشر معقّدون». نعم، قد تبدو هذه الفكرة في غاية البساطة، لكنها تبدو ثورية عندما تُجسَّد في فيلم ضخم ونادر من إنتاج هوليوود المعاصرة لا يقدّم لنا «زهور اللوتس» لنغرق في راحة الإجابات السهلة.

الترجمة عن موقع روجربيرغ

*** الأوديسة: فلم ملحمي يستغرق عرضه 172 دقيقة بدأ عرضه في 17 تموز الحالي، من إخراج كريستوفر نولان وبطولة مات ديمون، توم هولاند، آن هاثاواي ولوبيتا نيونغو. بلغت كلفة إنتاجه 250 مليون دولار.**

لوحات بحجم المأساة العراقية...
صبري المالكي يرسم وجع الوطن بلغة اللون

علي إبراهيم الدليمي

في تاريخ الفن العراقي الحديث، قلائل هم من استطاعوا أن يحولوا ''المأساة'' إلى لغة بصرية لا تبتذل الألم، بل تؤطره.
صبري المالكي، الفنان البصري المنحدر من مدينة البصرة، واحد من هؤلاء على مدى أكثر من خمسة عقود، ظل وفياً لمعادلة صعبة: كيف نرسم الفاجعة من دون أن نسقط في السطحية والمباشرة، وكيف نحافظ على الجمال على الرغم من قسوة الموضوع؟ إجابته كانت في لون مدروس، وفرشاة حرة منضبطة، وثيمة واحدة لا تتغير: المرأة العراقية بوصفها مرآة الوطن لهذا لا نبالغ حين نقول إن لوحات المالكي ''بحجم مأساتنا''، لأنها تقيس عمق الجرح لا سطحه.



البدايات والتأسيس [1973 – أواخر السبعينيات]

انطلق هذا الفنان في مسيرته مبكراً. كان أول معرض شخصي له عام 1973، مطلع السبعينيات، أي في لحظة كان فيها الفن العراقي يبحث عن هويته بين التراث والحداثة. منذ البداية اختار المالكي طريقاً لا يستهوي المبتدئين: التجريد التعبيري. وهي من أصعب المدارس لأنها تطلب من الفنان أن يفكر باللون لا بالأشياء، وبالإيقاع لا بالتفاصيل.

التكريس والاستمرار [الثمانينيات – التسعينيات – الألفينيات] اتسعت تجربته عبر (19) معرضاً شخصياً، تمركزت غالبيتها بين البصرة وبغداد، مدينتي النهر والنهوض.
لم يحبس نفسه في الورشة.. خرج بأعماله إلى العالم العربي والدولي، فعُرضت في قاعات فنية بالقاهرة، بيروت، لبنان، والإمارات العربية المتحدة.
هذا الانفتاح جعله يختبر تلقي أعماله خارج السياق المحلي، ويؤكد أن لغته التجريدية قابلة للعبور.

النضج الموضوعي: "رموز وأفكار" و"الإنسان والبيئة العراقية":

من معارضه اللافتة: المعرض الشخصي

الـ11 بعنوان "رموز وأفكار"، بمادتي الزيت والأكريلك، وقد ضم (35) عملاً. العنوان وحده يلخص منهجه: لا يرسم أشياء، بل رموزاً تنتج أفكاراً.
المعرض الشخصي الـ(17) في المركز الثقافي بجامعة البصرة، بأكثر من (40) لوحة تحت محور "قضية الإنسان والبيئة العراقية". هنا اكتملت بوصلة أعماله: البيئة ليست خلفية، بل جرح مفتوح، والإنسان ليس بطلاً، بل شاهداً مثقلاً.
بهذا التدرج الزمني، نرى فناناً بدأ بالبحث عن اللغة، ثم رسّخها، ثم حمّلها بثقل الواقع العراقي من دون أن يفقد نقاءها التشكيلي.

التجريد التعبيري ببصمة لونية:

يصنّف المالكي ضمن رواد المدرسة التجريدية التعبيرية الحديثة.. التجريدية عنده ليست هروباً من الواقع، بل اقتراباً أكثر عمقاً منه لا يرسم امرأة عراقية بملامحها الحرفية، بل يرسم أثر الفجيعة على ملامحها.
يملك المالكي "بصمة لونية" يمكن التعرف عليها فوراً، يعتمد على ثلاثة قوانين: التوازن: لا يترك لوناً يطغى دون سبب، التباين "الكونتراست": يشعل المواجهة بين الحار والبارد ليولد التوتر، الانسجام: يضمد التوتر بمساحات لونية تمنح العين راحة بعد صدمة.
اللون عنده ليس زخرفة، بل إطار الموضوع ولسانه يضعه حسب "الضرورة القصوى للمشهد" أو استجابة لخلجاته الداخلية، ثم يفصل الألوان عن بعضها بذكاء الممارسة الطويلة. النتيجة: لوحة لا تُشاهد، بل تُقرأ كقصيدة بصرية.
يعتمد المالكي عملية "ترسيب" لعناصر اللوحة: ألوان، ملصقات، خطوط، نقاط، تترسب في قاع السطح كطبقات جيولوجية، هو لا يرسم "صورة المادة"، بل يجعل المادة نفسها صورة جوهرية القماشة تتحول إلى أرشيف بصري، وكل طبقة لون هي سنة من سنوات الفجيعة.

المرأة العراقية بوصفها قدراً بصرياً:

إذا أردنا اختزال مشروع المالكي في جملة: "استلهام مواجع المرأة العراقية". القدر، في لوحاته، عنيد. لا يغادر البيوت العراقية إلا وقد وسمها بفاجعة وأغنية حزينة. لكن الفنان لا يكرر المشهد الصحفي. يختزل الوجوه، يجردها، لكنه لا يفرغها من التشخيص التعبيري. على تقاطيع وجوههن المرهقة تُحفر خطوط الزمن. هذه الوجوه مقدسة بطبيعتها، لأنها تحمل سر الجمال والحياة والعاطفة, لكن الزمان بصلافته يرسم خربشاته الحزينة عليها. النتيجة لوحات أيقونية: مختزلة شكلاً، مكثفة دلالة. هي سجل بصري لعمق المأساة الجماعية، واللون فيها يصرخ بدل الفم.
هنا يكمن الفرق بين المالكي وغيره: لا يقدم "ضحية" للشفقة، بل "شاهدة" للذاكرة. المرأة عنده ليست موضوعاً، بل منهجاً بصرياً لفهم العراق.

عناصر العمل

الفرشاة بين العفوية والانضباط: حركات ريشته توحي بالعفوية، لكنها منضبطة بنظام لوني داخلي. لا خطأ عابراً، بل قرار. هذا التوازن بين الحرية والسيطرة هو ما

يمنح لوحاته ”هيبة“ حتى لمن لا يملك ذائقة تشكيلية متخصصة. الجميع يقف أمامها.
البناء والقياسات/ صرح شاخص: يسعى المالكي إلى تشييد صرح راسخ لتجربته عبر مساحات قماشية متنوعة الأبعاد. كبر القياس عنده ليس استعراضاً، بل ضرورة: المأساة بحجم كبير تحتاج مساحة كبيرة كي تتنفس، وكي تترك للمتلقي مسافة كافية ليدخل ويخرج من اللوحة من دون اختناق.
التجريد والاختزال/ من التفصيل إلى الأثر: يتجه كثيراً نحو اختزال الوجوه. لا عيون مفصلة، ولا أنوف حرفية. لكن خط الحزن موجود. خط الإرهاق موجود. التجريد هنا وظيفي, ينزع العرضي ليبقي الجوهري. ما يبقى هو ”أثر الوجه“ لا الوجه نفسه، وهذا أقرب إلى الذاكرة الجمعية التي لا تحفظ الملامح بقدر ما تحفظ الجرح.

الدلالات الفكرية والجمالية :

الفجيعة بوصفها مادة فنية لا خبراً: المالكي لا ينقل خبر المأساة، بل يحولها إلى مادة فنية. الفجيعة عنده ليست حدثاً انتهى، بل حالة مستمرة تُرسم وتُعاد رسمها. وهذا ما يجعل أعماله تتجاوز اللحظة الآنية.
ولادة شرعية للفن العراقي: تجربته الأخيرة تمثل ”ولادة شرعية“ داخل مسار الفن العراقي: لا تستعير الغرب حرفياً، ولا تكرر التراث حرفياً. بل تنتج لغة محلية معاصرة، معتزة بحضارة وادي الرافدين لكنها تتحدث بلغة اليوم.
اللون شاهدا لا ديكورا: حين يصبح اللون هو العنصر الأول والأخير؛ يتحول إلى شاهد على الجريمة وعلى الصبر معاً. الأحمر لا يزين، بل ينزف. الأزرق لا يهدئ، بل يغرق. الأصفر لا يضيء، بل يحترق.

استقبال المتلقي وأثر التجربة

ألق المالكي أنه يخترق ”الأذواق المتباينة“. المتلقي العادي يقف أمام اللون والحركة، والمتلقي الأكاديمي يقرأ البنية والرمز. الكل يجد مدخلاً. وهذا نادر في التجريد التعبيري، لأنه غالباً ما يكون نخبوياً. لكن المالكي يجسر المسافة بين النخبة والشارع لأنه يرسم ما يعرفه الجميع, وجه أم عراقية متعبة.
خمسون عاماً من العمل. بدأ معرض 1973، وآخره في جامعة البصرة بأكثر من (40) لوحة عن الإنسان والبيئة. بينهما رحلة من البصرة إلى بغداد، ومن بغداد إلى القاهرة وبيروت والإمارات.
صبري المالكي لا يقدّم لوحات للزينة. يقدّم مرآة بصرية لعمق الفجيعة العراقية. مرآة لا تكذب، ولا تجمل، ولا تنسى. يضع اللون بحساب، ويفرزه بذكاء، ويجعل منه إطاراً للموضوع ووعاءً للدمعة.
لوحات صبري المالكي ليست ”عن“ مأساتنا. انها ”بحجم“ مأساتنا. وبحجم صبر امرأة عراقية ظلت تقاوم، على الرغم من أن الدهر لم يكفّ عن خربشاته الحزينة على وجهها.

بيراندلو: يبحث عن نفسه!
هل يحتاج الألم أن يكون حقيقياً لكي يكون واقعيا؟

د. محمد سيف/ باريس



ليست عودة ستيفان براونشفايغ إلى لويجي بيراندلو في "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" مجرد إعادة تقديم لنص كلاسيكي، ولا محاولة لتحديث عمل ينتمي إلى بدايات القرن العشرين، وإنما هي وضع للنص في مواجهة مباشرة مع الأسئلة التي تشغل المسرح المعاصر: هل ما تزال الشخصية الدرامية قادرة على إنتاج المعنى؟ ماذا بقي من سلطة المؤلف في زمن الكتابة المسرحية؟

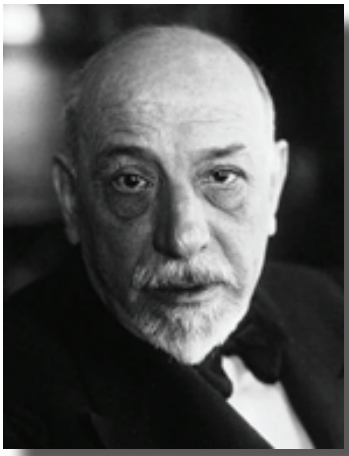
هل يستطيع الممثل أن يكون "آخر" من دون صورة أو محاكاة .. وأين تنتهي الحياة لكي يبدأ التمثيل؟

هذه الأسئلة ليست إضافات خارجية إلى نص بيراندلو، بل تكمن في صميمه منذ ظهوره سنة 1921، حين جعل المسرح موضوعًا للمسرح، والشخصية موضوعًا للتمثيل، والمؤلف موضوعًا للمساءلة. ولهذا ارتبطت المسرحية، في تاريخ النقد الحديث، بمفهوم الميتا مسرح الذي رسخه ليونيل أبيل في كتابه "الميتا مسرح: رؤية جديدة للشكل الدرامي "(1963)، للدلالة على الأعمال التي لا تكتفي ببناء عالم متخيل، وإنما تجعل آليات إنتاج هذا العالم المسرحي نفسها موضوعًا للعرض. غير أن اختزال بيراندلو الى "المسرح داخل المسرح" يظل غير كافٍ؛ فالمسرحية لا تقول لنا فقط إننا نشاهد مسرحًا، وإنما تسأل: ما الذي يجعل المسرح قادرًا على إنتاج الحقيقة؟ من هنا يمكن فهم رهان براونشفايغ في نجعل بيراندلو معاصرًا، وكيف نكتشف أن بيراندلو كان، في جوانب كثيرة، قد سبق إلى الأسئلة التي سيعيد المسرح المعاصر طرحها بأشكال ووسائط مختلف؟

تبدأ اللعبة البيراندللية من وضعية مسرحية مألوفة: فرقة تستعد للتمرين، ومخرج يحاول إدارة ممثليه، قبل أن يحدث ما يستحيل حدوثه في المسرح الواقعي: تدخل ست شخصيات إلى فضاء البروفة،

لا بوصفه ممثلين يبحثون عن أدوار، وإنما بوصفه شخصيات تبحث عن مؤلف يمنح الأب والأم والابنة والابن والطفلان الصامتان، لا يطلبون من الفرقة أن تمثلهم حسب، بل يطالبونها بالاعتراف بوجودهم. هنا يقلب بيراندلو العلاقة التقليدية بين النص والشخصية. ففي المسرح المعتاد تأتي الشخصية من النص، ثم تنتقل إلى الممثل، ومن الممثل إلى الخشبة. أما في "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" فتظهر الشخصية قبل اكتمال النص الذي يفترض أن يمنحها وجودها.

إنها تتقدم على العرض وتطالب بحقها في الوجود، وبذلك تصبح، على نحو مفارق، سابقة على التمثيل الذي يفترض أن ينتجها. غير أن المفارقة الأعمق تظهر عندما ترفض هؤلاء الشخصيات الطريقة التي يؤدي بها الممثلون قصتهم. فالممثل يستطيع أن يقلد الشخصية، لكنه لا يستطيع أن يكونها. هناك دائمًا مسافة بين الحدث الذي عاشته الشخصية والصورة التي يصنعها الممثل عنه، وبين التجربة وتمثيل التجربة. ومن هذه المسافة يبني بيراندلو أزمة التمثيل كلها: من يملك الحقيقة، من عاشها أم من يعيد تمثيلها؟ فالشخصيات الست ليست أفرادًا أحرارًا قابلين للتغيير، بل كيانات تخييلية عالقة في شكلها. الأب أسير ندمه، والأم لألمها، والابنة لرغبتها في الانتقام، والابن لاحتقاره ورفضه. ومن هنا تنشأ مفارقة وجودية حادة: الإنسان الواقعي يتغير باستمرار، بينما الشخصية، بمجرد أن تكتمل، تصبح أسيرة صورتها. نحن نفترض عادة أن الحياة أكثر حقيقة من المسرح لأنها متحركة، وأن الشخصية أقل



بيراندلو

حقيقة لأنها مصطنعة؛ لكن بيراندلو يقلب هذه المعادلة: ربما تكون الشخصية أكثر ثباتًا من الإنسان، ولذلك أكثر يقينًا من وجهة نظرها الخاصة. وهكذا تتحول "الشخصية" من أداة للتمثيل إلى سؤال عن الهوية نفسها: هل تكمن حقيقة الإنسان في قدرته على التغير، أم في الصورة التي يعجز عن التخلص منها؟ من هنا أيضًا تتجاوز الميتا مسرحية عند بيراندلو مجرد لعبة تقنية. فالشخصيات تمثل مستوى من التخييل، والممثلون مستوى آخر، والجمهور يوجد في مستوى ثالث، لكن لا أحد يستطيع أن يدعي امتلاك الحقيقة كاملة. الميتا مسرح، إذن، ليس مجرد كشف لآلية العرض، بل أزمة في مفهوم الحقيقة المسرحية. وهذا بالضبط ما يستثمره براونشفايغ حين ينقل الأزمة إلى فرقة مسرحية معاصرة تعيش بدورها أزمة حول معنى عملها. فقبل وصول الشخصيات الست، نجد الممثلين أنفسهم يتساءلون عن جدوى النص، وعن صلاحية الشخصية والخيال والمؤلف

بالنسبة إلى المسرح الراهن. هل ما يزال النص قادرًا على إنتاج الرغبة المسرحية؟ وهل يمكن لأدوات نشأت في زمن مختلف أن تتحدث إلى حاضر تغيرت فيه أشكال التلقي والتمثيل؟

بهذا التعديل تصبح الفرقة نفسها جزءًا من سؤال المسرحية. الشخصيات تبحث عن مؤلف يكمل قصتها، والممثلون يبحثون عن مادة تستحق اللعب، والمخرج يبحث عن صيغة مسرحية، والمسرح يبحث عن مبرر لوجوده. وهنا يتضاعف معنى العنوان: ليست الشخصيات وحدها التي تبحث عن مؤلف؛ المسرح نفسه يبحث عن صيغة جديدة لوجوده.

يصبح هذا الاختيار أكثر دلالة حين نضعه في مواجهة التحولات التي ارتبطت بالمسرح ما بعد الدرامي. وليس المقصود وضع بيراندلو داخل التصنيف التاريخي للمسرح ما بعد الدرامي، وإنما الكشف عن نقطة التماس بينهما. فهانس-تييس ليمان، في المسرح ما بعد الدرامي، الصادر بالفرنسية عن L'Arche، عام 2002، يصف تحولات مسرحية تتراجع فيها مركزية الحكاية والشخصيات الدرامية، وتنفتح الخشبة على الصورة والحركة والموسيقى والفنون البصرية والوسائط المختلفة. ومن هذه الزاوية يبدو عرض براونشفايغ كأنه يضع شكلين تاريخيين من أزمة الدراما وجهًا لوجه: بيراندلو يسائل الدراما من داخلها، بينما يسائل المسرح ما بعد الدرامي مركزيتها من خارج بنيتها التقليدية. الأول يجعل الشخصية تشك في حدود وجودها، والثاني يجعل الشخصية نفسها قابلة للتفكيك؛ الأول يضع المؤلف في قلب الأزمة، والثاني يعيد توزيع سلطة إنتاج المعنى بين النص والجسد والصورة والفضاء والمتفرج. ومن هنا تأتي أهمية قراءة براونشفايغ: إنها لا تقدم بيراندلو بوصفه نقيضًا للمسرح المعاصر، وإنما بوصفه محاورًا له. وتتخذ هذه المواجهة شكلًا أكثر حدة في علاقة الممثل بالشخصية. فالشخصية تقول: "أنا هذه الشخصية"، بينما يقول الممثل: "أنا أؤدي هذه الشخصية". الشخصية تعرف الحدث من الداخل، والممثل يعيد بناءه من الخارج؛ الشخصية تريد أن تستعيد حقيقتها، والممثل لا يستطيع إلا أن ينتج علامة عنها. لذلك لا يمكن إلغاء المسافة بين التجربة وتمثيل التجربة، وهي المسافة التي تمثل في الوقت نفسه أزمة التمثيل وشرط إمكانه. أما المؤلف، الذي يبدو غائبًا في النص الأصلي، فإن غيابه هو الذي يحرك المسرحية كلها. الشخصيات موجودة لأنه خلقها، لكنها غير مكتملة لأنه تخلى عنها. وقد التقط براونشفايغ هذه المفارقة، فاستفاد من المعالجة السينمائية اللاحقة التي أنجزها بيراندلو، حيث يصبح المؤلف أكثر حضورًا، وأعاد بناء جزء من المادة انطلاقًا من سؤال: لماذا رفض المؤلف هذه الشخصيات؟

براونشفايغ اعتمد في إعادة صياغته للمسرحية على الارتجال مع الممثلين، كما استفاد من المعالجة السينمائية التي أنجزها بيراندلو لاحقًا لنصه، والتي يصبح فيها المؤلف أكثر حضورًا ومركزية، بوصفه شخصية تواجه مخلوقاتها التخيلية وتدخل معها في علاقة صراع ومساءلة. و هذا التحول، جعل فضاء اللعبة الميتا مسرحية متسعا، و محولًا غياب المؤلف من مجرد

معطى دراماتورجي إلى سؤال عن علاقة الخالق بمخلوقاته وحدود سلطته عليها – كما وردني في (مهرجان أفينيون/2012) - يلتقي العرض مع التحولات التي عرفتها نظرية الأدب في القرن العشرين، من رولان بارت إلى ميشيل فوكو.

فبعد تراجع فكرة المؤلف بوصفه المصدر النهائي للمعنى، يعيد براونشفايغ المؤلف إلى الخشبة، ولكن لا ليستعيد سلطته، وإنما ليخضعها للمساءلة: لماذا خلق و لماذا ترك و لماذا لم يكمل و ولماذا رفض شخصياته؟ المؤلف، بهذا المعنى، لا يعود مركز الحقيقة، بل يصبح جزءًا من المشكلة. ويأخذ هذا السؤال بعدًا آخر مع الجدار الرابع. فالجدار لا يمثل مجرد حد وهمي بين الممثل والمتفرج، بل يشكل جزءًا من الجهاز المسرحي الذي ينظم علاقة الأداء بالمشاهدة ويفصل بين فضاء التمثيل وفضاء التلقي. ويرى و. ب. وورثن أن "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" تكشف هذه البنية من خلال استثمار الخشبة والإضاءة والجمهور وتقنيات الأداء، ولا سيما في سياق المسرح الإيطالي الحديث الذي أعادت الإضاءة الكهربائية تشكيل علاقاته البصرية. وفي معالجة براونشفايغ، تكتسب المسألة دلالة خاصة عندما تعبر الشخصيات الست من الصالة إلى الخشبة، فتخترق الحد الفاصل بين المشاهدة والأداء، وبين الواقع والتخييل. إنها لا تكسر الجدار الرابع حسب، بل تكشف أنه كان موجودًا أصلًا بوصفه اتفاقًا مسرحيًا ينظم من يَعرض ومن يُشاهد.

وهكذا تتحول حركة الشخصيات من الصالة إلى الخشبة إلى عبور من المتفرج إلى الممثل، ومن المشاهدة إلى الفعل، ومن الواقع المفترض إلى الواقع المسرحي. (و. ب. وورثن، «الجدار الرابع»، ضمن: باتريشيا غابوريك (تحرير)، بيراندلو في سياقه/ جامعة كامبريدج 2024).

ولا تعمل السينوغرافيا في عرض براونشفايغ على تصوير هذا الالتباس فقط وانما تشارك في إنتاجه. فالخشبة لا تستقر على فضاء واحد، وإنما تتبدل بين التمرين والتمثيل والحلم والصورة، بينما يضيف الفيديو مستوى آخر من الواقع المصطنع. وبذلك لا تعود الصورة مرادفًا للحقيقة، ولا التمثيل مرادفًا للكذب، ولا الجسد الحي أكثر صدقًا بالضرورة من الصورة المسجلة. كل عنصر ينتج واقعه الخاص، وكل تمثيل يظل اختيارًا ووجهة نظر. من هذه الزاوية، لا يبدو استخدام الفيديو مجرد تحديث تقني للنص، وإنما امتدادًا لمشكلته الفلسفية. بيراندلو يسأل: هل يستطيع الممثل أن يمثل الحقيقة؟ وهل تستطيع الكاميرا أن تقدمها؟ في الحالتين، لا توجد حقيقة بلا وسيط، ولا صورة بلا اختيار. لكن كل هذه الألعاب النظرية لا تلغي المأساة. وهذه نقطة أساسية في نجاح المعالجة.. فالشخصيات ليست مجرد حجج فلسفية حول طبيعة المسرح، بل تحمل مأساة عائلية قاسية. نحن نعرف أنها خيالية، ومع ذلك نتأثر بمصيرها؛ نعرف أن ما يحدث تمثيل، ومع ذلك يبدو الألم حقيقيًا؛ نعرف أنها لا توجد خارج الخشبة، لكنها تطالب بحقها في الحياة. وهنا يظهر السؤال البيراندلي الأكثر قسوة: هل يحتاج الألم إلى أن يكون واقعيًا لكي يكون حقيقيًا؟

وتمنع الفكاهة بدورها العرض من التحول إلى درس نظري. فالشخصيات مأساوية ومضحكة في آن، والممثلون يبدون

عقلانيين ثم يجدون أنفسهم أمام كائنات لا يستطيعون السيطرة عليها، والمخرج الذي يفترض أن يدير اللعبة يصبح هو نفسه جزءًا منها. لذلك لا تأتي الكوميديا لتخفيف الأسئلة، وإنما لتزيدها التباسًا؛ فنحن نضحك لأن الشخصيات تتصرف كما لو أنها حقيقية، ثم نكتشف أن الممثلين، الذين يعرفون أنها ليست كذلك، ليسوا بالضرورة أكثر امتلاكًا للحقيقة منها. وفي هذه اللعبة لا يبقى الجمهور خارج المعادلة. فإذا كانت الشخصية لا تستطيع إثبات وجودها وحدها، والممثل لا يستطيع ضمان حقيقة تمثيله، والمؤلف نفسه يصبح موضع سؤال، فإن المتفرج يشارك في إنتاج الحقيقة المسرحية. هل يصدق الشخصية أم الممثل الصورة أم الجسد المؤلف أم العرض؟ بهذا المعنى يمكن النظر إلى الجمهور، مجازًا، بوصفه "الشخصية السابعة": فالشخصيات الست تبحث عن مؤلف، لكن وجودها المسرحي الأخير يحتاج إلى عين تنظر إليها وتمنحها، ولو مؤقتًا، صفة الحقيقة. وهنا تكمن القيمة الأعمق لمعالجة براونشفايغ.

لقد انتقلت "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" من كونها مسرحية عن شخصيات تبحث عن كاتب إلى مسرحية عن مسرح يبحث عن تعريف جديد لذاته. الشخصيات تبحث عن المؤلف، والممثلون يبحثون عن الشخصية، والمخرج يبحث عن لغة، والجمهور يبحث عن الحقيقة. لذلك يتراجع السؤال التقليدي: ماذا تحكي المسرحية .. ليحل محله سؤال أكثر جذرية: كيف يمكن للمسرح أن يوجد؟ إن نصًا كتب في 1921 يستطيع أن يدخل، بعد أكثر من قرن، في حوار مباشر مع المسرح الذي جاء بعده. فأسئلة بيراندلو حول حقيقة الشخصية، وسلطة المؤلف، وحدود التمثيل، والفرق بين الحياة والأداء، واستقلال الشخصية عن خالقها، وعلاقة الجمهور بالوهم، لم تختف؛ بل أصبحت أكثر إلحاحًا في زمن الصورة والوسائط الرقمية، حيث يعيش الإنسان نفسه داخل شبكة متزايدة من الأدوار والصور والتمثيلات. لهذا لا يعود بيراندلو الى قراءة براونشفايغ ماضيًا مسرحيًا ينبغي تحديثه، بل سؤالًا لم يُغلق بعد.

كان يسأل: ما الشخصية؟ فيأتي العرض ليسأل: ماذا بقي من الشخصية اليوم؟ وكان يسأل: من هو المؤلف؟ فيأتي براونشفايغ ليسأل: هل ما يزال المؤلف قادرًا على امتلاك المعنى؟ وكان يضع الواقع في مواجهة الخيال، ليضيف المسرح المعاصر سؤالًا آخر: هل يمكن أصلًا أن نثق في الحدود التي تفصل بينهما؟

لا تكمن أهمية "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" في العثور على المؤلف، لأن البحث الحقيقي لم يكن عن شخص، بل عن المسرح نفسه. الشخصيات تبحث عن مؤلف، والممثل يبحث عن شخصية، والمخرج يبحث عن لغة، والجمهور يبحث عن حقيقة. وبين هذه الرغبات المتقاطعة يبقى المسرح في حالة بحث دائم عن هويته.

وربما لهذا السبب تحديدًا يظل بيراندلو قادرًا على إرباكنا: لأن المسرح الذي يبحث عن نفسه هو، في النهاية، المسرح الذي لم يفقد قدرته على الحياة.

مسرحية من فصل واحد

الرحيل

نواف يوسف*



تطرح فكرة الموت.. تلك الفكرة التي لا تطرأ على بالنا إلا ونحن على وشك الرحيل.. فنشعر بأن هناك خطأ ما قد وقع، أو أن ثمة شيئاً ما في غير مكانه.

الشخصيات: غريب, المندوب

تعتيم كامل على خشبة المسرح.. صوت يغني (دون موسيقا):

"حمامة كنت وإلا كنت.. ديب رح تضلك بهالدنيا غريب.. إذا ما الموت حوم عا بوابك واذا ما ضمك جناحه الرهيب.. مارح تنفعك حجة محامي ولا رح تفيدك وصفة طبيب".

موسيقا دون صوت سيمفونية بيتهوفن – القدر/ إضاءة).

غرفة نوم واسعة، تحوي مخدعاً للنوم، مائدة دائرية حولها عدة كراسي، وعليها إناء به بعض الزهور البنفسجية.

ساعة الحائط تشير إلى الثامنة.. غريب وحيداً في الغرفة، وقد انتهى من ارتداء ملابس النوم.. صوت الساعة يعلن تمام الثامنة.. غريب ينظر في ساعة يده.. يطفئ الأنوار، يستلقي في فراشه.

غريب: توكلنا على الله...

لحظات وتعود الأضواء، يتدارك غريب الأمر، ينهض ويعيد إطفاء الأنوار مرة أخرى.

غريب (يتمتم): يبدو أن أعراض الشيخوخة قد بدأت.. إنها أعراض الشيخوخة. (يؤكد لنفسه)

غريب: توكلنا على الله...

يعود إلى فراشه.. يستلقي مرة أخرى

لحظات.. وتعود الأضواء مرة ثانية أقوى مما كانت عليه.. ينهض من فراشه يجلس مستغرباً..

غريب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

(يطوف بنظره في أرجاء الغرفة):

ماذا حدث؟!

يدخل من باب الغرفة شاب وسيم الطلعة، يرتدي حلة أنيقة وربطة عنق.. يضع نظارة داكنة اللون.. يحمل بيده حقيبة سامسونايت فاخرة، يدخل مسرعاً وبكل جدية يجلس على الكرسي أمام المائدة.. يخرج من الحقيبة بعض الأوراق وآلة حاسبة وأقلاماً..

المندوب: السلام عليكم.

غريب (فاغراً فاه): من أنت؟
المندوب: رد السلام أولاً (وهو مشغول بالأوراق)..
غريب: لا حول ولا قوة إلا بالله (غير مصدق).
المندوب (بكل جدية):
اسمك ..؟ عمرك ..؟ عملك ..؟
غريب ما زال مأخوذاً .. يفرك عينيه.
(المندوب يقف.. يمسك الآلة الحاسبة، يستعملها، يتناول ورقة يقرأ منها):
الاسم: غريب غريب غريب
العمر (ينظر في ساعة يخرجها من جيب سترته):
إحدى وثلاثون دقيقة.
العمل: إنسان
(غريب منصتاً ومستغرباً)
المندوب (متابعاً):
اسم الأم: فاطمة
الحالة الاجتماعية: متزوج
اسم الزوجة: مريم
لا يوجد أولاد (يقولها بصوت خافت)
غريب (يسترد بعض جأشه وينهض من فراشه):
من أنت؟!
المندوب: ليس مهماً
غريب: وكيف دخلت إلى هنا؟
المندوب: (مبتسماً): وما يمنعني؟
غريب: ألم يرك من بالداخل؟ (وهو يشير إلى باب الغرفة)
المندوب: لن يراني أحد غيرك. (وهو يشير إليه بإصبعه).
غريب (يقترب منه.. يتفحصه مليّاً):
أشعر بأني أعرفك.. من تكون؟
المندوب: ليس هذا شأنك.. المهم أن أحضر في الموعد دائماً.
(يخرج من جيب سترته ساعته - يمعن النظر فيها).
المندوب (بعد أن يعيد الساعة إلى مكانها):
أرجوك.. إنني في عجلة من أمري.. لديّ عمل كثير يجب أن أنجزه اليوم.
غريب (يقترب منه أكثر ويرمقه بنظرة عميقة): يبدو أنك من مصلحة الكهرباء؟
غريب (مستأنفاً حديثه): ولكني سددت آخر فاتورة..
المندوب: (يريد أن يتكلم) – (يقاطعه غريب):
ولي شكوى من انقطاع الكهرباء المستمر رغم التزامي بتسديد الفواتير في مواعيدها وبكل دقة.
المندوب: لست مندوب مصلحة الكهرباء.
غريب: إذاً مندوب مصلحة التليفونات، من مصلحة الضرائب؟
(المندوب صامتاً متضايقاً).
غريب (يقترب منه - يدنو أكثر - يضع يده على فمه -
يتراجع للخلف - وكأنه أدرك أمراً ما، كان يخشاه).
المندوب (يدرك خوفه): لا تخش شيئاً، هذا أمر في حكم المنتهي.
(يقترب من غريب.. الذي يبتعد مذعوراً)
المندوب: يجب أن تتشجع .. الموت
غريب: (يصرخ). كلا.. كلا .. (مندفعاً إلى ركن من الغرفة)
المندوب (بهدوء): الموت.. شيء قائم بذاته، ولا بد من أن ينتصر في النهاية.
(يتساءل): أليس كذلك؟
أنت محظوظ.
غريب (يتقدم بحذر.. ويدقق في ملامح المندوب): ولكنك تبدو.. المندوب: أبدو ماذا؟
اسمع يا غريب.. إن الشكل ليس مهماً بتلك

الدرجة التي تعتقدونها. (ويشير إلى رأسه) المهم المضمون.
غريب: لا .. لا .. لا أريد.. إنني.. إنني.
المندوب (ساخراً): يبدو أنك تحب الحياة!
غريب: ومن لا يحب الحياة؟
المندوب (يعود لالتقاط بعض الأوراق والصور): ولكن المعلومات لديّ تثبت أنك إنسان تعس غير سعيد.
غريب (مستنكراً): كلا.. غير صحيح (يعدل من هندامه - يبتسم يحاول أن يبتسم): إنني سعيد.. سعيد جداً.
(يضحك).
المندوب (يقرأ من الأوراق):
غريب بن غريب..
إنسان فقير .. دخله متواضع.. ديونه كثيرة.. لا يستطيع الوفاء بالتزاماته المادية والأسرية على أكمل وجه، لم يحصل على دخل آخر.. لم يعقد أية صفقة منذ مدة طويلة.. رغم أنه يحاول جاهداً، إلا أن السبل مغلقة دائماً لعدم القدرة والخبرة.. طموحات كبيرة دون أي إمكانات.. في خلاف دائم مع الآخرين.. الزملاء.. الزوجة الأقارب.. ليس له أولاد يضطر في كثير من الأحيان إلى دخول المنزل من الباب الخلفي هرباً من صاحب البيت والخباز وبائع الخضار و...
غريب (مقاطعاً): نعم.. كل هذا صحيح.. ولكن...
المندوب: أعلم.. مدوّن لديّ، لا تخش شيئاً.. كل شيء وبدقة هنا.
(يشير إلى الأوراق).
غريب: هذا كله لا يمنع.
(المندوب يعود لقراءة الأوراق)
زوجته امرأة متذمرة باستمرار، متمردة، سليطة اللسان..
(غريب مقاطعاً):
أرجوك.. هذه أمور شخصية.. لا أسمح لأحد بتناولها ... ثم إنني أحبها. (يقولها مضطراً – ويتدارك):
سقراط كان يحب زوجته هيباس رغم كل شيء.
المندوب (مستمراً في القراءة):
ليس لديه أولاد.. كان يحلم ولا يزال بالزواج مرة أخرى بحجة ولد يؤنس وحدته ويساعده في شيخوخته.
غريب (يبدو متحسراً).
المندوب (يخرج ساعته مرة أخرى - ينظر إلى ساعة الحائط - ثم يعيدها):
أرجوك.. لا تعطلني أكثر، إنني على ارتباط ولديّ مواعيد أخرى.
غريب: لديك ارتباطات ومواعيد أخرى (يضحك) يبدو أن الأمر حقيقة.. إنني لا أحلم إذاً!
المندوب: كلا يا عزيزي.. أنت في الواقع (يذهب تجاه المائدة - يلملم أوراقه - يتناول الآلة الحاسبة.. يضعها في الحقيبة)
غريب (يبدو أنه يدبر أمراً - يقترب من المندوب وهو يتفحصه وما كاد المندوب يتأهب ويهم بالخروج حتى صاح: مهلاً.. مهلاً بلطف): لم أرك مستعجلاً؟ (يتوقف)
(المندوب.. يلتفت نحو غريب.. يرمقه بنظرة).
غريب: ولكن هذا ليس عدلاً ...
المندوب: (مستغرباً). اسمع...
غريب: اسمعني أنت.. إنه ليس عدلاً (بعد أن شعر بأنه قال شيئاً مهماً).. إنني أعترض.
المندوب: تعترض!
غريب: نعم، أعترض (بصوت خافت).
المندوب: لا أريد مشاغبة.
غريب: إن الانسان دوناً عن بقية الكائنات

الحية وهب الحرية...
حرية الاختيار أين تلك الحرية؟
المندوب: هكذا إذن؟
غريب: (وكأنه صديق عزيز للمندوب): يا صديقي إن الاختلاف بين الأصدقاء (يضع يده على كتف المندوب الذي يبتعد بغضب).
غريب (وكأنه أحس بعدل قضيته):
نعم، وهذا حقي.. إنني أعترض .. إنني أتظلّم.
المندوب (ساخراً): مثل اعتراضك وتظلمك باستمرار على ترقية زملائك في العمل.. أليس كذلك؟
غريب (صامتاً محرجاً).
المندوب (وقد امتقع وجهه).
(غريب يقترب منه): تبدو لي رحيماً. (يغمز له بطرف عينه)
نتفاهم.. هيه (يبتسم بخبث)
المندوب (مندهشاً): ماذا تقول؟
غريب (متداركاً): لا تخطئ فهمي.. أريد أن أوضح لك أمراً.
المندوب (يبدو مستعجلاً- يخرج ساعته ويعيدها بعد أن يتأكد من الوقت):
ماذا تريد؟ (وقد نفد صبره تماماً).
غريب: الموت شيء قائم بذاته لا اعتراض.. اللهم لا اعتراض (يرتفع صوته)، ولكنني أريد التفاهم معك.
المندوب: لست أفهم
غريب (يقترب منه حتى يلتصق به - ويهمس له): اقطع يدي....
(ويتدارك): مثلاً .. مثلاً.
المندوب (مأخوذاً): ماذا تقول؟!
غريب: إذاً اقطع لساني (مسترحماً)
المندوب: كف عن تلك السخافات.. ماذا تراني؟
غريب (محاولاً استمالته): اقطع يدي ولساني.. ولا تقتلني.
اسجني.. أغلق عليّ هذه الغرفة إلى الأبد، لن أخرج أبداً.
أعدك بذلك.. ولكن لا تقتلني (يبكي).
المندوب: ويحك.. من قال إني سأقتلك؟
غريب: وما الفرق؟! (لا مبالي)
المندوب: إنني مكلف باسترداد الأمانة.
غريب (يبدو مهزوماً): سأبدأ من جديد...
(ويصمت برهة ليرى مدى تفاعل المندوب معه): إن ذنوبي كثيرة.. وكبيرة (يبكي)..
أعطني مهلة على الأقل.
المندوب (بحدة): لا أستطيع.. قلت لك لا أستطيع.
غريب (متسائلاً): لماذا لا تستطيع؟
المندوب (وقد تملكه الغضب): لا أستطيع وفقط.
غريب: كما تعرف (مستعطفاً)..لم أشهد يوماً سعيداً في حياتي..
في العمل مهضوم الحقوق.. في المنزل أعيش مع زوجة حمقاء.. عاقر.. لا تلد (يحاول التأثير في المندوب). (ينظر إليه المندوب).
غريب: أنت قلت ذلك بنفسك.
ليس لديّ أولاد.. ولا أصدقاء، لم أعش يوماً هنيئاً في هذه الحياة.. امنحني.. امنحني يا سيدي فرصة.. فرصة واحدة.
المندوب: لا أستطيع.. إن هذا ليس من اختصاصي.
غريب: اختصاص من إذاً؟
المندوب (غاضباً): أراك أحمق.
غريب (بسرعة بديهة): نعم، أنا أحمق.. غبي.. كلا.. كلا .. (يقفز في الهواء – يأتي بأفعال غريبة): إنني مجنون.. مجنون ألا ترى يا سيدي؟ (مستمراً ومنوعاً في حركاته الغريبة): أعطني فرصة.. فرصة واحدة يا سيدي. (يحاول أن يمسك يده ليقبلها ..يسحبها

المندوب بسرعة - يجثم على الأرض محاولاً تقبيل قدميه ينسحب المندوب بعيداً).. فرصة واحدة يا سيدي.. أرجوك.. أرجوك.. (يبكي بحرقة).

المندوب: لا تحاول معي أبداً.. إنني عبد مثلك.

غريب (متوسلاً): بعض الوقت فقط... بعض الوقت. أرجوك!

المندوب (يهم بالخروج): لا أستطيع.. لا أستطيع.

غريب (يعترض طريقه): عام.. عام واحد فقط.

المندوب: كلا.. لا أستطيع.

غريب: إذاً دعني أكمل الستين فقط.. أرجوك.

المندوب: قلت لك لا أستطيع.

غريب: شهر إذاً.. (ينتظر الرد)..

المندوب: كلا.. كلا...

غريب: أسبوع.. ليكن أسبوعاً (يقولها بثقة وكأنه يتفق مع المندوب)

المندوب: كلا..

غريب (يؤكد له): إذاً يوم واحد.. يوم واحد فقط (يقولها باستخفاف).

المندوب: كلا.. لا تضيع وقتي، قلت لك كلا.

غريب (مستسلماً): إذاً دعني أودع خديجة.. فقط لحظات رغم أنها حمقاء وجاهلة.. إلا أنها عشرة العمر.. العمر كله.

(يقولها بحسرة)

المندوب (مستفسراً): من تكون خديجة؟

غريب (مستغرباً): خديجة.. زوجتي.

المندوب(ينطلق مسرعاً نحو المائدة - يعيد فتح الحقيبة.. يتناول الأوراق يراجعها، يلتقط الآلة الحاسبة والصور، وبسرعة متناهية يعيد كل شيء إلى مكانه.. يأخذ الحقيبة وينطلق).

(الخلفية الموسيقية سيمفونية بيتهوفن – القدر).

غريب: مهلاً.. سيدي.. (يناديه)، سيدي أرجوك، أعطني فرصة.. لا تكن قاسياً.. إنكم ذوو قلوب رحيمة.

المندوب (مغادراً الغرفة - ينظر إلى ساعته ويقارنها بساعة الحائط، وينطلق مسرعاً):

سأعود إليك.. سأعود.

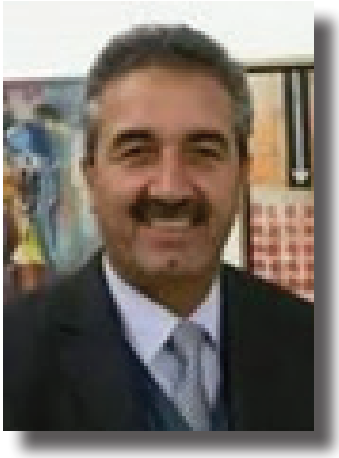
غريب (في إثره سيدي): سيدي.. (يخرج المندوب من الغرفة.. يبقى غريب وحيداً وسط الغرفة مطرقاً).

يبدو أن حياة أغلب الناس هي صراع مستمر لمحاولة البقاء.. ودائماً ينتهي هذا الصراع بالرحيل.

***نواف يوسف: كاتب / مسرحي سوري، مدير تحرير مجلة "الشارقة الثقافية"**

العباءة

سلام حربه



ولدت منتصف القرن العشرين في مدينة الحلة التي تقع على نهر الفرات. محلتنا الوردية تتنفس صيفا وشتاءً نسمات النهر البليلة المنعشة وأسماعنا لا يصلها سوى صراخ النوارس وطيور الماء وهي تتنافس لحيازة قطعة خبز أو فتات طعام طاف على النهر وحين تشبع وتهدأ تستريح على سجادة الماء وتغفو على ايقاع الموجات الراقصة الى حيث البساتين والبراري البعيدة. من يوم تفتحت عيناي ووعيت الدنيا وتحسست موطئ قدميّ في تراب أزقة محلتنا هذه والناس تعاني من ضيق منذ ما يقرب من قرن كامل حين سكنت عائلة، لا أحد يعرف من أين أتت، ولم يقترب أبناء المحلة منها، زوج وزوجة وابن ومعهم مطية في أكثر الأحيان كانت تُربط في ممر البيت الضيق وليال كثيرة تربط بمقبض الباب النحاسي خارج الدار يتوسد رأسها الباب الخشبية المتهالكة. كان أب العائلة عارف وهذا ما أخبرني به أبي فاضل نقلا عن أبيه جدي حسان يحمل خرجا على هذه الدابة ويدور في المحلات والقرى القريبة يبيع الأعشاب الطبية، بمرور الوقت ابتدأ أبناء المحلة يطلقون عليه اسم الطبيب وعلى بيتهم بيت الطبيب، وعلى الرغم من أن معظم أبناء المحلة ومعهم أبناء المحلات الأخرى يطرقون بابهم في النهار والليل طلبا لمساعدة الأب حين يمرض طفل أو رجل أو امرأة، لم يكن العلاج مجانا وينقّد الناس الأب ما يطلب وعلى الرغم من مرور سنين بالسكن بينهم لكنه لم ينفتح بالعلاقة مع أحد، كان دائم الظهور في زقاق المحلة أو في الشارع المحاذي للنهر وهو متجهم الوجه بملامح متغضنة وبشرة سمراء من لفح نسائم الصيف الحارة يتنقل بين القرى للترويج عن طبه وصيدليته العشبية. كان قليل الكلام وحين يسترسل في الحديث لشرح حالة المريض يشعر من يستمع اليه بأن لكنته غريبة وهذا ما كثّر الهمس في المحلة والمدينة بأن أصول هذه العائلة آسيوية وحتى لون بشرتهم غامق يميل الى الصفرة يشتهر به الهنود والباكستانيون والبنغلاديشيون ما ولّد أسئلة عديدة تناقلتها الناس في الخفاء وخلف جدران بيوتهم المتهالكة المبنية من الطابوق الأثري والطين. كانت عائلتهم

تتكون من الأب عارف والزوجة التي لم يرها يوما لا الرجال ولا نساء المحلة وإن خرجت من البيت كانت تغطي وجهها بالبوشية، قطعة قماش سوداء ناعمة ترتديها النساء إخفاءً لملامح وجوههن، ترفض مقابلة نساء المحلة ولا يُعرف سر هذه المرأة وانزواءها وغلق الباب بوجه أي طارق، لكن أبي يقول ربما أنها لا تعرف العربية وتخاف أن يفتضح أمرهم. للعائلة ابن وحيد اسمه كريم يبدو حين يمشي مع أبيه في الزقاق أكثر تجهما وغالبا ما يكون رأسه منكسا الى الأرض كاستدارة علامة سؤال. كان كريم أكبر من أبي قرابة العشرين عاما، علما أن أبي من مواليد عام ألف وتسعمئة وعشرة، لم يره أحد يمشي لوحده أو يختلط بشخص قريب من عمره، من صغره تعلم مهنة الأعشاب من أبيه عارف وكان في كثير من الأحيان هو من يوصف الدواء للمريض الذي يطرق بابهم في ساعات الليل المتأخرة أو الصباح الباكر حين يكون أبوه نائما أو مسافرا لجلب الأعشاب أو مريضا غير قادر على معاينة مرضاه. الأب والابن كريم متعاليان صلفان يتعاملان بخشونة مع أبناء المحلة وينظران الى الآخرين بترفع لإحساسهما، هذا ما يؤكده المراجعون الدائميون لهما، أن منبتهما أخصب وأصلهما أرفع مرتبة ومقام، الجهل يكرس النسب وهو من يحدد المكانة الاجتماعية في أعرافنا. ما ميز الابن كريم عن أبناء المحلة أنه التحق في أحد الكتاتيب التي يديرها الشيخ هلال لتعلم القراءة والكتابة وهو في العاشرة من العمر، كان كريم لا يُرى في الزقاق إلا وهو يحمل الأوراق والقلم وانقطع الى الدراسة وتفوق على أقرانه في كتّاب الشيخ هلال. مختار المحلة داود نمت في داخله كراهية مقيتة تجاه هذه العائلة، عارف وكريم لا يعاملانه باحترام ولا يلتفتان اليه، هذا ما شعر به أبناء المحلة التي بدأت تخاف هذه العائلة وتحني الرؤوس لها، تجدها معينا لها ليس في تسكين آلامها فقط بل في كشف ما تختلج به النفوس من مشاعر وأحزان وآهات ولوعات والخلاص من العوز والفقر بجرعة دواء قد تستقيم بها أحوالهم وتفتح لهم نافذة أمل مزيف.

في العقد الأول من القرن العشرين توفي عارف الذي حظي بتشييع مهيب اشترك به أبناء المدينة قاطبة، وأقيمت له فاتحة ضخمة في مسجد المحلة استمرت قرابة الاسبوع.

كان كريم قد بلغ من العمر خمسة وعشرين عاما وقد أتقن اللغة العربية في كتّاب الشيخ هلال وحفظ القرآن الكريم، اعتاد حين يتكلم مع الآخرين أن يفتتح كلامه بآية قرآنية أو بحديث نبوي، علماً أن هذه العائلة لم يكن يعرف أحد حين حطت في المحلة هل هم مسلمون أم يعتنقون ديانة أخرى. طيلة سنين كما أخبر جدي حسان والدي لم يدخل عارف أو كريم المسجد القريب من بيتهم إلا حين تخرج كريم من الكتّاب وداوم على الحضور في المسجد واداء الصلاة بأوقاتها وقراءة القرآن بصوت عال. بمرور الوقت أصبح كريم سيد المحلة فهو طبيبها وصاحب الحكمة الأوحد، كان يجيب أبناء المحلة عن الأسئلة التي تخامر عقولهم وهذا ما خلق قطيعة كبيرة مع مختار المحلة وأقربائه من أبناء عشيرته الذين يسكنون في أكثر من نصف بيوت المحلة وأقدم من استوطنها. في العرف العشائري لا يجوز تجاوزهم، لم يرتضوا أن يأخذ أحد مكانتهم في المحلة ويلغي تسيّدهم وخضوع الآخرين اليهم. تزوج كريم من امرأة غريبة يعتقد أنها من نفسها عائلتهم ولم تُعرف في أية

محلة أو مدينة كانت تسكن، دخلت الى بيتهم مكللة بالسواد ولم يرها أحد كوالدته وقرابة العقدين من الزمن والناس تجهل هل مازالت حيّة ترزق أم ماتت ودفنت بالسر..؟ رزق كريم بابن سماه عمران، كان يحضر معه الى المسجد ليعلمه أصول الصلاة، مع أن عمران يجلس في الخط الاول قرب المنبر الذي يجلس عليه أبوه كريم، حين يطلب بعض الرجال توضيح واجابة عن لغز ديني خامر عقولهم البسيطة، إلا أن عمران لا يشغله الأمر الديني, فقد كان مولعا باللعب في الزقاق مع أبناء المحلة ومهووسا بإشباع رغباته الجنسية على الرغم من اعتراض الأب كريم وزجره ومنعه الاختلاط مع أقرانه، أصدقاء السوء، كما يصفهم. صادف يوما أن تخاصم عمران مع حفيد داود مختار المحلة الصبي سلمان ذو الوجه القمري الجميل وجدائل شعره الذهبية، استغل المختار هذا الحدث بالهجوم على بيت كريم مع الكثير من أبناء عشيرته وطالبوه بالخروج من المحلة، التي تحملتهم لعقود ولا يعرف أصلهم وهم نذير شؤم على المحلة والمدينة، وإلا فلن ينعموا بالراحة بعد اليوم.
لم يجبهم كريم وبقي هادئا لكن بركانا كان يتفجر داخله ترى حممه الحمر تطعن بشرة وجهه الداكن السمرة، كظم غيظه وأشار الى أتباعه الواقفين على مسافة من بيته أن يبقوا بعيدين ولا يشعلوا فتيل هذه المشاجرة بصب زيت كلام ثقيل حارق يزيدها اتقادا، انسحب الى الداخل وأغلق الباب بهدوء على الرغم من سيل الشتائم التي امطرها على رأسه داود ونفر من أقربائه. أخبرني أبي، وهو يسرد لي سيرة المحلة، بأن هذا الحدث لم يمر مرور الكرام وتبعته أحداث بعد أن انقسمت المحلة الى فريقين مع وضد كريم.. مضت الأيام بسكون مشحون بالقلق ينذر بالانفجار في أية لحظة، لكن ما انتبه اليه أبناء المحلة أن كريما بقي على هدوئه وحركته الدائرية القصيرة بين البيت والمسجد، وفطن الناس أن هناك عددا من الأشخاص، من أبناء المحلة والغرباء، يحيطون به في ذهابه وعودته من المسجد أثار الريبة والشكوك في النفوس وفتح أبواب الحدس والتأويل والترقب.
في أحد الصباحات علت أصوات وصراخ نساء في بيت المختار داود. تجمع الناس قرب الدار، خرج المختار مكفهر الوجه وشاحبا، يرتجف من الألم والعصبية وأخبر الحاضرين أن حفيده سلمان الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاما قد غاب عن البيت منذ الليلة البارحة ولا أحد يعلم أين اختفى. تعالى الهمس بين الحاضرين وخمنوا أن يكون لكريم يد في هذا الاختفاء. ذهب داود وأبناؤه الى مراكز الشرطة والمستشفيات بحثا عنه لكنهم لم يصلوا الى نتيجة، ما اضطرهم في النهاية طرق باب كريم ليخبروه أن شكوكهم تتجه نحوه خاصة أن الشجار بين عمران وحفيدهم سلمان ما زالت ناره مستعرة في القلوب والوعيد يستتر في الكلام المبطن الذي تراشقوا به ولم يمض عليه سوى بضعة أشهر.
تدخل أبي كما أخبرني وطلب منهم الهدوء والانتظار فقد يظهر الحفيد في أية لحظة، قد يكون مسافرا لأقربائه المتوزعين في قرى المدينة أو في المحافظات القريبة. لم ينطق كريم سوى بالآية القرآنية إن بعض الظن أثم وانسحب الى داخل داره وسط ذهول الجميع، تقدم المختار بالشكوى على كريم في مركز الشرطة القريب ولكن التحقيق معه لم يتوصل الى شيء وسجل الاختفاء ضد مجهول. بعد مضي قرابة الشهر وجدت جثة سلمان في

مزبلة في أطراف المدينة، تحركت الجموع للوقوف على الجثة المتفسخة، إلا ان ما أثار انتباههم أن جدائله الصفر قد قُطعت مما أثار استغرابهم، لكن الرائحة العطنة التي تنبعث من الجثة لم تسمح لهم بالتدقيق والتنقيب في هذا الأمر. في كل ثلاثة أو ستة أشهر كان يختفي أحد أقرباء المختار من المتصدين والجاهرين بالعداء الى كريم. استعرت الشكوك في الصدور ولكن لا خيط يرى أو يلمس يطفئ الشكوك في هذه الجرائم، لكن ما كان يثير استغراب الجميع أن كل ضحية كان يؤخذ شيئا منها، من هذا يؤخذ شارب مفتول ومن آخر لفة من عقال مميز ومن ذاك خيوط ورسوم جميلة في يشماغه أو تشكيلات ألوان وحياكات باهرة أو تطريز خاص في صدر دشداشة تخص فلان دون غيره. لم ينج من القتل حتى أصدقاء عمران الذي أصبح شابا وبدأ يخالط شباب المحلة والمدينة المشهورين بأفكارهم التحررية الغريبة التي تناهض أفكار كريم وأتباعه وقد تسحب بساط الوهم والخرافة الذي يقفون عليه وتفضح أباطيلهم وجرائمهم. هدده أبوه بالابتعاد عنهم، وهذا ما حصل، حين اتهمهم كريم بالزندقة والكفر، عاشر أهل السوء لأن عمران لا تشغله أية فكرة أو قضية عامة ما يهمه ويؤرقه السبل لإطفاء نار شبقه وشهوته. لا يمر شهر من دون أن تعثر المدينة على جثة أحد الزنادقة الكفرة أو من المعترضين على كريم وقد شوهت وانتزع شيئا مميزا من جسده أو لباسه، وآخر الخسائر التي شهدتها المحلة اختفاء المختار الذي تجاوز عمره الثمانين عاما، أُصيبت المدينة بالهستيريا حين وجدوا جثته بعد شهر في أرض قفر قصية عن المدينة، رائحة الجثة تزكم الأنوف، لم تفقد الجثة رغم تحللها صرخات الغضب الطرية التي طبعت على وجه المختار وفمه مازال مفتوحا، لكن ما تم الانتباه اليه فقدان الخاتم الفضي بشذرته الزرقاء المميزة الذي يزين بنصر يده اليسرى منذ عقود، هاجت المحلة والمدينة واشتعلتا بالصراخ وكثرت الاتهامات على كريم وغيره وفي النهاية صمتت المدينة على مضض وفتيل الثأر بقي وامضا في الصدور.

تزوج عمران من امرأة جلبها أبوه كريم له، دخلت المحلة وهي مغطاة بتل من السواد لا يُفرزن رأسها من رجليها، وما أن أُغلقت الباب وراءها لم تعد تُرى كحال أية امرأة عبرت قدماها عتبة هذه الدار ولن يُعرف مصيرها. ثقلت خطى كريم وهو يتجه الى مواعيد الصلاة كل يوم وقد اقترب عمره من الثمانين عاما، في أيامه الأخيرة كان يصاحبه خالد الصبي ابن عمران، عمره عشرة أعوام، يتكأ عليه في دخوله وخروجه من المسجد وعيون أتباعه مبثوثة في الزقاق وفي زوايا المسجد. في يوم ربيعي وقرص الشمس يضحك في السماء وقبل أن يفارق الحياة بأيام خرج بمظهر غريب وهو يجوب أزقة المحلة وشوارع المدينة مرتديا عباءة حيكت بطريقة لافتة للنظر شدت انتباه كل من نظر اليها منسوجة من خصل شعر وضفائر وخيوط ألبسة وتطريزات وزخارف عبي رجالية والوان يشاميغ مائزة ارتدوها الضحايا، حتى خاتم المختار داود كان يتدلى في الحاشية المطرزة بخيوط الذهب على صدره، لكن لا أحد قادر على أن يهمس أو يجهر بما رأى والا سيكون البعض منه خيوطا في هذه العباءة..

توفي كريم في سبعينيات القرن الماضي وأنا لم أبلغ العشرين من العمر، خلفه ابنه عمران

الذي كان زاهدا في طبابة الأعشاب ولا يتقنها، كان مهووسا بملذاته، ولم يبلغ من المعرفة حتى يجيب على أسئلة أبناء المحلة والمدينة. توفي عمران بعد سنين لإصابته بمرض جنسي خطير. ورثه خالد وقد أصبح شابا نشيطا تعلم طبابة الأعشاب وواصل تعليمه في مدارس المدينة أضاف اليه ما حفظه من تعاليم جده كريم الذي كان مثله الأعلى في الحكمة والسلوك.

كانت المحلة تتعامل بحذر مع خالد الذي يختلف عن أبيه عمران، مظهره حمل وديع وعيناه ذئبيتان تبرقان بالشر، عاد مسلسل الاختفاء من جديد، كان يريد أن يستحوذ على كل شيء في المدينة بيوتها أموالها أراضيها رجالها نسائها تأريخها وحين فطن أبناء المحلة والمدينة الى خطره العظيم الذي فاق خطر جده كريم. طرق أبناء المحلة بابي وعمري يقترب يومها من السبعين عاما، كنت من الشهود القلائل الأحياء الذين واكبوا مسيرة هذه العائلة اللعنة، وهم يعرفون اجهاري بالحق ولا أصمت أمام الباطل وإن كلفني ذلك حياتي وهذا ما يشهد عليه القاصي والداني. سألتهم ..

- ماذا تريدون..؟

أجابوا بصوت واحد:

- يجب الوقوف بوجه خالد، هذا أشد خطرا من جده كريم..

دعوت كل أبناء محلة الوردية والمحلات القريبة للتجمع في جامع المدينة الكبير ووجهت الدعوة الى خالد لحضور هذا التجمع يوم الجمعة وقبل صلاة الظهر. ازدحم المسجد بالحاضرين. دخل خالد وهو يلبس عباءة جده المرصعة بمخلفات ضحاياه وهو يتميز زهوا، جلس في الصف الأول، ألقيت ُكلمة طلبت من الحضور أن يكونوا يدا واحدة أمام أطماع الآخرين وعيناي لم تفارقا تقاطيع وجه خالد وما ينعكس عليها من رذاذ كلامي. ما أن انهيت خطبتي حتى قفز خالد ووقف أمام جموع الحاضرين وابتسامة ماجنة داعرة تتراقص على وجهه الذي يشع عافية ونظارة.. قال وهو يوزع نظراته الدموية الشرسة بصلف في عيون الجميع..

- كيف تتهمونني بالسرقة بكل وقاحة واستهتار..؟

أمسك بطرف العباءة وقال متوعدا:

- هذه عباءة جدي كريم الزاهد، كلكم تعرفونها، لقد أضفت لها البعض من خيوطي هل تريدون مني أن أنسج عباءة ثانية مثلها..؟ أنا لا مانع لدي..

أطبق الصمت على الجميع، الأفواه ألجمت من الدهشة ولم تتكلم سوى لغة العيون، مازال الجمع متواجدا في الجامع منذ أيام وشهور ينتظرون قرارا رصينا شجاعا يختمر في العقول كي يواجهوا خطر خالد المحدق بالجميع..

إخوة النار

انتصار عباس*



ينسلخ النهار، يدخل الليل في النهار، ثم يعيد الكرة من جديد، أيام وشهور تمر، ونحن نفكر لا ندري ما الذي يدور حولنا، ليس أمامنا سوى التأفف والتذمر، والاعتراض في بعض الأحيان، أحداث غريبة بدأت تتعاقب علينا منذ أن دخل ذاك الغريب ورجاله إلى ديارنا، رحب به أخي كبير قبيلتنا، وكبار القرى المجاورة، أشد ترحيبا، ثم تلاه آخرون وآخرون في البداية قالوا: جاء من أجل مشروع استثماري كبير، ينشئ مدنا عمرانية، وجسورا تصل المدن بعضها ببعض، وسينما وألعابا، فرحنا، وصدقنا على الرغم من تلك الشكوك التي كانت تراودنا حوله في بعض الأحيان، مرت شهور وهم بيننا، كانوا لطفاء، يبادلوننا التحية والود، اعتدنا عليهم وبدأنا نصدق أكاذيبهم، ثم بعد ذلك بدأت أحداث غريبة تحدث، قتل هنا، سرقات هناك، إلى أن صحونا يوما على صوت البنادق وأصوات تئن وتستغيث هرعنا إلى الخارج، كان ضيفنا من قاسمناه ملحنا وزادنا، من يطلق النار علينا وعلى ابنائنا، هو وكل من جاءوا معه، يردون إلينا الإحسان بالدم والبارود، وقد خبأوا رشاشاتهم تحت عباءات الود والامتنان، مات الكثير منا، خرجنا تاركين خلفنا أموالنا، وديار آبائنا وأجدادنا لآلاف السنين، همنا على وجوهنا إلى ديار جديدة، كان الفرار بدمائنا هو خيارنا القسري، أو الموت، سار أخي الكبير في المقدمة، تكاد خطواته الثقيلة تتهاوى، شعر بنفسه يتضاءل، وقد رمى بأذنيه إلى الطريق يستمع إلى الأحاديث التي تدار حوله، كانت تمتمات ولغط أحاديث حول هذا الهروب القسري، وتلك المشاريع التي كانت فخاخا أوقعوا كبار القبائل بها، ينظر إلى حاشيته من حوله ليدافعوا، ليعارضوا تلك الأحاديث وقد ساروا صامتين، تنهشه نظرات إخوته، وأصواته الخافتة وهي تتحدث عنه وعن هؤلاء الغرباء، كنا أحد عشر أخا، سأشير إليهم حسب أعمارهم فالأول هو الأكبر، والثاني الذي يليه، انتهاء إلى الأصغر وهو أنا، همس أحد اخوتي وهو مقرب جدا من أخي الأكبر

وكأنه يحدث آخر من القبائل الفارة معنا: خدع أخي بهؤلاء الغرباء..
فجاء الرد: ونحن كذلك خدع كبارنا بهم..
قال آخر: الحقيقة أننا خدعنا جميعا، اشتبكت الأصوات ذاك يدافع عن الكبار، وذاك يحملهم المسؤولية، وذاك يحمل الجميع وذاك، وذاك، ثم تفرقت الأصوات فكل قبيلة سارت في اتجاه، سرنا نكمل طريقنا ولا ندري إلى أين نمضي؟ سار أخي شاردا يحدث نفسه بحسرة وألم وتأنيب ضمير: ماذا الذي فعلته بأهلي وديارى، وهؤلاء كيف استطاعوا أن يخدعونا كل هذا الوقت؟ تعالت أصوات النساء والأطفال يطلبون أخذ استراحة، وقد أنهكهم الجوع والتعب.
قال أخي بثقة: اصبروا كيلو مترات ونصل، اخوتنا في انتظارنا، وهناك الطعام والشراب والمأوى.. اطمئنوا..
كان جسدي منهكا لا يقوى على السير أيضا، أصابني دوار، ثم سقطت، حاولت النهوض أو المناداة .. طلبا للاستغاثة، لكنني لم أقو على النداء أو النهوض، وأغمى علي، لا أدري ربما سقط غيري أيضا، ولم ينتبه إليه أحد، فالجميع كان منهكا، تمر الساعات وأنا غائب عن الوعي، صحوت لا أدري كم من الوقت مر علي وأنا على تلك الحال، تلفت حولي وجدتني وحدي، ولم أجد اخوتي حولي، لا بد أنهم تابعوا السير ولم ينتبهوا إلي في هذا الظلام الدامس، وأسر ولا أدري إلى أين تأخذني الطريق، تراءت إلى عيني نار في الجوار، تلمست جسدي المتجمد من شدة البرد، ناديتها: خذيني إليك واسري بدفئك في عروقي وقد ضيعت السبيل، اقتربت منها شعرت بسريان الدفء في حناياي، تنحيت جانبا، تناهت إلى سمعي أصوات أكاد أعرفها كانت تتلاسن بالحديث، تقرع بعضها بعضا، وتكاد تمزق سكون الظلام.
قال أحدهم بانكسار: توهم أهل قريتي أن هذا الشتات لن يدوم طويلا قالوا أياما ونعود. وها نحن نجلس في العراء تهاجمنا الرياح، والأمطار والثعابين والحشرات.
رد آخر: أضعنا أنفسنا في رحيلنا هذا، ثم أضاف بنبرة أشد ألماً: لم نعد نعرف بعضنا بعضا!
قلت في نفسي: هؤلاء إخوتي، ها هو أخي الأكبر جالساً لا يقوى على الإفلات من نظرات إخوته التي كانت تدينه، وتعريه، لكن عيناه كانتا تفضحان هشاشته.. قطع صوت أخي أفكار الجميع بقوله: كان علينا الاستبسال في الدفاع عن ديارنا، فإما الشهادة أو الموت، ما كان علينا أن نترك ديارنا هكذا.. أرضنا عرضنا.
قال الثاني بيأس: ليتنا متنا قبل هذا وكنا نسياً منسياً.
قال الثالث بحزم: علينا أن نقاومهم ونصمد في وجوههم حتى لو خسرنا أرواحنا
وقف الرابع قائلا: أهي الخيانة التي أطاحت بنا هكذا أم هو الجهل والغفلة؟!
قاطعه الخامس: هناك من باع نفسه للشيطان، الموت للخونة!
تساءل السادس بقلق: ولكن أين أخونا الحادي عشر؟! أخشى أن يكون قد تاه وضل الطريق؟!
قهقه الأول ساخرا: أكلته العتمة، ربما ذهب ليقضي حاجة ويعود ..!
صحت بمرارة: يا للهول، إنه يهزأ بي..
قال العاشر مواجهاً الأخ الأكبر:
أنت وراء ما نحن فيه، عاملت الغرباء

بالطيبة والود، حذرناك منهم ومن تغلغلهم في ديارنا، أتذكر، لكن جشعك وقد كنت شريكهم في مشاريعهم المغرية، وعنادك هما اللذان أوصلانا إلى هنا، ما الذي نفعله هنا أخبرني؟ في النهار نصطلي بحر الشمس، وفي الليل تهاجمنا ضباع الليل وافاعيه، ما الذي نفعله وسط هذا الظلام، يجلدنا الريح، فلم نكد نرى حتى أصابعنا، ارتفع صوت الأول وهو يحاول استجماع هيبته المكسورة: أنا لم أخن أحدا، ظننت تلك المشاريع ستنهض بديارنا، حتى أنني ساهمت بكل ما لدي من مال، من أجل إعمار بلدي، لكني أخذت على حين غرة، أقسم أنني لم أخن بلدي يوما، وشرقت عيناه بالدمع، كان يتحدث وكأنه يطلب العفو، لكنه في الوقت نفسه كان يحاول أن يحمل وزر اخطائه للآخرين، ثم تنهد قائلا بحماسة مصطنعة: لكننا سنعود.. يهز رأسه: نعم سنعود، علينا أولا أن نقتص من الخونة. ثم أخذ يتفرس في وجه أخيه العاشر بغيظ وازدراء قائلا: اقترب.. فلك نبوءة عندي.

لكن العاشر لم يكترث له وكأنه لم يسمع شيئا، اشتد غيظ الأول، وازداد حقده.

في الهزيع الأخير من الليل، سمعت صوت همهمة، وأقدام تمر بالقرب مني، كادت تدوس قدمي، من دون أن تنتبه إلي، لكني بقيت صامتا، لا أبرح مكاني، كان جميع اخوتي يغطون في سبات عميق، وقد أعياهم الجوع والتعب، ومع انبلاج ساعات الفجر الأولى، سمعت صوت أخي العاشر يسأل بقلق: أين بقية اخوتي؟! وقد صحا يتفقد الجميع كعادته.

أجاب الأول ببرود يخفي اضطراباً وقلقا: رحل أخواك الثامن والتاسع، ورحلت الخيانة معهما.. لكن ظل واحد منهما يتشمم الأخبار.

التفت الأول نحو العاشر، وقد أختره ليكون ضحية: أنت ثالثهم...

وقف العاشر بصلابة لم يعهدها أحد فيه: صدقوني لم أكن أعرف برحيلهما، ولو عرفت لكنت رحلت معهما، بدلا من هذا الهراء الذي نحن فيه، فلربما عادا، أو علهما اختارا مكانا آخر لست أدري، لكني لم أكن يوماً خائناً، ولن أكون ..

صرخ الأول في وجه العاشر: لن ترحل قبل أن تسمع رؤياي..

قال العاشر: بدهشة وتهكم هات ما عندك

الأول: رأيتك في حلمي وأنت تعترش النار، ثم تتحد معها، تأتي الريح وتذرك رماداً!

تأهب الأخوة المشايعون للأخ العاشر وقد ازدادوا التفافا حوله، نظر في وجوه إخوته باندهاش واستغراب.

قال العاشر بقوة أرعبت الأخ الأكبر: الآن تأكدت من خيانتك يا أخي وقد جعلتني كبش فداء. ثم نظر إلى إخوته قائلا: ما بكم متخشبين هكذا تحدقون في اللاشيء كالأصنام، قولوا، تحركوا، تراجع للخلف اثنان، وعيونهم تفيض بالدمع، وقد تحجرت حناجرهم..

اقترب اخوته الذين يناصرون أخاهم الأكبر وهم صامتون، وجوههم تقطر قسوة، عيونهم تدور.. وتدور، في أعماقهم يدفنون الحقيقة لكنهم عموا، فهو رب الأعمال، والمال، والأمر كله بيده.

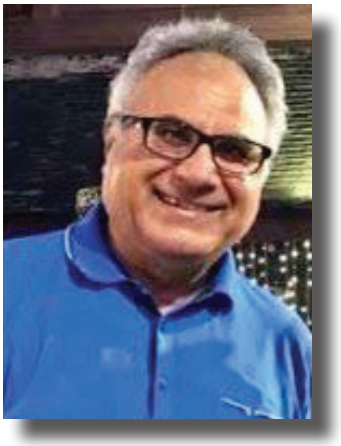
هزّ العاشر رأسه بأسى: إن تحجرت قلوبكم الآن وعمت، ستبصر غدا، لكن بعد فوات الأوان.

حاول الخروج، فازدادوا التفافاً... اقترب الأول من النار مقهقها: انظروا ها هي تزمجر وقد اشتدت أوزارها، تنتظر..
ردّ الخامس: كنت أظن أنها تتضور جوعا.
صاح اثنان من إخوته: لا، لن يكون أخونا طعماً للنار!
قهقه الأول: إنها تسأل هل من مزيد؟
ثم صاح بأعلى صوته: دعونا نرفعه فوق عرش النار، وقذفوه في النار
جلجل صوت العاشر يناجيها:
يا نار كوني بردا وسلاما علي، وخذيني وذاك الشوق المستعر في روحي للديار، واجعليني نبضا في عروق إخوتي، فتذكرني الساعة والليل والنهار.. لوني بنات الأرض ببقايا دمي، وابذري رمادي شقائق وريحانا كلما قطفتني يد سلت في دمها، وعرشت بضيائي قمرا وكواكبا ونجوم واجمعيني حبة، حبة، سبحة، سبحة في صدور المحبين، العابدين التائهين، الراكعين، الساجدين، ودعيني قريبة اليك فقد حانت ساعتي.. سلام عليكم إخوتي، وسلام علي يوم أبعث حيا.
فاض دمعي وقد بلل ما حولي من تراب، كاد حسيس النار يصل إلي وهي تحمل صوته يتلو تعويذة الغسق.. وتلبس جسده، وقد غشى وجهه النور.. في تلك اللحظة، وسط سكون الرماد المتطاير، انبعث من أعماق انكساري، ضجيج صوت آمر لم يكن غريباً عني، قال: كُن..!
لا أدري من أين جاءتني تلك النبرة وتلك القوة قلت بعزم وبكل ما تبقى مني: نعم.. سأكون.

• **قاصة أردنية**

ضيوف النهر

عبد جعفر/ لندن



غفا النهر وسكنت أمواجه وضفتاه، بعد أن أحتضن ضيوفه، وأخذ يغذيهم من روحه، ويسهر على نومتهم الدائمة فيه، قبل أن يكونوا أشنات مخلوقاته الكثيرة، وأن خالف أحدهم هذا التكوين العجيب يلفظه الى الأعلى ويعلن عودته الى اليابسة.

بداي وأمه أحبا ضيافته، وترك لأمواجه مهمة تسجيل رحلتهما أليه، على الرغم من أنها لم تكن لها بداية واضحة ولا نهاية معلومة.

مازال البرد القارص، يشعر الأرملة زهرة بالقشعيرة، فلم تعد إسمالها السوداء تجلب الحرارة، وهي متجهة لجمع الحطب، لتدفئة إبنها بداي، عليها أن تمضي ساعات ..تقص هنا وهناك، مع هذا الزمهرير، فبرد (الجله) يحتاج حطبا كثيرا.

شعرت أن عظامها تتجمد وأن برد الكون يتجمع على جسدها الواهن، ويتراقص على عظامها الهشة، بل يشعرها كأنها تمشي عارية. ونطت منها كلمة تجديف كمعادل لوجعها: ليش يا أبو خيمة الزركة؟ تذكرت بداي وأنه سيجبر على الغطس .. سيغطس في الشط البارد بصندوق الى الصباح، ثم ندبت لماذا ياربي، نحن لم نعمل شيئا حراما في دنينا؟!

كادت تضيف كلمات أخرى، لكنها خافت أن يبحر بها التجديف بعيدا، فأخذت تستغفر ربها، ومن الشيطان الخناس الذي يوسس في صدور الناس كما يردد السيد خضر. فكل ما عملته من توسلات وبكاء وتوسلات، لم تشفع من تغيير أمر الشيخ بتغطيس إبنها الوحيد بداي في النهر هذه الليلة الباردة، شعرت إنها لا تخاطب بشرا بل حجرا، حتى الحجر يستجيب لبكائها المر، وتخيلته شيطانا له عينان حمراوان وأنف كبير، وتكورت نهايته ككرة، وحين يكشر إسنانه تبان إنياب صفراء، وكأنه سيهجم عليها بأية لحظة، وليس أمامها سوى أن ترفع العصا وتضربه، إنتبهت لنفسها وهي تحمله نعالها البلاستيكي، ويدها ترتعش، نظر إليها، ورأى كيف نزلت العباءة وأظهرت جسدا فارعا، توجست شرا من نظراته الشهوانية وهي تطالع جسدها، وتستقر على صدرها،

وربما ستكون فرصته لمساومة، عدلت من وضع عباءتها، فقد يعتقد إنها لقمة سائغة، من دون أن يعرف أن زهرة تعادل ألف رجل مثله، فوجئ حين أمرته نفسه الدنيئة ذات يوم، أن يحاول معها، فصدته وردته بقسوة، ربما هي المرة الأولى التي تصده فيها أمرأة مثلها، وشعر أن بصقة ملأت وجهه، قال لها ذلك بوضوح، وهددها بالإنتقام، فردت عليه ساخرة، الحرة ما تفرط بعرضها يا ..

كان يعرف إنها تسند على حائط متين، فبداي أصبح رجلا، بل رجلها، وورث قوة أبيه وجسارته، تعرف في قرارة نفسها، إن الشيخ وجد حادثة بداي ضالته للإنتقام منها، أرجعت النعال لقدمها، وندمت أنها لم تفعلها، لم ترشق وجهه به. فهي لم ترمثله في وقاحته، يساوره دائما شعور إنه الفحل الوحيد بالقرية .

وعد بتغيير قراره، إهانة ما بعدها إهانة، كيف يغير كلمته وهو الشيخ بن الشيخ من إجل امرأة ؟ وقف قبالتها ونفث من أنفه الطويل دخانه، وقال لها كمن يخاطب الرجال الذين طأطاوا رؤوسهم.

-إبنك .. يحرض الفلاحين علي، يبدو ان التعليم أفسد مخه .

بالإمس كان يلعب بالطين، واليوم يريد ان يغير سنن الكون بكفره، فالغني غني والفقير فقير الى ما شاء الله، والى يوم يبعثون! ليسمع الجميع كل من يعمل مثل فعلته السوداء لا يلوم ألا نفسه!

ارادت، وقتها أن تستعين بأي شيء، والغريق يتعلق بقشة، وقالت تستعطفه إنه صغير واخطأ، إذا مات إبني أين أذهب، وأنت كبيرنا وليس لدينا بعد الله غيرك!؟

تعرف أن كلماتها منافقة ولم تقلها بحرارة، والملعون احس بها، وشعر بكذب نبرتها وأنها تريد أن تستغفله، فقال كأنه يغلق الأبواب أمامها، إذا مات إبنك بالقير وبئس المصير، وإن، ضحك عاليا وقهقه بصوت ممطوط، بشكل لا يتناسب مع مكانته .

وأضاف اذا ظل حيا فهذا درس لن ينساه، ويعرف الله حق! إذهبي من هنا، لا أريد أن أرى وجهك ثانية!

احست أن الأرض تميد تحتها، وأن البلل يسرى في كامل جسمها، تعرقت كثيرا، وقالت كلمتها الرصاصة، إطلقتها بكل ما تملك من قوة، فحين تزلزل الأرض زلزالها، لن يستطيع أحد ردها.

- الى متى تبقى يا جبير بن فليح ثورا معمما!

إهتزت أركان المضيف، وبهتت وجوه الحضور و فوجئوا بسقوطها المدوي.

أحمر وجهه خجلا، وعلا فمه باللعاب، وتدلى لسانه، وجحظت عيناه، ومال الى الارض كما ينيخ البعير.

فوجئ بسرعة هذا الهجوم المدوي،وتسميته بأسمه من دون لقب،

بقى الجميع صامتا لايقوي على فعل شيء، وكأن طيرا على رؤوسهم، تركتهم ومضت، وهي مرفوعة الرأس، على الرغم من الأسى والحزن الجاثمين على صدرها، لأنها ربما ستفقد سندها ونفسها .

شعرت أن ميزان الكون يتهدم، وأن ما تبقى من أيامها ليس كثيرا، فعلتها لا يلبس عليها ثوب، بعد أن عرته ومسحت به الأرض، وقطعت كل حبل الوصل معه. فدوي كلمتها في الديوان تردد في جنبات القرية كلها، ولاتدري لماذا إنتابها شعوركأنما

اطقلت رصاصة الرحمة على نفسها، فإبن فليح ليس قليل شر ولا يترك ثاره، وربما تأتيها طلقة تائهة في جناح الليل، أو تحرق مع صرفيتها، أويجري سحلها الى النهر وإغراقها كخنزيرة برية. لكنها في قرارة نفسها لم يعد يهمها شيئا، وليس أمامها ما تخسره، إذا راح بداي، الموت واحد والرب واحد، وأهلا وسهلا بهذه المنية، مادام إبن فليح حصل منها على أقوى إهانة في حياته!

وقفت على الجرف الى المساء، حتى بان الحوشية وهم يسحلون بداي مشدودا بحبال في يديه ورجليه، وبدا غائب عن الوعي وتمزقت ثيابه من كثرة الضرب .

وضعوه في برميل خشبي كثير الفتحات، ثم رفعوه مع البرميل وركزوه في الماء لايظهر منه سوى رأسه، وأخذوا يقهقهون، حين بدأ بداي يصرخ، بعد أن لسعه البرد بقوة، وهو يحاول أن يخرج بلا جدوى من البرميل المحشور فيه.

نظرت زهرة لهم، وهي تحمل عصا غليظة، ربما لترد بها عدوانهم، لأنهم حاولوا منعها من الاقتراب من بداي، وبدأت بشتمهم، بل وسعت مفردات شتائمها وشملت أعراضهم ونسائهم وإمهاتهم، وما يفعله الشيخ بهن، وهم صاغرون الى سلطته، وأن خلفتهم كلها من اللقطاء، وإنهم أنفسهم لقطاء أيضا، وتحدتهم أن كانوا رجالا، وحذرتهم من الإقتراب منها، وهي تشعل النار من أجل ان تدفء إبنها، فهم إنصاف رجال.. مخانيث، بل نساء بشوارب...و وبصقت ..تفوه على هذه الوجوه النتنة. ثم وقفت كمهرة المهرة الجامحة، فليس هنالك أكثر خطرا من إنسان جريح، تحاشوا الصدام بها، وتركوها هي وجنونها تثرثر وحدها، وحتى لا يقال كل هذه الرجال مجتمعة تريد أن تضرب امرأة، لوكان رجلا لما تركوه، ولكن هذه الكلبة النابحة لا عتاب عليها. كانت عيون بداي ترمق حركات أمه .

بدأت تشعل النار عند الشاطئ، إنعكس شعاع النار على صفحات النهر، وأخذ يتموج معه، مثل جني يخرج من قمقمه، والدخان يتصاعد مع هدير النار، وهي تصيح يمه بداي بعدك تشعر بالبرد؟؟

نذرت إن خرج سالما، ستضع الحناء في كل أبواب مراقد الأئمة والصالحين، وأن تهاجر الى بغداد حتى اذا أكلوا خبزا وبصلا فقط، وتلعن كل ناحية ليس فيها رجل أخو اخته، وشهم مثل (أبو بداي) الله يرحمه. وهي مستقرقة مع نفسها، سمعت همهمة بداي، وهو يفتح عينيه وينظر اليها، بل يحاول أن يمد يديه الى النار ليشعر بدفئها .

شعرت أن بداي سيمضي ليلته بشجاعة، فتوسلت به أن لا يخذلها، وتخيلت أنه يقفز من الماء ويذهب الى الصريفة، ويخرج بندقية أبيه، ثم ألتفت أليها ليقول: والله سأجعل جبير يتقابل مع عزرائيل قريبا، والله لقطعه وأقطع نسله، وأجعل السلف كله يتشمت به.

ساعات مرت ببطء قاتل، وهي تترقب بداي والحوشية وهم يدخنون، أخذت شعلة من الموقد وأقتربت أكثر ونزلت الى الماء، لاحظت رأس بداي مائلا، فصرخت بشكل لا إرادي: يمه بداي عفاك لا تسويها، ورجعت الى الحوشية تصيح : يا سرجين الهوش، ولكم إبني (لا حس ولا نفس). لم يتحرك أحد منهم، فقصفتهم بشتائم لاذعة،

ثم إلتفتت الى النهر، وسارعت في الركض تاركة عباءتها وراءها، وقفزت، وجدت نفسها تسبح بإتجاه، كانت روحها تلتهب كشعلة نار، لم تكن تهمها لسعات البرد القوية في عظامها .

رفعت رأسها وهي تنادي: بداي.. بداي. إقتربت من الصندوق و أمسكت به، وتلمست رأس بداي كان باردا كالثلج، توسلت به أن يفتح عينيه، قلبت الصندوق، وبدأت تسحب بداي منه، وتفك رباطه، صاحت به ثانية:

-يمه بداي .. دخيلك أكعد يمه.. أكعد!

صرخت بصوت عال، أهتز النهر، وأرتجفت الضفاف والإشجار، وتراكض الحوشية يمينا ويسارا، وهم يحاولون أن يميزوا شبح المرأة بالماء، بكت وهي تحتضنه وتقبله .

نسيت نفسها ممسكة به، وكادت تهبط .. رفعت جسدها على الرغم من الثقل في يديها، نظرت على الشاطئ، فوجدت الحوشية واقفين، وهم يحملون المشاعل والفوانيس، ويتوسطهم إبن فليح، وعيونهم تقدح مثل الذئاب، حدست نيتهم من هذا التجمع.سأفعلها بيدي لا بيدهم، قالت في نفسها، فبدأت تهبط .. هبطا معا، هبطت.. هبطا معا، وكلما تحاول من دون ارادتها، أن ترفع نفسها مع بداي، لترى وجه الأرض، تشعر أن جسدها يثقل وهي غيرقادرة على السباحة، هبطت.. هبطت ..هبطت ..هبطا، فرأت شعاعا أزرق يتموج، وأن (أبو بداي) واقف بثوبه الأبيض، يمد يده اليهما، ويقول لها تأخرتما عني كثيرا. لوحت له، بعد أن دفعت بداي الى الإمام، وغرقت بالضوء، سابحة مع مخلوقات النهر من حولها، ليصبح (جرغدها) شراع سفنيتها المبحرة،، بينما ظل الشاطئ وحيدا.

بعد أن غابت الحشود عنها، غفت ضفتا النهر، وهي تتلمس الدفء من موقد زهرة، بينما ظلت أمواجه ترقص مرحبة بضيوفها بعدما ضاقت بهم الأرض.

درب يهاجِر اَلْخرائط

خالد الحلّي
ملبورن – أستراليا



ضَيَّعَ اَلْوَقْتُ مَعَانِيَهُ،
وَضَيَّعَتُ مَعَانِي اَلْوَقْتِ،
حِينَ اِخْتَلَطَ اَلْحَابِلُ بِالنَّابِلِ فِي رَأْسِيَ،
وَاخْتَلَتْ بِعَيْنَيَّ مَسَارَاتُ اَلدُّرُوبْ
صَارَتْ اَلْآفَاقُ مَلْأَى بِالنُّدُوبْ
وَغَدَتْ فَوْضَى اَلْكَلَامْ
تُطْلِقُ اَلْأَقْوَالَ مُنْذُ اَلْفَجْرِ
لَا تَصْمُتُ إِلَّا فِي اَلْغُرُوبْ
وَأَنَا أَجْتَرُّ آلَامِي وَحُزْنِي
سَائِلاً نَفْسِي إِلَى أَيْنَ سَأَمْضِي
بَعْدَ أَنْ بَدَّدَتْ اَلْأَيَّامُ آثَارَ خُطَايْ
وَ مَضَتْ تَبْحَثُ عَنْ خَطْوٍ سِوَايْ
أَيّ دَرْبٍ سَوْفَ أَخْتَارُ، وَدَرْبِي
لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ مِنِّي مُبْتَغَايْ
لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ مِنهُ مُبْتَغَاهْ
فَنَسْتُهُ اَلذَّاكِرَةْ
بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ مِنْ كُلِّ اَلْخَرَائِطْ
وَغَدًا اِسْمًا أُنَادِيهِ، وَلَكِنْ لَا أَرَاهْ

*

هَا أَنَا أَبْحَثُ عَنْ دَرْبٍ جَدِيدْ
غَيْرِ إِنِّي لَمْ أَجِدْهُ
سَائِلاً نَفْسِي وَسَاعَاتِ اَلْأَرَقْ
أَيّ دَرْبٍ سَوْفَ يُفْضِي
لِرِحَابٍ دُونَ حُزْنٍ وَذُنُوبْ
دُونَ خَوْفٍ أَوْ قَلَقْ؟

لست وحيدا بما يكفي

رياض الغريب

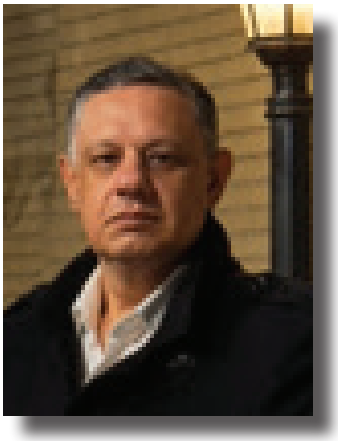


أحتاج لبلاد
بكامل أناقتها
تسير معي
أحتاج مدنا
بكامل زينتها
تخرج الآن
لتضع يدها بيدي
ونخرج
نبحث معا
عن القصيدة
مذ ولدت
وأنا قلق جدا
القلق
رفيق حياتي
كلما قلت
سأنام قليلا
جاء ليل
يحمل في يده
حربا جديدة
متى أتخلص
من هذا الليل
هل ولدنا
في تلك البلاد
لنعيش
كل هذا القلق
العراب
لا يأتي
تكاثر العرابون
في البلاد
حتى ضاع الطريق
إلى العراب الحقيقي
العراب الحقيقي

ضوء نجمة بعيدة
كلما اقتربنا منها
ابتعدت
لهذا
أجدني
كل ليلة
أشعر بهذا الفراغ الهائل
أفتح النافذة
فلا تأتي البلاد
أمشي قليلا
فلا تأتي المدن
حتى القصيدة
تتأخر عني
فأصيح
لست وحيدا بما يكفي
لأكون وحيدا
ولست محاطا بما يكفي
كي أنسى
هذا الفراغ

ما تبقى من الحبر..

د. احمد الحصناوي



أحياناً لا ينجو من الكتاب سوى ظلّ الحبر. بقعةُ باهتة أو هامش كتُبه ناسخ أو قارئ مجهول قبل قرون، أو كلمات مطموسة تحت نصّ آخر. هناك تبدأ الحياة الثانية للمخطوط.

في رواية (سمرقند) للكاتب الكبير آمين المعلوف (نشرت سنة 1988م) روى قصة مخطوطة لا تبدو كوعاء للنص، بل كائناً حياً يملك قدره الخاص. يبدأ أمرها من نسخة نادرة لـ (رباعيات الخيام) قيل إنها كُتبت في زمن قريب من صاحبها وظلت تنتقل من يد إلى أخرى عبر قرون طويلة؛ تخبئها المدن حيناً، وتطاردها الحروب حيناً آخر. كانت المخطوطة تعبر الدول والإمبراطوريات كما لو أنها تنجو من الموت في كل مرة، حاملةً فوق صفحاتها آثار القراء، وخوف المالكين، ورائحة الأزمنة التي مرّت بها.

وفي مطلع القرن العشرين تصل تلك المخطوطة إلى رجل آمن فيما كان امتلاكها يشبه امتلاك جزء من ذاكرة الشرق نفسه، فيحملها معه على متن سفينة (التايتانيك) أثناء رحلتها الشهيرة إلى العالم الجديد. هناك في الليلة التي ابتلع فيها البحر السفينة، يستهلّ معلوف بهذا السطر: (في قاع التايتانيك، كان هناك كتاب. وسأروي لكم تاريخه). غرقت المخطوطة أيضاً - لا كمجموعة أوراق – بل كعمر كامل من الترحال والنجاة والاختباء. أبتلع البحر أثرها الأخير.

المخطوطات لا تحتفظ بالنصوص وحدها، بل تحتفظ أيضاً آثار الذين مرّوا بها؛ ناسخاً كتب، وقارئاً صحّح، ومالكاً وقّع، وعابراً ترك على الهامش جملة نجت من النسيان، تلك الشذرات الصغيرة التي تبدو خارج المتن، أو ما يمكن تسميته اصطلاحاً (خوارج النص) هي ليست إضافات عابرة كما تبدو، بل الحياة الخفية للمخطوطات، حيث بقي الحبر شاهداً على أيدٍ غابت وأزمنة عبرت.

هذه الشواهد – هي حكايات قصيرة - تكشف عن عالم حي عاش خارج المتن، حتى إننا نكاد نسمع صوتا من خلال ذلك الهامش. ومن أندر هذه اللقطات

الإنسانية في تاريخ المخطوط العربي ما يرويه أنستاس ماري الكرملي (المتوفى: 1366هـ - 1947م) نقلاً عن الصحفي عبد اللطيف جلبي آل ثنيان (المتوفى: 1363هـ - 1944م)، أن نسخةً من أواخر القرن السادس الهجري من مخطوطة (صحاح) الْجَوْهَري (المتوفى: 393هـ - 1003م)، كانت محفوظة في جامع الحيدر خانة ببغداد، نسختها امرأة تُدعى (مريم بنت عبد القادر) وكان خطُها جميلاً، فجاء في هامشها اعتذار للقارئ عبر قرون: (أرجو مَن وجد فيه سهواً أن يغفر لي خطأي؛ لأني كنت بينما اخطُّ بيميني، كنت أهزُّ مهد ولدي بشمالي).

وإذا كانت بعض الهوامش قد حفظت لنا حركة الحياة العابرة، فإن بعضها الآخر احتفظ بما هو أعمق من ذلك؛ لحظات انكسار الإنسان نفسه وأمام الزمن، والخوف، والفقر. ففي مخطوطة (منهاج الوصول إلى علم الأصول) للبَيْضاوي (المتوفى: 685هـ - 1286م)، المحفوظة في خزانة المجمع العلمي العراقي، لا يعود الهامش موضعاً للتعليق أو التصحيح، بل يتحول إلى قلب مفتوح على الورق. فكما سمعنا صوتَ ذلك الطفل الذي تهزَّه أمُّه بيدها، نقف هنا على أبٍ يخّبئ بين الحواشي خوفه من العمر، والفقر، والذنوب. فقد دوّن مالك المخطوطة، بخطه خبر ولادة ابنه سنة (1185هـ - 1771م)، ثم انكسرت اللغة فجأة وتحولت إلى دعاء حزين يقول فيه: (قد رزقنا الله تعالى بإعطاء ولد واقع ولادته بُعَيْد الظهر يوم الجمعة عشر المحرم الحرام سنة 1185، اللهم اجعله صالحاً عالماً عالياً ببركة سيدنا محمد المبعوث إلى الأنام كافة، وآله وأصحابه النجباء الكرام، آمين. وأجعله لي داعياً وآخذ يدي يوم يؤخذ بالنواصي والأقدام؛ لأني صارف العمر في الغفلة والذنب، مضت الليالي والأيام، ولا تجعله كأبيه المغموم بإكثار ذنبه وتقصيره، والفقر الملازم له كل الشهور والأعوام).. في تلك اللحظة لا نرى خطوط حبر على ورقة، بل نكاد نرى رجلاً مجهولاً يجلس تحت ضوء خافت، يكتب بيد مرتجفة خوفه على ابنه، ثم يمضي، بينما يبقى أثرُ صوته عالقاً فوق الورق بعد قرون طويلة .. لقد كان ذلك الحبر كافياً ليحفظ خوف أب مجهول.

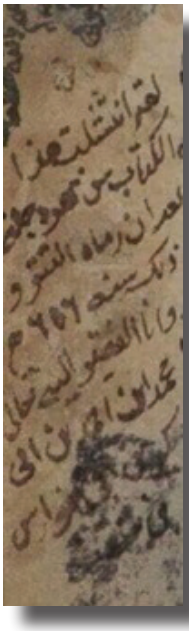
وهامش أخر ينقلنا عبر الزمن إلى أحد ازقة القاهرة القديمة. ففي إحدى النسخ النفيسة من (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبي نعيم الأصفهاني (المتوفى: 430هـ - 1038م)، سجّل أحد طلبة صدر الدين الْمَيْدُومِيُّ (المتوفى: 664هـ 1265-م)، مدونة من مجلس قراءة قديم أعادت إلينا المكان كاملاً. فقد جاء في أحد البلاغات: (بلغ أحمد بن محمد بن ثابت، قرأه على الشيخ صدر الدين الْمَيْدُومِيُّ، في الأول من يوم الثلاثاء خامس عشر ذي الحجة سنة ثلاثة وخمسين وستمائة، بمنزله جوار الجامع الناصري على شاطئ النيل).. ربما لم يكن كاتب هذه الكلمات يدرك أن ما دوّنه عرضاً سيبقى بعد قرون طويلة، أطول عمراً من المجلس نفسه؛ فلا البيت بقي، ولا أصوات القرّاء، ولا ضوء ذلك المساء المطل على النيل، بل ما تبقّى من الحبر فقط.. سطرٌ صغير حفظ لحظة عابرة من حياة مضت، ثم تركها معلقة على هامش المخطوطة كي لا تختفي من العالم.



مخطوطة (منهاج الوصول إلى علم الاصول) للبْيضاوي (المتوفى685هـ 1286/م) محفوظة في خزانة المجمع العلمي العراقي.

وشهادة أخرى تعبر إلينا من قلب الكارثة نفسها، لا تحمل صوت أب خائف، ولا همس أم تهز مهد طفلها، بل تحمل رائحة مدينة احترقت، وكتاب نجا وحده من الغرق. ففي مخطوطة (المفردات في غريب القرآن) للرَّاغِب الأَصْفَهَاني (المتوفى: 502هـ - 1108م)، المحفوظة في خزانة المكتبة القادرية ببغداد، بقيت على الهامش شهادةٌ تاريخية حيّة، كتبها رجلٌ انتشل المخطوطة من نهر دجلة بعد أن ألقى المغول الكتب فيه إبّان اجتياح بغداد سنة (656هـ - 1253م). وقد جاء في الهامش: (وقد انتشلتُ هذا الكتاب من نهر دجلة بعد أن رماه التتر، وذلك سنة 656هـ، وأنا الفقير إليه تعالى عبد الله بن محمد بن عبد القادر المكي).

في تلك الكلمات القصيرة لا نكاد نقرأ نجاة مخطوطة فحسب، بل نجاة ذاكرة كاملة من الماء والنسيان. وربما لم يبقَّ من بغداد تلك الأيام سوى ما تبقّى من الحبر .. نجا من الخراب، ليحمل بعد قرون بعيدة أثر يد مجهولة أنقذت كتاباً من الغرق، وكأنها كانت تحاول إنقاذ شيء من روح المدينة نفسها.



هامش على مخطوطة (المفردات في غريب القرآن) للرَّاغِب الأَصْفَهَاني (المتوفى: 502هـ/1108م)، محفوظة في خزانة المكتبة القادرية ببغداد

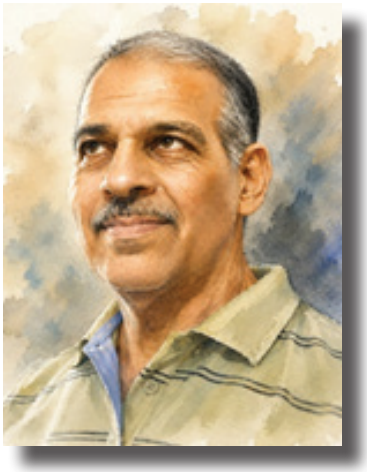
وهكذا لا تبدو المخطوطات أوراقاً صامتة نجت من القرون، بل أرواحاً حيّة احتفظت بأصداء الذين عبروا فوق صفحاتها ثم غابوا. لم يبق من أولئك جميعاً سوى ما تبقّى من الحبر؛ غير أن هذا الحبر الهشّ كان أقوى من النسيان، إذ حفظ خوفهم، وأحلامهم، وأصواتهم الخافتة، وتركها معلّقة على هوامش المخطوطات كأثر أخير لحياة مضت، لكنها لم تنطفئ تماماً.

(الحياة ناي وكوبرا)
قراءة نقدية في قصة للقاص محمد سهيل أحمد

نجاح الجبيلي*

إن دلالة عنوان قصة "قال الحاوي: الحياة جميلة كأفعى" للقاص محمد سهيل أحمد لا تتكشف منذ البداية، وإنما تتضح شيئاً فشيئاً ونحن نطأ منعرجات السرد، سائرين مع الراوي حتى لحظة الإقفال، حيث ينجح القاص في طرح إحدى فصوص الحكمة التي أجاب بها الأب عن سؤال ابنه: إن الحياة جميلة كأفعى!

يحمل هذا القول مفارقة وتناقضاً ظاهرياً Paradox؛ فالحياة جميلة وتشبه الأفعى التي تتميز بحركاتها الرشيقة الناعمة، لكنها في الوقت نفسه تحمل خطراً كامناً هو اللدغة. وهكذا تبدو الحياة معسولة وجميلة في ظاهرها، لكنها تحمل أنياباً لادغة للإنسان، قد ترديه في مهاوي الفقر والعوز والفاقة، وربما التهلكة. ومن هنا تتولد المفارقة التي ينهض عليها العنوان، إذ يجمع بين الجمال والخطر، وبين المتعة والموت المحتمل.



التحول في منظور السرد(POV)

يستخدم القاص محمد سهيل أحمد في بداية قصته منظور السرد الذاتي بصيغة المتكلم (1st-person POV)، فنحن أمام راوٍ يتحدث عن تجربته ومشاهداته. لكن السرد يتحول في المقطع الثاني إلى ما يسمى علاقة الراوي بالمروي له؛ إذ يتحول الراوي الأول، وهو تاجر التوابل العراقي، إلى مروي له، بينما يصبح الفتى الهندي دونات هو الراوي الجديد.

وهذا التحول تقتضيه بنية القصة نفسها؛ فالراوي الجديد كان قد وعد الراوي القديم بسرد قصة أبيه، الحاوي الهندي. وهنا يصغي المروي له إلى القصة التي أخذ الراوي على عاتقه أن يرويها. والمروي له هو التاجر العراقي الذي يعمل في شحن التوابل إلى أسواق بغداد بالقطار، ويسكن مع الفتى الهندي في فندق شعبي في العشار، ويستخدمه متذوقاً لأصناف التوابل.

إن الراوي، الفتى الهندي، يرتبط بالمروي له، الرجل العراقي تاجر التوابل، بنوع من التفاهم المشترك القائم على لغة مشتركة،

أي على نسق لغوي مشترك يتيح عملية التواصل بينهما. وتسلسل الأحداث في النص القصصي مرهون بإصغاء المروي له وقبوله الاستماع، لأن الهدف الحقيقي من سرد الراوي هو توصيل حكايته إليه، حاملاً غايات معينة يريد إيصالها بوساطة وسائل فنية يكون هدفها الأول السيطرة على انتباه المروي له وجلب تركيز حواسه.

يقول الراوي الهندي لمخاطبه:

"أعطيتك وعداً بأن أتحدث عن أبي... وسوف أفعل..."

إذن، هناك عقد سردي بين الراوي والمروي له: الراوي ينفذ وعداً قطعه، فيقص لا قصته هو، وإنما قصة أبيه، الذي كان جندياً في جيش الاحتلال البريطاني في البصرة، لكنه فضل البقاء فيها، وعمل في مهن متعددة، كان آخرها العمل على مركب بين بومبي والبصرة. وحين يعود إلى عائلته بعد فترة طويلة يجدها في أسوأ حال.

الراوي والمروي له Narrator and Narratee

إن أهمية المروي له تكمن في علاقته بالراوي؛ لأن هذه العلاقة تحتم تقنيات سردية معينة تسهم بدورها في ضمان عقد التواصل. فضلاً عن ذلك، يشارك المروي له في إنتاج النص، لأنه في الأصل صاحب السؤال الذي يجيب عنه الراوي بسرد حكايته. إن السؤال هنا يحدد موضوع رسالة الراوي وأسلوبه، ومن خلاله نستطيع أن نتلمس صورة المروي له واهتماماته ومشاركته في أحداث القصة.

فالراوي هو الصوت أو القناع الذي يوكله المؤلف ليروي الحكاية، ويكمن دوره في صنع مكونات القصة من أفعال وشخصيات وفضاءين زماني ومكاني، كما يتمتع بالسيطرة على تنظيم السرد وإيقاعه. وفي هذه القصة يكون الراوي داخلياً، أي شخصية مشاركة في الأحداث، وليس راوياً خارجياً.

أما المروي له، تاجر التوابل، فهو الطرف المقابل للراوي داخل النص، والجهة التي يتوجه إليها الراوي بالخطاب أو الإرسال السردي. ويكمن دوره في تلقي الرسالة السردية، وهو في الوقت نفسه شخصية واضحة داخل النص، وليس مجرد متلقٍ مفترض خارج الحكاية.

إن هذا التحول من الراوي الذاتي إلى المروي له، ثم استبدال الراوي الذاتي براوٍ آخر، يمثل التفاتة ذكية من القاص تدل على حذقه وتنويعه أسلوب القصة السردي. فهو لم يبدأ قصته بأسلوب الراوي والمروي له، على طريقة جوزيف كونراد في "قلب الظلام"، بل بدأ بالقص الذاتي بضمير الأنا، ثم، بعد أن رسخت العلاقة بين الشخصيتين، انتقل إلى أسلوب الراوي والمروي له. وبهذا الانتقال لا يكون الشكل السردي مجرد وسيلة تقنية، بل يصبح جزءاً من حركة الحكاية نفسها.

ماض لا نعرف حاضره

الراوي الذاتي في بداية القصة يقوم بتذكر قصة أبي الرجل الهندي الذي يسكن معه في الفندق. والمفارقة أننا لا نعرف عن حاضره إلا القليل؛ فهو مجهول تقريباً، بينما يطلعنا على ماضيه، فيبدو استحضار الماضي نوعاً من النوستالجيا والذكريات العزيزة إلى زمن كانت فيه البصرة مدينة كوزموبوليتانية (Cosmopolitan) متعددة الثقافات، تضم أجناساً وطوائف وألسناً مختلفة.

ولعل هذا الجانب يتصل بطبيعة القصة القصيرة نفسها، وبقدرتها على التقاط حياة الشخصيات الهامشية التي لا تجد عادة مكاناً في السرد الكبير.

يقول فرانك أوكونور في كتابه "الصوت المنفرد" (The Lonely Voice):

"كان هناك دائماً في القصة القصيرة ذلك الإحساس بالعناصر الضالة التي تتجول عند أهداب المجتمع... نتيجة لذلك يوجد في القصة القصيرة في أحسن أحوالها شيء لا يوجد غالباً في الرواية. إنه الوعي الشديد بالعزلة الإنسانية".

ويقول أيضاً:

"الحق أن القصة القصيرة لم يحدث أن كان لها بطل قط، وإنما بدلاً من ذلك "مجموعة من الناس المغمورين"... وهذه "الجماعة المغمورة" تغير شخصيتها من كاتب إلى آخر، ومن جيل إلى آخر، فقد تكون الموظفين العموميين عند غوغول، أو الخدم عند تورغنيف، أو المومسات عند موباسان، أو الأطباء والمدرسين عند تشيخوف، أو الناس الريفيين عند شيروود أندرسون، وهي دائماً تبحث عن مخرج".

ومن هذا المنظور يمكن النظر إلى شخصية كومار لا بوصفها مجرد شخصية غريبة في نسيج الحكاية، وإنما بوصفها نموذجاً للإنسان الذي دفعته ظروف الحياة إلى التنقل بين الأمكنة والمهن، وظل يبحث عن مخرج من واقعه.

حكاية كومار

تتركز القصة في معظم سردها على حكاية الأب كومار، الذي يعمل أخيراً حاوياً في سيرك، بعد أن تنقل بين مهن عديدة. وبعد عودته من البصرة إلى الهند يجد أمامه الكثير من الكوارث، ومنها موت أمه، كما يكتشف أن الرواتب التي كان يرسلها أثناء خدمته في الجيش البريطاني لم تصل إليها. ومن خلال حكاية الأب نكتشف أنه، بعد أن بقي في البصرة عقب رحيل القوات البريطانية في العهد الملكي، عاد إلى الهند، ثم التحق بالسيرك وأدى مهمات متعددة، وجال مع السيرك في أماكن مختلفة، قبل أن يستقر به الأمر في البصرة.

وهناك يتعرض للكثير من العداء والتنمر من مالكة السيرك، ويطالبها بأجوره التي لم تدفعها له. فيقرر اللجوء إلى صديقه راج، الهندي المقيم في البصرة. وحين يرحل السيرك يقفز منه إلى الشط، ثم يعود إلى البصرة، ويزور صديقه راج الذي يجعله يعمل في مهن عدة، ويقنعه بالزواج من أرملة تصبح فيما بعد أم الراوي دونات.

ولا نعرف عن حياة الراوي دونات أو المروي له، تاجر التوابل، إلا القليل؛ فكل ما نعرفه تقريباً أنهما يعيشان معاً في غرفة في فندق بالعشار. وهكذا يجعل القاص المتلقي الخارجي يصغي، بدوره، إلى قصة كومار، من خلال الإصغاء الذي يمارسه المروي له داخل القصة.

وحتى الوعد الذي قطعه دونات لتاجر التوابل بأن يروي له قصة أبيه يظل، في بدايات السرد، بلا تفسير كامل. لكن هذا الغموض لا يبدو عيباً سردياً، وإنما يسهم في دفع القارئ إلى مواصلة القراءة، منتظراً أن تتضح أسباب الحكاية ودلالتها.

الحكمة في لحظة الإقفال

تتكثف ثيمة القصة في إقفالها(Closure)

حين يسأل دونات أباه كومار عن الحياة، فيجيبه بأنها "ناي وكوبرا"، أو بما يقارب معنى أن الحياة متعة ومخاطرة في آن واحد. ثم يؤكد الدلالة بالقول بأن الحياة كأفعى.

وكأن الأب الحاوي يلقي قولاً لحكيم هندي، لكنه في الوقت نفسه يلخص تجربته الشخصية كلها؛ فقد عاش متنقلاً بين البلدان والمهن، وعرف الفقر والحرمان والاغتراب، واختبر جمال الحياة ومخاطرها، وتعرض للخديعة والاستغلال، ومع ذلك ظل قادراً على أن يرى فيها شيئاً من الجمال.

وهنا تكتسب الأفعى في العنوان معناها الكامل: ليست الأفعى مجرد صورة للخطر، ولا الحياة مجرد صورة للجمال. إنهما متداخلان؛ فالجمال نفسه قد يخفي الخطر، والحياة لا تمنح متعتها إلا وهي تحمل في داخلها احتمال الألم واللدغة.

بين العنوان والإقفال

إن دلالة العنوان مضفورة بدلالة الإقفال لتشكل حلقة دائرية تبدأ وتنتهي من حيث بدأت. في البداية يثير العنوان سؤالاً لدى القارئ: كيف يمكن أن تكون الحياة جميلة كأفعى؟ ثم يمضي السرد في استعراض حياة كومار وما فيها من اغتراب وفقر وتنقل واستغلال وخسارات، حتى تأتي الإجابة في النهاية.

وعندئذ يعود القارئ ذهنياً إلى العنوان الأول، لكنه لا يعود إليه بالمعنى نفسه الذي قرأه به في البداية. لقد أصبح قول الحاوي "الحياة جميلة كأفعى" خلاصة لتجربة إنسانية كاملة: جمالٌ لا يخلو من الخطر، ومتعةٌ لا تنفصل عن الألم، وحياةٌ قد تبدو ناعمة ورشيقة، لكنها تخبئ في داخلها لدغة مباغتة.

وهكذا ينجح القاص محمد سهيل أحمد في أن يجعل من الحكاية البسيطة عن حاوٍ هندي وتجواله بين البصرة والهند والسيرك، حكايةً عن الإنسان نفسه وهو يحاول أن يجد مخرجاً من الحياة، فيما الحياة، مثل الأفعى، تمنحه جمالها وتحتفظ في الوقت نفسه بلدغتها.

*** نجاح الجبيلي: كاتب ومترجم صدرت له مجموعة قصصية ومجموعة من الكتب المترجمة. عضو جماعة البصرة أواخر العشرين (1991 - 2000).**

المصادر:

1 - نشرت القصة في مجلة الثقافة الجديدة- العدد 460 - تموز 2026.

2 - قاموس السرديات- جيرالد برنس- ترجمة: السيد إمام- ميريت للنشر- 2003.

3 - الصوت المنفرد- مقالات في القصة القصيرة- فرانك أوكونور- ترجمة: د. محمود الربيعي- الهيئة المصرية للتأليف والنشر- 1969.

مطبوعات وصلتنا

ـ ريسان الخزعلي، أدونيس: محاولة ثانية في الانصات والمتابعة، دار الورشة، بغداد 2026.
ـ كاظم غيلان، يوميات كاتب عرائض، دار كوديا، بغداد 2026.
ـ عقيل حبش، نشيد الموت: شهادة حية من لهيب المعركة، : دار وراقون 2018.
ـ إسماعيل نوري الربيعي، الحرية حضورا وضمورا في العراق العثماني. قراءة في شراك الوعي المزدوج. (سلسلة الموسوعة الصغيرة) : دار الشؤون الثقافية، بغداد 2026.
ـ سميع داود، مدونة الماء .. مدونة النور / (شعر). دار اينانا ـ بعقوبة 2026.
ـ إرادة الجبوري/ نصوص من معبد عشتار، : دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 2026.

